تاريخ مصر اليونانية الرومانية

الدكتور حسام أحمد المسيري

المدرس بالمعهد العالي للسياحة والفنادق وترميم الآثار

أبو قير – الإسكندرية

2006

المقدمة

دخلت مصر مرحلة جديدة من مراحل حياتها السياسية الطويلة بعد أن فتحها الإسكندر المقدوني في عام ٣٣٢ ق.م وفي هذا العام ينتهي تاريخ مصر الفرعونية ويبدأ تاريخ مصر في العصرين اليوناني والروماني .

يحتوي هذا الكتاب تاريخ مصر في العصر البطلمي والذي يبدأ تاريخه بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام٣٢٣ ق.م، وكانت مصر من نصيب القائد المقدوني بطلميوس عند تقسيم إمبراطورية الإسكندر الأكبر بين قواده ، واستطاع بطلميوس الأول ومن بعده الملوك البطالمة تأسيس الدولة البطلمية في مصر وتكوين إمبراطورية بطلمية ضمت العديد من الدول واتخذوا من مصر قاعدة لهم وعاصمة لتلك الإمبراطورية المترامية الأطراف ، ثم تدهورت الدولة البطلمية وأنهارت عام ٣١ ق.م بعد هزيمة الملكة كليوباترا السابعة آخر ملوك الأسرة البطلمية في موقعة أكتيوم البحرية علي يد الإمبراطور الروماني أغسطس ، وفي هذا العام تحولت مصر من دولة مستقلة تحت حكم البطالمة إلى ولاية رومانية تتبع إمبراطور روما .

كذلك يحتوي هذا الكتاب تاريخ مصر في العصر الروماني والذي يبدأ تاريخه في عام ٣١ ق.م بعد موقعة أكتيوم ودخول الإمبراطور أغسطس في عام ٣٠ ق.م، وهو نفس العام الذي يؤرخ في التاريخ الروماني بنهاية العصر الجمهوري وبداية العصر الإمبراطوري ، وتدهورت الإمبراطورية الرومانية بسبب انتشار الديانة المسيحية وينتهي العصر الروماني في عام ٢٨٣ م لتدخل مصر في العصر البيزنطي عام ٢٨٤ م ، واستمر اضطهاد المسيحيين علي أيدي الأباطرة الرومان إلى أن اعترف الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية عام ٣٢٣ م وكان

أول إمبراطور مسيحي ، وينتهي العصر البيزنطي في مصر عام ٦٤٠م بدخول العرب لمصر علي يد عمرو بن العاص .

وأرجو أن يوفقني الله في الإسهام ولو بقدر بسيط في المعرفة العلمية في مجال تاريخ مصر اليونانية الرومانية .

الفصل الأول
مصر في العصر البطلمي



العلاقات بين مصر وبلاد اليونان قبل الفتح المقدوني

يمثل فتح الاسكندر الأكبر لمصر عام ٣٣٢ ق.م نقطة تحول كبرى في تاريخ مصر العام حيث ينتهي تاريخ مصر الفرعونية ويبدأ تاريخ مصر اليونانية الرومانية .

لم يأت الإغريق إلى مصر مع الإسكندر الأكبر للمرة الأولى ، بل أن العلاقات بين البلدين ترجع إلى أقدم الحقب التاريخية ، فقد كشفت الحفائر التي تمت حتى الآن في جزيرة كريت عن آثار مصرية تثبت وجود علاقات بين مصر وهذه الجزيرة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وأن التقارب بينهما بلغ ذروته في عصر الدولة الحديثة (١) .

لم تكن العلاقات المصرية اليونانية في تلك المرحلة المبكرة قاصرة علي التبادل التجاري بين مصر وجزيرة كريت – التي كانت مهداً للحضارة المينوية – ولكن هناك دلائل أثرية علي وصول المنتجات المصرية إلى مختلف المناطق في شبه الجزيرة اليونانية مثل أسبرطة وميكيني وأرجوس فيما قبل نهاية الألف الثاني قبل الميلاد . (٢)

استمرت العلاقات التجارية بين مصر واليونان في المرحلة التالية للحضارة المينوية فبعد مرحلة الفوضي والاضطراب التي سادت بلاد اليونان بسبب الغزو الدوري استمرت التجارة المصرية مع هذه البلاد خلال القرن السابع قبل الميلاد (٣) ، وأضيفت للعلاقات المصرية اليونانية أبعاد جديدة تمثلت في الوجود اليوناني في مصر من خلال الأعداد الكبيرة من الجنود المرتزقة الذين استعان بهم ملوك العصر الصاوي ضد الليبيين والفرس بالإضافة إلى أعداد أخرى من اليونانيين الذين جاءوا شطر مصر بغرض التجارة واستقر بعضهم في المدن الجديدة التي أسسها الملوك المصريون لإقامتهم (٤) .

من هنا يمكن القول أن العلاقات المصرية اليونانية التي سبقت دخول الإسكندر المقدوني ثم توريثها للبطالمة من بعده كانت نتاجا لعدة ظروف نلخصها فيما يلي : -

١- ظهور الفرس كقوة كبرى في القرن السابع قبل الميلاد ووقوع مصر في قبضتها فضلا عن تهديدها لبلاد اليونان ، أي أن الفرس صاروا عدواً مشتركاً لكل من مصر واليونان .

٢- كانت مصر في هذه المرحلة هي أهم مركز من مراكز إنتاج القمح في العالم وكانت اليونان إحدى أقل مناطق العالم إنتاجاً لتلك السلعة الحيوية ، وبالتالي كانت المدن اليونانية في احتياج دائم للقمح المصري .

٣- استعان ملوك مصر في العهد الصاوي بالجنود المرتزقة من اليونان للقضاء علي الخطر الليبي ومقاومة العدوان الفارسي حيث كان من المعتاد في هذا الوقت الاستعانة بالمرتزقة في كل دول العالم القديم ، وكان اليونانيون من أفضل هؤلاء الجنود وأكثرهم خبرة في الحروب .

٤- في حين كانت المدن اليونانية تتمتع بوفرة في مناجم الفضة مما أدى إلى نجاحها في سك العملات المختلفة ، وكانت مصر تعاني فقراً واضحاً في هذا المجال ومن هنا كانت حاجة مصر إلى فضة الإغريق في صورة العملة لتسليح الجيش ودفع أجور الجنود المرتزقة .

هذه الظروف مجمعة أدت إلى التقارب بين مصر واليونان عن طريق الملاحة البحرية في الفترة السابقة علي ظهور الإسكندر المقدوني وخضوع مصر لسلطانه ثم لسلطان أتباعه من البطالمة .

وكان من الطبيعي في ظل هــذه الظــروف أن يتفــق الطــرف المصري والطرف الإغريقي في مجموعة الأحداث وردود الأفعال التــي ترجع إلى هذه الفترة .

ففي أعقاب الانتصار الإغريقي في موقعة ماراثون كانت هنــاك ثورة في مصر ساعدها الأثينيون بأسطول بحري عام ٤٨٦ ق.م .

حين كانت أثينا تعاني من محنة الحرب في سبيل إمبراطوريتها عــام ٤٤٦ ق.م أرسلت مصر أسطولا محملا بالقمح إلى أثينا في العام التالي .

وفي نهاية القرن الخامس قبل المــيلاد وفــي أثنــاء الحــروب البلوبونيزية كانت كلا من أثينا وأسبرطة حريصة علي وصــول القمــح المصري اللازم لهما مع حرص كل منهما علي منــع وصــول القمــح المصري للطرف الآخر .

استمر التقارب المصري اليوناني في المرحلة التالية حيث نشهد حلفا مع مصر في عهد الأسرة التاسعة والعشرين من جانب كل من أثينا وقبرص.

كما نجد أيضا معبدا مصريا للآلهة إيزيس في بيريه في نفس ذلك الوقت (٥) .

هكذا كانت العلاقات المصرية اليونانية في مجملهــا قبــل فــتح الاسكندر المقدوني لمصر ، ونستخلص مــن هــذه العلاقــات نتيجتــين أساسيتين كانتا أساسا للعلاقات بين الطرفين في المرحلة التالية .

النتيجة الأولى تتمثل في وفرة العملات اليونانية في مصر ممــا أدى إلى إصدار المصريين لعملة خاصة بهم لأول مرة في التاريخ .

أما النتيجة الأخرى فتتمثل في التبادل التجاري والعلاقات الوثيقة بين مصر واليونان في هذه المرحلة كانت سببا في اكتشــاف اليونــانيين الأهمية الاقتصادية الكبرى لمصر بالنسبة لهم وخاصة في مجال الإنتــاج الوفير للغلال ، وأدرك الإسكندر المقدوني أهمية امتلاك مصر كمصــدر

لتموين بلاد اليونان وجيوشها في آسيا بالقمح ، وكان هذا هو الدافع الأول وراء الغزو المقدوني لمصر ودخولها بعد ذلك حقبة الولاية للبطالمة .

تمهيد تاريخي عن حكم البطالمة لمصر بعد وفاة الاسكندر

بعد نجاح الإسكندر المقدوني في دخول مصر علي حساب الفرس في خريف عام ٣٣٢ ق.م تمكن مـــن تحقيـــق التواصـــل الســـلمي مـــع المصريين نتيجة لاحترامه لعقائد وعبادات الشعب المصري بالإضافة إلى العلاقات الودية التي كانت تربط بين مصر واليونان في المراحل السابقة علي ظهور الإسكندر الأكبر .

وبدأ الاسكندر خطواته في مصر بزيارة معبد الإله آمـــون فـــي سيوه ثم إنشاء مدينة الإسكندرية وتفرغ بعد ذلك لإقـــرار نظـــم الحكـــم والإدارة في مصر الذي تركه لبعض المعاونين الذين كان مـــن أبـــرزهم كليومنيس النقراطيسي .

تتلخص النظم الإدارية التي أقرها الاسكندر في مصر في تقســـيم البلاد إلى قسمين رئيسيين أحدهما الوجه البحري والآخر الوجـــه القبلـــي وعلي رأس كل قسم إدارة برئاسة موظف مصري .

وأنشأ علي الحدود الشرقية والغربية مقاطعتين جديدتين علي رأس الأولى كليومنيس وعلي رأس الثانية أبوللونيوس ، وعين الإسكندر علـــي رأس الحامية العسكرية اثنان من القادة التابعين له بالإضافة إلـــى قائـــد للأسطول وقادة آخرين لبعض الوحدات في ممفـــيس وبلوزيـــوم وعهـــد الاسكندر بالإشراف المالي إلى كليومنيس مع تـــرك حكـــام المقاطعـــات يديرون المقاطعات بأنفسهم ويلتزمون بتوريد الضرائب المفروضة .

في أعقاب الوفاة المفاجئة للإسكندر المقدوني عام ٣٢٣ق.م (٦) بدأ خلاف بين القادة حول مشكلة الوراثة أتفق الجميع علي أن يتولى العرش ملكان هما أريديوس الذي لقب بفيليب الثالث (كان أخـــا غيـــر شـــقيق

للاسكندر) والمولود المنتظر للإسكندر من روكسانا زوجتـــه الفارســـية والذي لقب بالاسكندر الرابع . ومنحت القيادة العليا للجــيش فـــي آســـيا لبرديكاس الذي استطاع أن يجعل نفسه وصيا علـــي الملكـــين حيـــث أن اريديوس كان معروفا بالبلاهة وضعف العقل . أما القيادة فـــي اليونـــان فمنحت لأنتيباتروس ، وكان الاسكندر عينه لتدبير شئون مقدونيا في غيابه وللإشراف علي اليونان .

أما سائر أجزاء الإمبراطورية فوزعت بـــين القـــادة الآخـــرين واستمر العمل بالنظام الفارسي فكل ولاية سميت ساتربيه وحاكمها ساتربا وهناك أربعة سيصبح لهم شأن وهم أنتجونس الذي منح فريجيا الكبـــرى وبامفيليا وليكيا (في آسيا الصغرى) ولوسيماخوس مـــنح طراقيـــا ثـــم سليوقس عهدت إليه قيادة عليا في الجيش كالساعد الأيمن لبرديكاس ، أما مصر فمنحت لبطلميوس بن لاجوس علي أن يصبح كليومنيس – الـــذي عينه الاسكندر مشرفا علي ماليتهـــا – مســـاعدا لبطلميـــوس بمنصـــب هيبارخوس Hyparchos .

بمقتضي اجتماع مؤتمر بابل

- عصر القوة :

بطلميوس الأول سوتير (٣٢٣ ق.م - ٢٨٤ ق.م)

وصل بطلميوس بن لاجوس إلى مصر في صيف عام ٣٢٣ ق.م بوصفه ساترابا أو واليا وكان يتسم بصفتين أساســـيتين همـــا الحـــرص والتواضع ، وكان هدفه الرئيسي هو تأمين سلطانه في مصر وإضـــافة بعض مناطق النفوذ في بحر إيجه [٧] .

وتمكن بطلميوس في بداية عهده من تحقيق بعض الانتصارات الخاطفة التي كان أهمها ضم برقة إلى سلطانه ثم إلغاء تبعيته لبرديكاس في السلطة المركزية للإمبراطورية المقدونية وتخلصه من كليومنيس .

بدأت خلافات بطلميوس الأول ضد السلطة المركزية بشأن دفن جثمان الاسكندر الأكبر ، إذ كان برديكاس قد قرر دفنه في مقدونيا ، وبينما كانت الجنازة في طريقها إلى مقدونيا ، استولى بطلميوس علي تابوت الاسكندر في سوريا ونقله إلى ممفيس في مصر ثم نقله بعد ذلك إلى الإسكندرية حيث كان يعرف باسم سيما Sema أو سوما Soma (٨).

تمكن بطلميوس الأول أيضا من التصدي لمحاولة برديكاس في غزو مصر عسكريا وتأكد بذلك سلطانه ومركزه في مصر وبرقة ، وانتصر بطلميوس الأول علي ديمتريوس ابن أنتجونس حاكم آسيا الصغرى (فريجيا الكبرى – بامفيليا – ليكيا) إنتصاراً ساحقا في موقعة غزة في عام ٣١٢ ق.م ، وتمكن بطلميوس بعد هذا الانتصار من التوغل في سوريا الجنوبية وفلسطين وفينيقيا . وسرعان ما عاد ديمتريوس من بابل وإنتصر علي جيش بطلميوس في شمال سوريا في عام ٣١١ ق.م حيث اضطر بطلميوس إلى الانسحاب ، وفي نفس الوقت ثار عليه والي برقة ففقد بطلميوس ممتلكاته هناك (٩) .

في عام ٣١١ ق.م ضاقوا القادة الآخرون من استمرار تلك الحروب والتي لم يروا لها نهاية حاسمة فعقدوا اتفاقا أهم ما يتضمنه هو أن يتنازل بطلميوس الأول عن سوريا الجنوبية . في هذا الاتفاق سمى القواد الموقعون عليه أنفسهم " القائمين علي الأمر " (١٠) .

عمل بطلميوس علي تأكيد سيطرته علي البحر وإنشاء إمبراطورية بحرية في بحر إيجه متخذا من قبرص التي كانت تابعة له مركزاً لهجومه الجديد .

في عام ٣٠٩ ق.م ذهب علي رأس اسطوله القوى واستولى علي ليكيا (في آسيا الصغرى) ، وجزيرة كوس التي اتخذها بعد ذلك مقرا لقيادته في المنطقة ، وفي عام ٣٠٨ ق.م استولى علي جزر الكيكلاديس

وكورنثا وسيكيون Sicyon وميجارا ، وفي نفس العام استطاع أن يبسط سلطانه علي برقة .

وفي عام ٣٠٧ ق.م أرسل أنتجونس ابنه ديمتريوس إلى اليونان وما أن وصل حتى سقطت حكومة الأقلية في أثينا وقامت مكانها حكومة موالية لأنتجونس وإبنه ، ثم تحرك ديمتريوس إلى قبرص وهاجمها وانتصر علي بطلميوس في موقعة بحرية وهي موقعة سلاميس ٣٠٦ ق.م ونتيجتها فقد بطلميوس السيطرة علي البحر وأعلن بطلميوس الأول نفسه ملكا علي مصر في عام ٣٠٦ ق.م .

حاول أنتجونس إخضاع منافسيه بالقوة وابتدأ ببطليموس وذلك ليكسب مجداً سريعا بالاستيلاء علي مصر بعد أن فقد بطلميوس ممتلكاته الخارجية وتحرك أنتجونس بقواته البرية والبحرية في عام ٣٠٦ ق.م علي مصر فتحرك أنتجونس براً عن طريق سوريا وفلسطين بينما كان ابنه ديمتريوس علي رأس الأسطول من جهة البحر ، لكن فشل أنتجونس في الاستيلاء علي بلوزيوم كما فشل إبنه في الاستيلاء علي النيل وانسحبا بعد ذلك .

بعد ذلك لجأ أنتجونس إلى الحصار الاقتصادي علي مصر ، وحاول أن يغري جزيرة رودس بقطع علاقاتها التجارية مع بطلميوس ، حيث كانت رودس مركزاً للتجارة العالمية وكان كل من يسيطر علي هذه الجزيرة يتحكم في التجارة ولكن رودس رفضت بقطع علاقاتها التجارية مع بطلميوس مما اضطر أنتجونس بإرسال إبنه ديمتريوس علي رأس أسطول لمهاجمتها ولكن رودس تمكنت من التصدي لديمتريوس وذلك من خلال حصاره في عامي ٣٠٥ –٣٠٤ ق.م ولقد ساعد بطلميوس جزيرة رودس بجميع إمكانياته وساعدها علي الصمود .

تكون حلف جديد بين القادة ضد أنتجونس وبينما الحلفاء مشغولين بحرب ضد أنتجونس وأبنه استولى بطلميوس الأول علي سوريا الجنوبية للمرة الثالثة ، ولكن انتشرت إشاعة بانتصار أنتجونس علي الحلفاء وأنـــه في طريقه إلى سوريا فما كان من بطلميوس إلا أن انسحب إلـــى مصـــر ولكن تلك الإشاعة كاذبة والحقيقة أن الحلفاء إنتصروا في موقعة إبسوس في فريجيا الكبرى عام ٣٠١ ق.م وفيها قتل أنتجونس ، وفر ديمتريـــوس إلى إفيسوس .

اجتمع القادة المنتصرون بعد موقعـــة إبســـوس لاعـــادة توزيــــع الإمبراطورية : كاساندروس (ابن انتيباتروس) في مقـــدونيا واليونـــان لوسيماخوس في آسيا الصغرى ، وسليوقس في بابل وسوريا وبطلميوس في مصر (١١) .

أهم ما نلاحظه في هذا التوزيع الجديد هو أن ســـوريا الجنوبيـــة سلبت عن بطلميوس ومنحها لسليوقس ، كان اتفاق عام ٣٠١ ق.م السبب في خلق ازمة تسمى المسألة السورية لأن بطلميوس يعتبر نفسه صـــاحب الحق في سوريا الجنوبية واحتلها للمرة الرابعة بعد معركة إبسوس ولكن سليوقس تمسك بالاتفاق واعتبر أن بطلميوس لم يشترك في القضاء علي أنتجونس وانسحب من سوريا بمجرد ســـماعه إشـــاعة . ولهـــذا طالـــب بطلميوس بالانسحاب من سوريا (١٢) .

نلاحظ أن القضاء علي أنتجونس لم يقض علي انتهاء المنازعات بين الملوك المقدونيين بل عمل كل منهم علي تحقيـــق أطماعـــه فنجـــد بطلميوس إستعاد سيادته البحرية في عام ٢٩٥-٢٩٤ ق.م باستيلائه علي قبرص والتي كانت تحت سيطرة ديمتريوس وأعقب ذلك بتأكيد نفوذه في بحر إيجه وحمايته لجزر الكيكلاديس ٢٨٧ ق.م .

بعد موت كاساندروس في مقدونيا استغل ديمتريـوس الفرصـة وسعي أن يخلفه في مملكته وفعلاً استولي علي مقدونيا في عام ٢٩٤ ق.م ولكن تصدى له الملوك الآخرون له وتدور بينهم الحرب من عام ٢٨٨- ٢٨٥ ق.م استولى لوسيماخوس وبيروس (ملك ابيروس) علي مقـدونيا ويقع ديمتريوس في أسر سليوقس ٢٨٥ ق.م . ويموت ديمتريوس فـي الأسر عام ٢٨٣ ق.م ويخلفه إبنه أنتجونس علي راس بعض اتباعه فـي بلاد اليونان حيث ساندته بعض المدن التي كانت صديقة لوالده .

طمع لوسيماخس في عرش مقدونيا بعد موت ديمتريوس ولكنـه اصطدم وانهزم لوسيماخس في معركة عند كوروبيديون (معناها سـهل قورش) عام ٢٨١ ق.م ويقتل لوسيماخوس في المعركة ولم يوجد مـن يخلفه أو يطالب بحقه من بعده .

تولي سليوقس عرش مقدونيا علي صعيد آخر نجد بطلميوس منذ عام ٢٨٥ ق.م أراد أن يرتب مسألة وراثة العرش وهو في سن ٨٢ سنة وأراد إبعاد إبنه الأكبر من الملكة يوردريكي والذي يسـمى بطلميـوس الصاعقة (Keraunos) وإسناد الحكم لابنه الأصغر من زوجته الثانيـة برنيكي فاشرك بطلميوس الأول إبنه الأصغر في الحكم معه و الذي إنفرد بحكم مصر بعد وفاة والده فـي عـام ٢٨٤ ق.م / ٢٨٣ ق.م واصـبح بطلميوس الثاني فيلادلفوس وهو في سن ٢٥ سنة ملكا علي مصر .

لجأ بطلميوس الصاعقة إلى سليوقس لينصره علـي أخيـه وينصـبه عرش مصر ، ويعده سليوقس خيراً ولكن بطلميوس الصـاعقة قتـل فجـأة سليوقس ودخل مقدونيا ونصب الجنود بطلميوس الصاعقة ملكا فـي مقـدونيا بينما يخلف سليوقس علي عرشه في سوريا وبابل ابنه انتيوخس الأول .

في مقدونيا هاجم المتبربرين بطلميوس الصاعقة وذهب ضحيتهم وجاء بعده آخرون ولا يبقون في الحكم سوى أسابيع أو أشهر قليلة حتـى

ظهر فجأة أنتجونس بن ديمتريوس الذي عمل حلفاً مع انتيوخس ملك سوريا وبابل وجمع جيشا في آسيا الصغرى وحارب المتبربرين في معركة عند لوسيماخيا (في الجزء الجنوبي من طراقيا) وانتصر عليهم واتجه إلى مقدونيا ونصب نفسه ملكا عام ٢٧٧ ق.م .

انقسمت إمبراطورية الاسكندر الأكبر إلى ثلاث ممالك تحكمها ثلاث أسر وهي الأسرة البطلمية في مصر ويحكمها بطلميوس الثاني فيلادلفوس والأسرة الأنتجونية في مقدونيا ويحكمها أنتجونس الثاني والأسرة السلوقية في آسيا ويحكمها أنتيوخس الأول .

السياسة الداخلية لبطلميوس الأول :

اصبح بطلميوس علي رأس دولة ألفت حكم الملوك الآلهة في شخص فرعون منذ اقدم العصور ، واصبح بطلميوس ملكا وفرعونا لمصر ، رغم انه كان يسمى " نائب الملك " في الفترة الأولى من حكمه حينما كان ساتربا ولكن منذ عام ٣٠٥ ق.م اتخذ لنفسه لقب ملك وكان يسمى بالملك الإله ابن الإله (١٣) .

اعتمد بطلميوس علي المقدونيين والإغريق في جيشه وحكومته من أجل بناء مصر الجديدة ، ومن أجل هذا كان بطلميوس في حاجة إلى أعداد كبيرة من المقدونيين والإغريق ولذلك اتخذ سياسة لتشجيع وتنظيم هجرة الإغريق إلى مصر . فمنح الجنود في جيشه قطعا من الأرض يمكنهم أن يقيموا عليها ويستثمرها في وقت السلم .

كون الإغريق القدماء مدن علي نمط المدن اليونانية مثل نقراطيس . أبقى بطلميوس علي المدن اليونانية التي كانت موجودة من قبل وهي نقراطيس والإسكندرية التي كان الاسكندر قد أسسها . ولم ينشئ من المدن سوى مدينة بطلمية في أعلى الصعيد وكان الهدف من إنشائها أن تكون مركزاً للدفاع عن الجنوب .

الإله الجديد :

يتكون المجتمع المصري الجديد من المصـــريين وهـــم الغالبيـــة العظمى والمقدونيون الإغريق والسوريون والفينيقيون والفرس واليهـــود وغيرهم ممن كانوا بمصر أو جاءوا ســـعيا وراء الكســـب تحـــت لـــواء البطالمة . وكان لكل فئة آلهة ، وفي بعض الأحيان اختلطت بعض الآلهة بعضها ببعض ، ووجد تشابه بين آلهة الشعوب المختلفة بل تشابه آمـــون المصري بزيوس الإغريقي أو إيزيس المصرية بعشطروت الفينيقيـــة أو هاتور بأفروديت (١٤) .

وكان الملك البطلمي في حاجة إلى نوع من الوحدة الدينية التـــي تشمل أهم العناصر في دولته وهم المصريون والإغريق حتى تساند هـــذه الوحدة الدينية الوحدة السياسية للدولة (١٥) .

فلذلك اختار الملك البطلمي اله محلي في مدينة ممفيس هو أوزير أبيس أي عجل أبيس وأدخل عليه تعديلان الأول اسمه فأصبح ســـرابيس ليسهل علي الإغريق نطقه ، والتعديل الثاني يتمثل في صورة إنسانية بدلا من صورة العجل ، ثم انشئى للإله معبد كبير في الإسكندرية فـــي قريـــة راقودة القديمة لم يبق سرابيس بمفرده والحق به الزوجة ايزيس والابـــن حورس (١٦) .

ونشأت عبادة جديدة ذات طابع رسمي في عصر بطلميوس الأول وهي عبادة الملوك ، وابتدأت بتقديس الاسكندر رسميا وعين لـــه كـــاهن خاص ، لم يقف الأمر عند الاسكندر بل شملت هذه العبادة الرسمية الملك بطلميوس فيما بعد (١٧) .

بطلميوس الثاني فيلادلفوس ٢٨٥-٢٤٦ ق.م

السياسة الخارجية :

عندما توفي بطلميوس الأول عام ٢٤٨ ق.م انفرد ابنه بطلميوس الثاني بالحكم بعد أن اشترك مع والده في الحكم منذ عام ٢٨٥ ق.م ، ويختلف بطلميوس الثاني عن والده فكان والده جنديا من الطراز الأول وكان بطلميوس الثاني يعشق حياة النعيم والبذخ وبعيدا كل البعد عن حياة الجندية وأخلاقها حتى لم نعرف عنه انه قاد جيشه بنفسه في أي من هذه الحروب الكثيرة التي خاضتها الدولة في عصره وكان يكتفي بأن يقودها عنه قواده (١٨) .

من أهم الشخصيات التي لعبت دوراً رئيسياً في سياسة بطلميوس الثاني هي الملكة أرسنوي الثانية أخت الملك البطلمي وزوجته الثانية ، بينما هو ثالث زوج لها واصغر منها سنا ، فقد سبق لها أن تزوجت من لوسيماخس وبعد موته تزوجت أخيها غير الشقيق بطلميوس الصاعقة الذي اصبح ملكا علي مقدونيا ولكنه قتل ابنها الأكبر من لوسيماخس فهربت منه واستقرت بالإسكندرية وحينذاك كان أخوها الشقيق بطلميوس الثاني علي العرش هو وزوجته الملكة أرسنوي الأولى وكان لهما ولدان وبنت ، فما كان من أرسنوي الثانية أن دبرت مكيدة أوقعت بين بطلميوس الثاني وزوجته فنفاها إلى قفط في صعيد مصر .

وتزوج من أخته الشقيقة أرسنوي التي تبنت أولاد ارسنوي الأولى من بطلميوس ، وكانت أرسنوي الثانية ذات طموح ولها تأثير كبير علي سياسة بطلميوس الثاني أثناء حياتها حتى أصبحت اشهر وأقوى امرأة في عصرها ، وكانت أرسنوي أول ملكة بطلمية تؤله رسميا هي وبطليموس

الثاني أثناء حياتهما تحت لقب فيلادلفوس (أي المحبة لاخيها أو المحب لاخته) كما اطلق اسمها علي إحدى مقاطعات مصر الكبرى وهي الفيوم (١٩) .

سار بطلميوس الثاني في مجال السياسة الخارجية علي نهج والده في توطيد نفوذ مصر السياسي أو العسكري في ثلاث مناطق أساسية وهي سوريا الجنوبية علي الحدود الشرقية وبرقة علي الحدود الغربية وبحر ايجه في الشمال .

فيما يتعلق بسوريا فكانت منطقة سوريا الجنوبية لا تتبــع لأي مــن الدولتين البطلمية أو السليوقية ولهذا ظلت موضع نــزاع بــين الأســرتين ، وتكررت الحروب بشأنها ، وشهد عصر بطلميوس الثاني حربين سوريتين :

الحرب السورية الأولى :

الحرب السورية الأولى بدايتها عــام ٢٧٦ ق.م واســتطاع الجــيش المصري التقدم شمالا حتى احتل مدينة دمشق ، واستطاع الملــك الســوري انتيوخس الأول من استخلاص دمشق وانسحبت القوات المصرية إلى ســوريا الجنوبية في فلسطين وبذلك أصبحت فينيقيا في قبضة الملك المصري .

لم يعتمد بطلميوس الثاني في هذه الحرب علي القوات البرية بــل استخدم أيضا قواته البحرية في مهاجمة سواحل آسيا الصغرى التي كانت تابعة للملك السليوقي ، حتى انه عندما تم الصلح بين بطلميــوس الثــاني وأنتيوخس الأول كانت أجزاء من سواحل كيليكيا وبامفيليا وليكيا وكاريــا تتبع السيادة المصرية .

كانت توجد قوة بحرية لمصر في بحر ايجة منذ عصر بطلميوس الأول وكانت جزر الكيكلاديس تدين بالولاء للملــك المصــري ، ولكــن فيلادلفوس سعي إلى زيادة النفوذ المصري في هذه المنطقة ، فمد نفــوذه إلى جزيرة ساموس ومدينة مليطة وهاليكارناسوس علــي ســاحل آســيا الصغرى الغربي ، هذه المدن والجزر كانت بمثابة نقط ارتكــاز تمكــن

بطلميوس من التدخل في شئون العالم اليوناني . مثلاً انه أثنـــاء اشـــتباك فيلادلفوس في الحرب السورية الأولى نجد أن الملك المصري يساند الملك بيروس ضد أنتجونس ملك مقدونيا في الصراع بينهما وذلك ليمنع تحالف أنتجونس مع انتيوخس ضده في الحرب السورية .

عمل بطلميوس الثاني محالفة مع مدينة برجامة (شـــمال غـــرب آسيا الصغرى) تقليدا لوالده في محالفة برجامة حيث كانـــت مـــن أهـــم مصادر الخشب لمصر في بناء أسطولها وخاصة في فترة العداء في ذلك الوقت بين مصر ومقدونيا الغنية بالأخشاب أيضا . فنجد الملك بطلميوس يناصرها في صراعها ضد أنتيوخس ، وفي هذه الحرب انتصـــر ملـــك برجامة علي انتيوخس في معركة تسمى سارديس عام ٢٦٢ ق.م ، وفي نفس العام استطاعت مصر أن تستولى علي إفيسوس .

الحرب السورية الثانية :

بعد معركة سارديس عام ٢٦٢ ق.م توفي انتيوخس الأول وخلفه ابنه انتيوخس الثاني علي سوريا والذي عزم علي الانتقام من فيلادلفوس الذي ساند برجامة في حربها ضد والده ، ولذلك شن حربا سميت بالحرب السورية الثانية ، في هذه الحرب كانت جميع الظروف ضد مصر حيـــث تحالف انتيوخس الثاني مع مقدونيا ورودس ، كما ثار والـــي إفيســـوس ومليطة التابعين للملك المصري ، ولذلك تلاحقت علي مصر سلسلة مـــن الهزائم أولها في معركة بحرية عند جزيرة كوس عام ٢٥٨ ق.م علي يد أنتجونس ثم عند افيسوس عام ٢٥٩ ق.م علي يد قائد رودس . بينما طرد الملك أنتيوخس الجيوش المصرية في ليكيا وبامفيليا وساموطراقيا وحتى فقدت مصر إمبراطوريتها عام ٢٥٣ ق.م في بحر ايجه لما في ذلك جزر الكيكلاديس ولم يبق لمصر سوى كاريا وجزيرة ثيرا . وتم عمل صـــلح بين الطرفين وتزوج انتيوخس إبنة فيلادلفوس المسماة برنيقي [٢٠] .

برقة :

منطقة هامة علي الحدود الغربية ، وكان نائب الملك في برقة منذ عهد بطلميوس الأول هو ماجاس الأخ غير الشقيق لفيلادلفــوس ، أعلــن ماجاس الاستقلال وشرع في غزو مصر عام ٢٧٤ ق.م ولكن فشل بسبب ثورة قبائل البدو ضده ، علي أي حال استطاع ماجاس أن يبقى منفصــلا عن مصر ، بينما وطد علاقته مع انتيوخس وتزوج ابنته أباما ثم اعلــن نفسه ملكا ، وتحسنت العلاقات بينه وبين أخيه ملك مصر واتفق الملكــان علي أن تزوج ابنة ماجاس المسماة برنيقي من ابن الملك فيلادلفوس ولكن بعد وفاة ماجاس عام ٢٥٩ ق.م لم تنفذ زوجته أباما هذا الاتفاق وبعثــت تخطب لابنتها من ديمتريوس الأخ غير الشقيق لانتجونس ملك مقــدونيا وكان معروفا بشدة جماله ، ويبدو أن الملكة قد وقعت في حبه ولكن ابنتها لم ترض بالأمر ودبرت له مكيدة وقتلته وهو في فراش والدتها عام ٢٥٥ ق.م واصبح زمام الحكم في برقة في يديها ونفذت خطة والدها الأصــلية في الزواج من ولي عهد مصر وهو بطلميوس يوارجيتس وهكذا عــادت الوحدة بين مصر وبرقة .

هذه هي معالم السياسة الخارجية لبطلميــوس الثــاني وزوجتــه أرسنوي ولكن هناك اتجاهين جديرين بالذكر :

الأول أن بطلميوس فيلادلفوس اتخذ الخطوة الأولــى فــي الاتصــال بدولة ناشئة جديدة في غرب البحر المتوسط وهي دولة رومــا . فيبــدو انــه حدث اتصال بين مصر وروما عام ٢٧٢/٢٧٣ ق.م أثناء حروب روما مــع بيروس وبعد ذلك في عام ٢٦٤ ق.م أثناء حرب روما ضد قرطاجة ، بعثــت قرطاجة تطلب مساعدة مالية من الملك المصري ، ولكن فيلادلفوس لم يشأ أن يتورط في هذه الحرب والتزم الحياد فرفض مســاعدة قرطاجة [٢١] .

الاتجاه الثاني : هي اهتمام بطلميوس الثاني بالمنطقة الأثيوبية في جنوب مصر وهو ما لم يحدث في عصر والده فقد ذكر انه بعث بحملة إلى أثيوبيا وكان من أهدافها حماية الحدود الجنوبية لمصر ، وتنشيط التجارة مع أفريقيا ولتحقيق هوايات فيلادلفوس في صيد واقتناء الحيوانات والنباتات الغريبة .

السياسة الداخلية :

شهد عصر الملك بطلميوس الثاني فيلادلفوس الكثير من البذخ والنعيم ، فلم يخرج هذا الملك علي رأس جيشه في أي من الحروب وانما كان يرسل الجيوش تحت قيادة أعوانه ، واقام هو في الإسكندرية في القصر الملكي الملئ بالبذخ الذي كان يموج وتموج به معه الإسكندرية (٢٢) .

عمل هذا الملك علي تمجيد مدينة الإسكندرية حتى أن كثير من المباني الكبرى التي عرفت بها المدينة ترجع إلى عصره ، واهتم بجلب كبار الشعراء والعلماء إلى دولته وجعلهم أعضاء في الموسيون والمكتبة التي أنشأها والده ، وخاصة أن الملك فيلادلفوس متمتعا بثقافة عالية . وفي عصره نمت مكتبة الإسكندرية نمواً كبيراً حتى أصبحت اكبر مكتبة في العالم القديم . وتذكر المصادر القديمة كان هذا الملك ولوعاً بالجغرافيا والتاريخ الطبيعي ، وحرص علي صيد واقتناء الحيوانات الغريبة من أفريقيا وآسيا .

في مجال التجارة خالف سياسة والده في التجارة الحرة وطبق نظام الاحتكار الشديد (٢٣) . أما في جانب السياسة الدينية فهو المؤسس الفعلي لعبادة الأسرة المالكة فبمجرد وفاة والده أعلنت قداسته هو وزوجته برنيكي علي أنه الإله المنفذ سوتير والحق عبادته بعبادة الاسكندر الأكبر، ولم يقف عند هذا الحد بل جعل العبادة الملكية تشمله هو وزوجته أرسنوي في حياتهما تحت لقب مقدس جديد هو فيلادلفوس (أي المحب لأخته أو المحبة

لأخيها) ومنذ ذلك التاريخ اصبح جميع الملوك البطالمة وزوجاتهم يعبدون تحت ألقاب تقديسية مختلفة ويشملهم جميعا لقب " آلهة شركاء في المعابد " واصبح كاهن الاسكندر هو كاهن الملوك البطالمة المؤهلين أيضا [٢٤] .

اشرك فيلادلفوس معه في الحكم ابنه بطلميوس بن أرسنوي عـــام ٢٤٧ ق.م ولكنه لم يلبث أن توفي عام ٢٤٦ ق.م بعد أن ظل علي العرش بنحو أربعين عاما فخلفه ابنه وشريكه بطلميوس الذي اصبح بطلميـــوس الثالث يوارجتيس .

بطلميوس الثالث يوارجتيس (الخير) ٢٤٦-٢٢١ ق.م

الحرب السورية الثالثة :

كان الموقف في سوريا تطور في خلال الأيام الأخيرة من حيـــاة فيلادلفوس ، حيث أن زواج ابنته برنيكي قد فشل من الملـــك الســـليوقي انتيوخس الثاني ، وذلك أن زوجة الملك السوري المسماه " لاوديقة " التي كان قد هجرها بسبب زواجه من ابنة فيلادلفوس قد كسبت أنيتوخس مرة أخرى ولكن ما لبث أن مات مقتولا في ظروف غامضة في إفسوس حيث كان إقامة الزوجة الأولى ، وبعد موت أنتيوخس الثـــاني نجـــد مواجهـــة الملكتين وجها لوجه ، كل منهما تسعى لتثبيت ابنها علي العـــرش خلفـــا للوالد المشترك وفي هذا الصراع ترجح كفة لاوديقة التي تمكنت من قتل برينكي وابنها .

هذا هو الموقف الذي واجهه ثالث ملـــوك البطالمـــة بمجـــرد توليـــه العرش، وكان عليه التزام أدبي حيال أخته برنيكي فعليه أن يحميها هي وابنها ماداما علي قيد الحياة ويحاول أن يمكن الابن من تولي العرش السوري .

وفي حالة وفاتهما بفعل لاوديقة كان عليه أن ينتقم لهمـــا وكـــان بطلميوس الثالث جدير بهذا الموقف ، وكان لديه الهمة والروح العسكرية مما يذكرنا بجده لا بوالده . فخرج بنفسه علي رأس الجيش المصري عام

٢٤٦ ق.م واحتل سوريا الشمالية وكيليكيا ثم عبر الفرات ووصـــل إلـــى سليوقية علي نهر الدجلة دون أن يلقى مقاومة ، ولكن اضطر إلى العودة إلى مصر فجأة لمواجهة أزمة داخلية بسب حدوث مجاعة [٢٥] ، انتهـز سليوقس الابن الأكبر الذي تولى عرش سوريا فرصـة انشـغال الملـك المصري بالأزمة الداخلية في بلاده ، وجمع جيشا وتمكن عام ٢٤١ ق.م من طرد الجيش المصري من سوريا الشمالية وكليليكا والشرق ، ولكـن ظل في ايدي المصريين سوريا الجنوبية بما فيها فينقيا وفلسطين .

وفي آسيا الصغرى ظل السلطان المصري في معظـم السـاحل الجنوبي وذلك لان سليوقس لم يتمكن من الاستمرار في الحـرب بسـبب الصراع بينه وبين أخيه الأصغر أنتيوخس هيراكس والذي أدى إلى قيـام حرب اهلية بين الأخوين عرفت باسم " حرب الأخوين " .

لم يحارب بطلميوس الثالث مرة أخرى واستغل مجـده الحربـي لتوطيد نفوذه في الداخل والخارج ، وفي نفس الوقت اسـتخدم أسـاليب دبلوماسية داخل بلاد منافسيه ففي سوريا استغل الحـرب الأهليـة فـي تحريض أحد الطرفين- علي الآخر عن طريق إمداده بالمال فظلت الدولة السليوقية منشقة علي نفسها ولم تقدر علي مهاجمة ممتلكات مصـر فـي سوريا الجنوبية ، وعمل علي مد نفوذه حتى وصل إلى إقلـيم طراقيـا . وفي بلاد اليونان كان يساند المدن اليونانية ثوراتها وحروبها ضد السيطرة المقدونية . فبقليل من الحروب صان بطلميوس الثالـث الإمبراطوريـة المصرية علي نحو افضل مما فعله والده الذي شغلت الحروب معظم فترة حكمه وظلت لمصر ممتلكاتها في برقـة وسـوريا الجنوبيـة وآسـيا الصغرى [٢٦] .

السياسة الداخلية :

ورث بطلميوس الثالث عن والده حبه للعلم والثقافة ، واختلف عن والده في السلوك وتمتعه بمثل أخلاقية ، فلقد اقتصر علي زوجة واحدة طوال حياته وهي الملكة برينكي، ولم يأخذ لنفسه محظيات كما فعل والده، وحافظ علي أن تكون الإسكندرية مركز للعلم والثقافة ، وظل قصره مقصد الادباء والعلماء من جميع أنحاء العالم اليوناني .

من أشهر أعمال بطلميوس الثالث محاولته إصلاح التقويم المصري [٢٧] . فالمعروف أن السنة المصرية التي استخدمها المصريون القدماء وظل معمولا بها في العصر البطلمي هي السنة الشمسية التي تتكون من ٣٦٥ يوما، وكانت السنة تنقسم إلى اثني عشر شهرا في كل شهر ثلاثون يوما . أي أن مجموع الأشهر ٣٦٠ يوما ، وكان يضاف إليه خمسة أيام نسئ في نهاية كل عام . وعلي هذا النحو كانت السنة المصرية تنقص عن السنة الحقيقية ربع يوم أي يوما كاملا كل أربع سنوات .

ولقد عرف هذا الأمر الكهنة المصريين لأنه يؤدي علي مدى مئات السنين إلى أن تدور الأشهر من فصل إلى آخر من فصول السنة فلا تقع دائما في الوقت نفسه ، لذلك كانت هناك فكرة في عصر بطلميوس الثالث بإضافة يوم سادس إلى أيام النسئ الخمسة مرة كل أربع سنوات ، ورغم أن بياناً أقره الملك صدر عن الكهنة المصريين بشأن إصلاح التقويم، إلا أن هذا الإصلاح قد أهمل بعد بطلميوس الثالث ولم يعمل به ، وظل التقويم كما هو إلى أن اتخذ يوليوس قيصر التقويم المصري والإصلاح المقترح وطبقه في روما ، ثم أخذه الإمبراطور أغسطس وطبعه في مصر عندما فتحها عام ٣٠ ق.م.

حاول بطلميوس الثالث تحديد تاريخ معين يبدأ منه التاريخ البطلمي ، واقترح أن يكون عام ٣١١ ق.م وهي عام وفاة الإسكندر

الرابع ابن الإسكندر الأكبر لأن بموته انتهى آخر ممثل للسلطة الشـرعية المركزية في الإمبراطورية واعتبر ذلك العام بدء دولـة البطالمـة فـي مصر، ولكن لم يعمل بهذا التاريخ واستمر التأريخ بالطريقـة التقليديـة حسب سنى حكم كل ملك .

من الأعمال الطيبة التي تنسب إلى بطلميوس الثالث هو انتهاجـه سياسة طابعها العطف والتقرب من المصريين وظهر ذلـك مـن خـلال عملين ، الأول هو إعادة تماثيل الآلهة المصرية إلى المعابـد المصـرية حيث كان الفرس قد اخذوا تماثيل الآلهة معهم قبل الاسكندر ، وأعادهـا بطلميوس الثالث عند رجوعه من حملته في سوريا في أول حكمه .

العمل الثاني الاهتمام بأمر المجاعة التي حدثت أثناء حملته والتي نتجت عن انخفاض منسوب النيل مما أضر بالزراعة ، فعاد الملـك فـي الحال وأعلن تنازل الدولة عن الضرائب ونصيبها في المحصول ، كمـا قام باستيراد القمح من الخارج مما رفع الضائقة عـن النـاس وجعلهـم يشكرونه [٢٨] .

تميز حكم بطلميوس الثالث ببناء المعابد المصرية فقد أتم معبـد الآلهة إيزيس الذي كان قد بدأه والده في جزيرة فيلـة وهنـاك البيلـون المشهور الذي أنشأه بطلميوس الثالث في الكرنك ، وكذلك بنـى معبـداً صغيرا في إسنا وكانت أعظم مبانيه معبد إدفو الذي يعتبـر مـن أكمـل المعابد التي ظلت من مصر القديمة . فقد انشئ هذا المعبد للإله حـورس وبدأ في تشييده في عام ٢٣٧ ق.م ولكنه لم يتم بناءه مما جعـل إتمامـه يستغرق مائة وثمانين عاما أي حتى حكم بطلميوس الثاني عشر [٢٩] .

بطلميوس الرابع فيلوباتور ٢٢١ ق.م – ٢٠٥ ق.م

توفي بطلميوس الثالث عام ٢٢١ ق.م وخلفه ابنه بطلميوس الرابع في سنة ٢٢٣ في نفس التاريخ اعتلى عرش سوريا ومقدونيا ملكان جديدان فـي

مقتبل العمر وهما انتيوخس الثالث في سوريا وفيليب الخامس في مقــدونيا ، وتميز عصر هؤلاء الملوك الثلاثة أهمية خاصة في التاريخ لانه شهد ظهــور روما كقوة عالمية تتدخل في شئون الممالك الهلنستية الثلاث [٣٠] .

كانت شخصية الملك البطلمي عكس شخصية والده ، حيث كــان خاملا وضعيف الأخلاق ، وسيطر عليه منذ البداية رجل خبيث من رجال القصر هو سوسيبيوس ومعه ثلاث شخصيات فاسدة ، ولوحظ في عصر بطلميوس الرابع بفضل العناصر الفاسدة تحول مصر من عصر الازدهار والامبراطورية إلى عصر الاضمحلال وفقــدان الإمبراطوريــة وكــان سوسيبيوس رجل داهية من الطراز الأول فبدأ بالقضاء علــي العناصــر الصالحة في القصر الملكي التي كانت تقاوم سياسته ، فقتل كل من عــم الملك وأخويه وأمه الملكة برنيكي ، وكــذلك الملــك كليــومنيس الملــك الإسبرطي اللاجئ وهكذا خلا الجو لوسيبيوس وحاشيته فســيطر علـــي الملك والدولة [٣١] .

الحرب السورية الرابعة :

كان أنتيوخس الثالث في سوريا عكس الملك المصري فقد تســلم الدولة السليوقية مفككة ضعيفة فصمم علي إعادة بنائها وتوحيدها ، وكان يمتاز بطبيعة وشخصية الجندي المغامر ، ولعلمه بحقيقة ما يحــدث فـــي القصر الملكي المصري رأي أن يقتنص الفرصة ويستولى علي ســوريا الجنوبية التي كان انتزعها بطلميوس الأول وظلت دائما في أيدي أســرته رغم توالي الحروب بشأنها .

في العام الأول من حكم بطلميوس الرابــع عــام ٢٢١ ق.م زحــف انتيوخس الثالث بجيشه إلى سوريا الجنوبية ولكن تصدى لــه القائــد العــام للجيوش المصرية وتمكن من الدفاع عن مــدن فينقيــا وحصــونها ، وفشــل انتيوخس في الاستيلاء عليها واضطر الملك السليوقي إلى العودة إلى دولتــه

لمواجهة ثورة ضده في بابل . واستغل سوسيبيوس باظهار مقدرته ودهاءه في مواجهة الخطر السليوقي. فاستغل ظروف عدم الاستقرار في الدولة السليوقية وعمل علي زيادة الاضطرابات الداخلية ضد انتيوخس مستعينا بالرشوة والمؤامرات . واستطاع سوسيبيوس إعادة تنظيم الجيش المصري فأحضر جنود مرتزقة من بلاد اليونان بأعداد كثيرة ولكن أهم خطوة لجأ إليها هو تجنيد عشرين ألف من الفلاحين المصريين الذين تم تدريبهم علي ايدي ضباط وجنود مقدونيين وإغريق علي الأساليب الحربية المقدونية .

كل هذه الأعمال أحيطت بسرية علي مدى عامين كان انتيوخس في نفس الوقت قد انتهي من اخضاع جميع القلاقل في دولته . ففي عام ٢١٨ ق.م زحف بجيشه إلى سوريا الجنوبية وكانت البداية في صالح انتيوخس بسبب حدوث خلاف بين القائد المصري ثيودوتوس وبين القصر في الإسكندرية ، فعينوا قائداً آخر مكانه . فما كان من ثيودوتوس إلا أن انضم إلى جانب انتيوخس ، وعلي جانب آخر لم يتمكن سوسيبيوس من إرسال قوات كافية في الوقت المناسب .

وتقدم انتيوخس واستولى علي فينيقيا بسهولة وتقدم جنوبا واستولى علي غزة دون مقاومة . في هذه الإثناء كان القصر البطلمي قد اكمل استعداداته ونقل جيوشه إلى ارض المعركة تحت قيادة الملك بطلميوس الرابع وبدأت المعركة بالقرب من مدينة رفح في عام ٢١٧ ق.م بهجوم من أنتيوخس ، ولكن المشاة وهم الجنود من الفلاحين المصريين استطاعوا أن يثبتوا جدارتهم بالرغم لم يمر علي تجنيدهم سوى عام ونصف وكان لهم الفضل الأكبر في الانتصار في المعركة . وهكذا احتفظت مصر في هذه المرة بسيادتها علي سوريا الجنوبية بما فيها فينيقيا وفلسطين [٣٢] .

لم يخرج بطلميوس الرابع للحرب مرة أخرى ، ولم يتعد نشـــاطه أو نشاط حاشيته في مجـــال السياســـة الخارجيـــة بعـــض الاتصــــالات الدبلوماسية ببعض المدن اليونانية ، وفي خلال حكم هذا الملـــك حـــدثت اخطر حرب في التاريخ القديم وهي الحرب بين هانيبال القرطاجي وروما ولكن الملك بطلميوس الرابع التزم الحياد التام حيال هذه الحرب كما سبق أن فعل جده بطلميوس الثاني أثناء الحرب البونية الأولى .

السياسة الداخلية :

كان نشاط الملك وحاشيته في مجال السياسة الداخلية محدود بعـــد انتصار رفح عاد الملك إلى الإسكندرية وأعلن زواجه من أخته ارســـنوي الثالثة وفي مناسبة الزواج الملكي أعلن تألية الملك والملكة تحـــت اســـم فيلوباتور (أي المحب أو المحبة لوالدها) وكان اختيار هذا اللقـــب ذات مغزى سياسي بمعنى ارادوا الحاشية اســـتغلال حـــب الشـــعب للملكـــين الراحلين فأطلقوا علي بطلميوس الرابع لقب فيلوباتور تقربا من الشـــعب وكسبا لعاطفته ولكن دون جدوى . واهم حدث داخلي في عهـــد الملـــك بطلميوس الرابع هو قيام ثورة عامة بين المصريين ضد الحكم والاســـرة المقدونية فبعد عودة الجنود المصريين منتصرين من رفح قامـــت ثـــورة عامة بين الأهالي في الدلتا ثم في الصعيد في مدينة طيبة حتى اســـتطاع الأهالي أن يعلنوا استقلالهم حتى عام ١٨٥ ق.م في حكم الملك بطلميوس الخامس ويبدو أن طيبة قد تلقت عونا وتأييدا من الدولـــة الاثيوبيـــة فـــي الجنوب [٣٣] .

بطلميوس الخامس ابيفانس ٢٠٥ ق.م – ١٨٠ ق.م

عصر الضعف للدولة البطلمية :

بعد وفاة الملك بطلميوس الرابع في عام ٢٠٥ ق .م خلفـــه ابنـــه بطلميوس الخامس وكان صبي في سن الخامسة وكان لابد له من وصي ،

وكان الوصي عليه أمه الملكة أرسنوي الثالثة [٣٤] ، ولكن سوسيبيوس واجاتوكليس لم يعلنا خبر وفاة الملك بطلميوس الرابع وانتظرا إلى تدبير مؤامرة أدت إلى قتل الملكة داخل القصر ثم زيفا وصية للملك يعينهما وصيين علي الملك الطفل ، وذات يوم جمع الجنود ورجال الحاشية والمواطنين أمام القصر الملكي وأعلنا وفاة الملك والملكة معا ثم قرئا الوصية المزيفة معلنة تعيينهما وصيين علي الملك الطفل بطلميوس الخامس الذي سيطلق عليه عند بلوغه اسم ابيفانس (أي الظاهر) [٣٥] ، ولم تدخل تلك التمثيلية علي الحاضرين . وحاول الأوصياء علي الملك كسب تأييد الجنود الذين تعتمد عليهم السلطة ، فوزعوا راتب شهرين علي الجنود الذين اقسموا يمين الولاء .

وفي نفس الوقت عينوا أصدقاءهم في المناصب الرئيسية في الدولة ولكن الشعور العام قد بلغ مداه في غضبهم وكراهية هذه الفئة الفاسدة المتلاعبة بالقصر والدولة منم اجل مصالحهم الشخصية والتفوا حول زعيم وهو قائد حامية بلوزيوم ويسمى أتليبوليموس الذي أعلن الثورة في بلوزيوم وانضمت إليه حامية الإسكندرية وسط ثورة الشعب وتأييده له . وفي هذه الثورة ألقى القبض علي أجاثوكليس وأخته وأمه وقتلوا جميعا . أما سوسيبيوس فكان قد مات من قبل . وبعد ذلك أعلن اتليبوليموس وصيا علي الملك الطفل ، ولكنه لم يصلح لتولي مقاليد الحكم وسرعان ما عزل من مركزه بسبب اشتداد الخطر الخارجي وخلفه ارستومنيس .

استغلت الدول الأجنبية الموقف في مصر وهاجمت ممتلكات مصر الخارجية ، واتفق كل من انتيوخس الثالث ملك سوريا وفيليب الخامس ملك مقدونيا علي أن يوسع كل منهما دولته علي حساب الإمبراطورية المصرية .

الحرب السورية الخامسة

استولى أنتيوخس الثالث علي سوريا الجنوبية بما فيهـا فينيقيـا واستولى علي غزة ٢٠٢ / ٢٠١ ق.م ، في هذه الأثناء كان ارستومنيس قد عين وصيا علي الملك ، فغير القيادة علي الحدود وعين اسكوباس الذي بذل جهودا عظيمة . واستطاع أن يسترد غزة وأن يطرد الجيش السوري من فلسطين ولكن حضر أنتيوخس لمحاربة اسكوباس وكانـت الموقعـة الفاصلة عند بانيون بشمال فلسطين وفيها انتصر انتيوخس عام ٢٠٠ ق.م وبذلك انتهت سيادة مصر علي سوريا الجنوبية نهائيا .

بعد ذلك استولت سوريا علي الإمبراطوريـة البطلميـة فـي آسـيا الصغرى وقبرص وبذلك لم يتبق لمصر سوى إقليم برقة في ليبيا. وهكذا في اقل من عشر سنوات من وفاة فيلوباتور فقدت مصر إمبراطوريتها (٣٦) .

السياسة الداخلية :

استمرار الثورات المصرية منذ عصر فليوباتور زاد من ضـعف السلطة المركزية واضطرها أن تتخذ مزيدا من المظاهر المصرية كسـبا لود الشعب ، ولم يكن هذا الكسب عن سياسة مقصودة وانما نتيجة للضغط والكراهية التي أعلنها الشعب ضد الحكم الأجنبي وكانـت أول مظـاهر الاصطناع هي إعلان تتويج الملك حسب التقاليد الفرعونية في ممفـيس وليس في الإسكندرية كما كان التقليد سائدا ، وفي عام ١٩٧ ق.م اعلـن تعيين ارستومنيس مستشارا للملك بدلا من وصي .

ولم تفلح تلك المحاولات في كسب رضاء المصريين بل استمرت ثورتهم واضطروا إلى التسليم في عام ١٩٧ ق.م بسبب الفيضان المرتفع الذي اضعف مركزهم لأنه ساعد جنود الملك علي أحكام الحصار علـي الثوار ، ولقد عاملهم الملك ومستشاروه معاملة وحشية ونفذ فيهم الإعدام ، وبسبب سوء المعاملة زادت المقاومة بين المصريين ، ولم يقـض علـي

الثورات المصرية إلا في عام ١٨٥ ق.م في مدينة طيبة في الصعيد التي أعلنت استقلالها ثم في عام ١٨٣ ق.م في الدلتا .

كانت هذه الثورات لها تأثير علي الموجهين للسياسة في القصـــر فألغيت بعض الضرائب وخفضت أخرى ، كما تنازلت الدولة عن بعــض الديون المتأخرة علي الأفراد . كما صدر عفو عن الجنـــود المصـــريين الذين انضموا إلى الثورة .

ظهر المصريين في مناصب عليا في الجـــيش والدولـــة ، وازداد شأن الكهنة المصريين ومنحوا كثيرا من الامتيازات هـــذه العلاقـــة بـــين القصر والمصريين وازدياد مكانة القصر المصري الممثل في طبقة الكهنة ورد ذكرها في حجر رشيد والذي يحتوي علي قرار ديني أصدره مجمع الكهنة المصريين الذي عقد في ممفيس عام ١٩٦ ق.م وكتب هذا القـــرار بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية (٣٧) .

هذا الشأن المصري في ظل الحكم البطلمي كان نتيجة الصـــراع الطويل الذي قام به المصريون أثناء حكم بطلميوس الرابع والخامس ومن أهم مظاهره ذات الطابع الإداري الرسمي ، هو تغيير الوضـــع الإداري لنوموس طيبة في جنوب مصر وكانت من أهم مراكز الثوار المصـــريين فاصبح حاكم هذه المنطقة يشغل منصب إبيستراتجوس وله سلطان مطلق في النوموس بمثابة نائب الملك ، وهذا كان يختلف عن النومات الأخرى التي كان علي رأسها إستراتيجوس .

عندما بلغ بطلميوس الخامس ابيفانس سن السادسة عشـــرة عـــام ١٩٢ ق.م أراد أن يتزوج ولما لم تكن له أخت من أبيه رأي أهل المشورة في القصر الملكي أن يجعلوا زواجه صفقة سياسية يعوضون بـــه عجـــز الدولة في مجال السياسية الخارجية فاختاروا له كليوباترا ابنة انتيـــوخس الثالث الملك السليوقي في سوريا وبذلك يأمنون شره فلا يهاجم مصر بعد

أن أصبحت ابنته تتربع علي عرشها باسم كليوباترا الأولى . ولهذا الزواج أهمية لانه ادخل علي الأسرة المالكة البطلمية دماً جديداً بعد طـــول زواج الأخ والأخت ، ولم تكن كليوباترا من أسرة جديدة فقط بل لم تكن من دم مقدوني محض لان أمها كانت ابنة مثراداتيس ملك بنتوس بشمال آســـيا الصغرى ، كما أن جدتها الكبرى من جهة أبيها الأميرة الفارســـية أبامــا زوجة سليوقس الأول مؤسس الأسرة السليوقية ، وعلي هذا النحو ادخـــل علي الأسرة البطلمية المقدونية عنصر فارسي شرقي حملته معها الملكـــة كليوباترا الأولى ، والتي سيبقى اسمها تتسمى به الملكات حتـــى نهايـــة الأسرة علي يد كليوباترا السابعة .

الفترة الأخيرة من حياة بطلميوس الخامس شـــغلتها محـــاولات القضاء علي الثورة المصرية في الداخل ، كما اســـتمرت فـــي الخـــارج سياسة الضعف والتردد بين الحياد حيال المشاكل الخارجيـــة أو التبعيـــة لروما إلى أن توفى ابيفانس فجأة في عام ١٨٠ ق.م مسموما علي ما يبدو ، تاركا وراءه ثلاثة أبناء صغار سيصبح أكبـــرهم بطلميـــوس الســـادس والأصغر بطلميوس الثامن .

المنازعات الأسرية ١٨٠ ق.م – ٥١ ق.م

من أخطر ما يصيب الدول الملكية ظاهرتان : الأولـــى أن يلـــي العرش طفل قاصر فيتولى الأمر عنه أوصياؤه من رجال الحاشية الملكية وما يصاحب ذلك من مؤامرات القصور المعروفة .

والظاهرة الثانية أن يتنازع عن العرش اكثر من منازع ، وقد حـــدث ذلك في النصف الأخير من حياة الأسرة البطلمية فكثر أوصياء السوء علـــي الملوك الأطفال الذين يؤول إليهم العرش بسبب موت الملك فجأة .

كما كثر تنازع الأبناء علي العرش وما تبعه من مؤامرات ممـــا أدى إلى انقسام ولاء الجنود والشعب وقامت الحروب الأهلية أكثـــر مـــن

مرة بين أنصار أدعياء العرش وبسبب هذه الظروف ازدادت الدولة ضعفا وأصبحت الدولة ذات مطمع من الخارج وكان أخطرها في ذلك الوقت روما التي أصبحت دولة قوية بعد انتصارها علي قرطاجة في الحرب الهانيبالية عام ٢٠٢ ق.م [٣٨] .

بطلميوس السادس فيلوميتور

ظهر ضعف الدولة منذ عصر بطلميوس الخامس الذي توفى فجأة عام ١٨٠ ق.م وترك ولدين وبنت أكبرهم لم يتعد السابعة ، فآل إليه العرش باسم بطلميوس السادس الذي سيلقب فيما بعد فيلوميتور (أي المحب لأمه) وقامت علي وصايته أمه الملكة كليوباترا الأولى ولكنها توفيت وتولي أمر السياسية اثنان من عبيد القصر المحررين هما يولايوس ولينايوس وما أن بلغ اشده حتى تزوج من أخته كليوباترا الثانية وتولى العرش عام ١٧٢ ق.م وهو في سن الخامسة عشر .

وجه يولايوس ولينايوس الملك الصغير كيفما شاءا ، وأخذا يدبران خطة للاستيلاء علي سوريا الجنوبية ولكن أنتيوخس الرابع ملك سوريا بادر بالحرب عام ١٧٠ ق.م مستغلا سوء الحالة الداخلية في مصر واستولى أنتيوخس علي فلسطين وزحف إلى مصر واستولى علي بلوزيوم وممفيس . وفي هذه الأثناء حاول الملك بطلميوس السادس الفرار من الإسكندرية ولكنه وقع أسيراً في يد الملك السوري ، وفي نفس الوقت قامت ثورة في الإسكندرية أطاحت بيولايوس ولينايوس ، وأعلنت أخاه الأصغر الذي سيصبح بطلميوس يوارجيتس الثاني ملكا عليهم وأخذت الإسكندرية تستعد للدفاع ضد انتيوخس ، وفي الوقت نفسه حضر إلى الإسكندرية بعض سفراء المدن اليونانية فقاموا بدور الوساطة لدى انتيوخس فقبل الانسحاب من مصر ، وبعد انسحاب أنتيوخس أصبحت المملكة منقسمة بين الأخوين الملك الشرعي

بطلميوس السادس يحكم في ممفيس وأخوه في الإسكندرية وامكن بالاتفاق أن يصبح الأخوان ملكين بالاشتراك .

شن أنتيوخس حربا جديدة علي الملكين عام ١٦٨ ق.م فاستولى علي قبرص واستولى علي مصر وتمكن من محاصرة الإسكندرية ، ولكن روما سارعت بإرسال مندوب عنها إلى معسكر أنتيوخس بالقرب من الإسكندرية وطالبه بالانسحاب فقبل الانسحاب من مصر وقبرص (٣٩) .

بعد انسحاب أنتيوخس من مصر ظهر في الإسكندرية شخص يسمى ديونيسيوس بيتوسرابيس وكما يبدو من اسمه الثاني إنه كان من أصل مصري وتمكن هذا الشخص من الوصول إلى مركز كبير في القصر وكان ذا شعبية كبيرة بين المصريين فحاول أن يستغل الانقسام بين الأخوين ثم يطيح بهما معا فأثار في الإسكندرية ثورة ضد الملك الأكبر بطلميوس السادس مدعيا مناصرة الملك الأصغر ، ولكن حيلته انكشفت واتفق الملكان ضد حركته وأمكن القضاء علي ثورته في الإسكندرية وفي الصعيد والذي قضي عليها في الصعيد الملك بطلميوس السادس وعاد منتصرا إلى الإسكندرية عام ١٦٤ ق.م ، وكان أخوه قد دبر ضده انقلابا، حتى اضطر فيلوميتور أن يفر إلى روما ، وأبدى السناتو عطفه علي الملك اللاجئ إليه ، وأبدى موافقته علي أن يتقاسم هو وأخوه ممتلكات مصر بحيث تكون مصر وقبرص من نصيب فيلوميتور ، وبرقة من نصيب أخيه ، وذهب فيلوميتور إلى قبرص منتظرا عودته إلى الإسكندرية حتى سنحت له الفرصة في عام ١٦٣ ق.م حين قامت ثورة في الإسكندرية ضد الأخ الأصغر تطالب بعودة فيلوميتور وحضرت بعثة من روما أشرفت علي عودة فيلوميتور من قبرص ، وأخذت العهد علي الأخوين أن ينفذا رأي روما في تقسيم المملكة بينهما وان يذهب الأخ الأصغر إلى برقة (٤٠) .

انفرد بطلميوس السادس بملك مصر مرة ثانيـــة وأصــــدر بهـــذه المناسبة عفوا عن جميع الجرائم التي ارتكبت في عام ١٦٣ ق.م ، وقـــام الملك ببناء المعابد والتقرب إلى الكهنة ، وفي آخر حياته حاول اســـترداد سوريا الجنوبية ، ولذلك أعد جيشا واستولى عليها ولكن ما لبث أن دارت عليه الدائرة وسقط قتيلا في ارض المعركة عام ١٤٥ ق.م في فلسطين .

بطلميوس السابع وبطلميوس الثامن يوارجتيس الثاني

مات الملك بطلميوس السادس فجأة وخلفه علي عـــرش مصــــر ابنـــا صغيرا تحت وصاية أمة الملكة كليوباترا ، هذا الطفل عرف باسم بطلميـــوس السابع لم يبق علي العرش سوى اشهر قليلة واستطاع عمه بطلميوس الموجود في برقة أن يستولى علي العرش ويصبح بطلميـــوس الثـــامن متخـــذ لقـــب يوارجتيس الثاني بعد أن تزوج أخته الكبرى كليوباترا أرملة أخيه فيلوميتـــور وقتل ابنها بطلميوس السابع وأحرج كليوباترا الثانية بأنـــه أغتصـــب إبنتهـــا الصغيرة ثم تزوجها ولقبت بكليوباترا الثالثة عام ١٤١ ق.م / ١٤٠ ق.م .

قوبل هذا السلوك الشاذ بغضب الأهالي و سخطهم في الإسكندرية وسائر مصر ، وحظيت الملكة كليوباترا الثانية بعطف الشعب ونصـــرته ضد يوارجتيس بسبب سياسته في اضطهاد خصومه وخاصة بين المثقفين في الإسكندرية حتى قامت ثورة ضده عام ١٣١ – ١٣٠ ق.م حاولت أن تحرق القصر الملكي ، فاضطر الملك إلى الفرار مع زوجتـــه الصـــغيرة كليوباترا الثالثة إلى قبرص بينما ظلت كليوباترا الثانية ملكة بمفردها في مصر . وعرفت هذه الفترة بحالة الفوضي والحرب الأهلية باسم امكســـيا وهو يعني أن الدولة تقطعت أوصالها . وفي خـــلال عـــامين اســـتطاع يوارجيتس من استعادة ملكه في الإسكندرية ، وذهبت اختـــه كليوبـــاترا الثانية إلى انطاكية في سوريا [٤١] .

عودة يوارجتيس كان بتأييد من روما ، والتـــي كانـــت تراقـــب الموقف في الشرق الأوسط وتتدخل عند الضرورة بمـــا يحـــافظ علـــي مصالحها حيث كانت روما تعتمد اعتماداً تاماً علي استيراد القمح منذ عهد بطلميوس الثاني في القرن الثالث قبل الميلاد ومن خلال القرن الثاني قبل الميلاد ازداد التقارب بين روما ومصر ومن أجل ذلـــك كانـــت رومـــا تحرص دائما علي أن يستتب الأمن في مصر في ظل ملك صديق لهـــا ، وتوفي الملك بطلميوس الثامن في عام ١١٦ ق.م وهو في سن ٦٥ تاركا من كليوباترا الثالثة خمسة أطفال ولدين وثلاث بنات ثم ابن غير شرعي وهو بطلميوس أبيون ووصى الملك بطلميوس الثامن بان يعين ابنه غيـــر الشرعي بطلميوس ابيون حاكما علي برقة وفي مصر لم يوص لاحد من أبنائه بأن يخلفه علي العرش بل ترك زوجته كليوباترا الثالثـــة حريـــة اختيار شريك لها من أحد الأبنين . فتولى الابن الأكبر العرش مع والدته عقب وفاة والده عام ١١٦ ق.م واصبح الملك بطلميوس التاســـع الملقـــب بسوتير الثاني وتزوج من أخته الكبرى كليوباترا الرابعة ولمـــا ضـــاقت الملكة الوالدة بهذه الابنة ابعدتها عن ابنها الملـــك وزوجتـــه مـــن أختـــه الصغرى كليوباترا سيليفي التي حملت اسم كليوبـــاترا الخامســـة ، أمـــا كليوباترا الرابعة تركت مصر وذهبت إلى قبرص ومنها إلى سوريا لتجمع لها جيشا ولكنها لقيت حتفها هناك.

استمرت الملكة كليوباترا الثالثة في الحكم ومعها ابنهـــا ســـوتير الثاني وزوجته كليوباترا الخامسة حتى عام ١٠٧ ق.م حين ضاقت الملكة الوالدة بأبنها الأكبر فأثارت عليه الشعب في الإسكندرية، ودعـــت أبنهـــا الأصغر من قبرص ليتولى العرش معها واصبح بطلميوس العاشر الملقب بإسكندر الأول واضطر سوتير الثاني أن يهرب إلى قبرص وقـــد ظـــل بطلميوس إسكندر شريكا لوالدته في العرش حتى توقيت عـــام ١٠١ ق.م

فانفرد هو بالملك حتى عام ٨٨ ق.م حيث ثار عليه الجيش والشعب في الإسكندرية لحكمه الفاسد فهرب إلى سوريا وحاول العودة ثانيا ففشل ولقى حتفه أثناء محاولة الذهاب إلى قبرص.

استدعي بطلميوس سوتير مرة ثانية بعد طرد أخيه في عام ٨٨ ق.م وظل علي العرش في مصر وقبرص حتى وفاته ٨١ ق.م لم تتميز هذه الفترة بأي أعمال من جانب الملوك وانما شغلت تلك الفترة الأحقاد والمؤامرات ومن أحداث تلك الفترة التي تدل علي ضعف وخزي الأسرة البطلمية أن حاكم برقة بطلميوس أبيون أوصي عام ٩٦ ق.م بأن تؤول مملكته إلى الشعب الروماني بعد وفاته فكانت أول خطوة رسمية في تحول جزء من الدولة البطلمية إلى التبعية الرومانية .

أما في مصر فرغم اهتمام الملك سوتير الثاني بالمعابد ومبانيها فقد ازداد المصريون ضيقا بالأسرة الحاكمة فتجددت الثورات الوطنية وكان مركزها إقليم طيبة حيث استمرت ثلاث سنوات .

المرحلة الأخيرة من تاريخ البطالمة :

بعد عودة سوتير إلى عرش مصر عام ٨٨ ق.م تزوج مرة ثالثة من برنيكي الثالثة ولم ينجب منها أطفال وظلت منفردة علي عرش مصر بعد موته عام ٨١ ق.م ولم يكن هناك وريث شرعي للملك السابق ليكون شريكا معها ، لكن وجد ابنا للملك الاسبق بطلميوس إسكندر وكان موجودا في روما وأرسلته روما إلى مصر ليتزوج الملكة برنيكي ويصبح الملك بطلميوس الحادي عشر إسكندر الثاني ولكن هذا الملك دبر مؤامرة للملكة وقتلها فثار عليه الشعب وقتلوه عام ٨٠ ق.م .

في ظرف سنة خلا العرش مرة أخرى ، ووجد أبنان غير شرعيين للملك سوتير الثاني فعين أحدهما ملك علي قبرص والآخر ملكا علي مصر عام ٨٠ ق.م واصبح بطلميوس الثاني عشر واشتهر بلقب

الزمار وتزوج من أخته كليوباترا السادسة ولكن روما لم ترض عن تعيين بطلميوس الزمار ملكا لأنه تم بغير إرادتها فرفضت الاعتراف به .

وبعد محاولات ملتوية اعترفت روما ببطليموس الزمار ملكا علي مصر وعقدت معه معاهدة علي انه حليف وصديق الشعب الروماني وتنازل بطلميوس الزمار لروما عن قبرص وأعلنت روما ذلك عام ٥٨ ق.م وأقام هذا الملك الغريب ثار الشعب ضد الملك البطلمي فهرب إلى روما وظل حتى عام ٥٥ ق.م حيث قرر ساسة روما إعادته إلى عرشه بمساعدة جيش روماني عين لقيادته ضابط روماني شاب هو ماركوس انطونيوس ، واستطاع هذا الجيش أن يقضي علي أدعياء العرش وثبت بطلميوس الزمار علي عرشه وظل الجيش الروماني بالإسكندرية لحماية الملك . ويقال أن انطونيوس رأي أثناء إقامته في القصر بالإسكندرية كبرى بنات بطلميوس الزمار والتي ستصبح ملكة مصر الشهيرة وإنها اثارت عواطفه رغم أنها لم تتجاوز الرابعة عشرة .

لم يكتف الملك بطلميوس الزمار بهذا الخزي الذي جلبه علي نفسه بل انه أثناء التجائه إلى روما كان قد اقترض أموالاً ضخمة من شخص يسمى رابيريوس ، فلما عاد إلى مصر وأراد أن يسدد ديونه لم يستطع لافلاس الدولة فعوضه بأن عينه وزيرا لماليته ليتصرف كيفما شاء في خزائن مصر فما كان من الشعب إلا أن ثار ضد هذا الوضع وكاد أن يهلك رابيريوس لولا أن الملك دبر له حيلة لهروبه وتوفي الملك بطلميوس الزمار عام ٥١ ق.م .

كليوباترا السابعة ٥١ – ٣٠ ق.م

اعتلت كليوباترا السابعة عرش مصر عام ٥١ ق .م بعد وفاة والدها [٤٢] ، وكانت مصر دولة ضعيفة فقد فقدت جميع ممتلكاتها لروما ولا يستقر لها ملك إلا باعتراف روما ووجود جيش روماني يسنده في

الإسكندرية ونظير ذلك كانت روما تتقاضى افحش الــثمن ، ومــن هــذا المركز الهوان الشديد خرجت كليوباترا علي العالم كأمرأة بدون جيش أو مال تقتحم مجال السياسية العالمية لتواجه بشخصها أقوى دولة في العالم.

لم تنتظر قادة روما حتى يغزو مصر بل هــي غــزت قلــوبهم وحولتها إلى أدوات في يديها واستطاعت أن تمد نفوذها الملكي إلى آفاق ابعد من مصر وتكاد تصبح إمبراطورة العالم القديم بأســره ممــثلا فــي الإمبراطورية الرومانية ذاتها [٤٣] .

كليوباترا وبطليموس الثالث عشر

بعد وفاة الملك بطلميوس الزمار عام ٥١ ق.م أوصــى بــأن يــؤول العرش لكليوباترا (١٧ سنة وقتها) ولأكبر أخويها الذي اصــبح بطلميــوس الثالث عشر ، وكذلك أوصى بأن روما تشرف علي تنفيذ وصــيته ، وفعــلا أصبحت كليوباترا وأخيها شركاء علي العرش تحت إشراف عصــابة رجــال القصر والحاشية . ولكن في عام ٤٨ ق.م ســاءت العلاقــة بــين كليوبــاترا ورجال القصر ، حيث أرادت أن تكون المتصرفة فــي السياســة والحكــم، فأشاعت عصابة الحاشية بأن كليوباترا تسعي إلى قتل أخيها والتفرد بــالعرش مخالفة بذلك وصية والدها ، ولما كان قائد الجيش من بين عصابة القصر فقد استطاعوا أن يثيروا عليها الجيش وشعب الإسكندرية معــا حتــى اضــطرت كليوباترا إلى الهرب من المدينة ، ولجأت إلى الحدود الشرقية للدولــة حيــث جمعت لنفسها جيشا تسترد به عرشها . وفي الوقت نفسه سار الجــيش باســم أخيها الملك إلى بلوزيوم ليسد عليها طريق العودة [٤٤] .

كليوباترا وقيصر

في تلك الفترة من الصراع بين كليوباترا وأخيها ، كانــت تــدور معركة أخرى وهي معركة فارسالوس وفيها انتصر قيصر علي بــومبي ففر بومبي إلى مصر حيث كان له الفضل في تثبيت بطلميــوس الزمــار

علي عرشه وتوجه إلى بيلوزيوم حيث معسكر الملك ولكن أحد الجنـــود الرومان أغتاله أثناء نزوله إلى الشاطئ .

بعد فارسالوس تتبع قيصر بـــومبي إلـــى مصـــر واتجـــه إلـــى الإسكندرية فدخلها ووجدها خالية من الملك والملكة وكان يعلـــم بقصـــة الخلاف فأعلن نفسه حكما في الخلاف منفذا لوصية الملك الراحل وطلب أن يمثلا أمامه فحضر الملك من بلوزيوم ، أما الملكة فكانت جيوش الملك تقف حائلا بينها وبين دخول الإسكندرية ويقال أنها انتحلت حيلة بارعـــة واختبئت في سجادة ملفوفة يحملها رجل ، وذهب بها إلى قيصر ، فلمـــا بسطت السجادة خرجت منها كيلوباترا ذات حسن ودلال . هـــذه البدايـــة المرحة جعلت العلاقة بين قيصر وكليوباترا تقوم علي أساس العلاقة بين رجل وأمرأة لا بين دكتاتور وملكة مصر ، وبطبيعة الحال اقـــر قيصـــر الملكة علي عرشها علي أن يشاركها أخوها .

حاول ساسة القصر عدم تنفيذ إرادة قيصر بالقوة بعد أن ادركـــوا اتجاه عواطف قيصر منذ اللحظة الأولى وأرادوا استغلال ضعف مركـــز قيصر وقلة عدد جنوده ، وأعلنوا الحرب باســـم الدولـــة ضـــد الـــدخيل الأجنبي. وسميت تلك الحرب بحرب الإسكندرية في تلك الحرب استطاع الجيش المصري أن يوقع قيصر في مواقف محرجة كاد أن يفقد حياتـــه ، ولقد حرص قيصر علي أن يسيطر علي منطقة القصر الملكي والمينـــاء حتى يمكنه الاتصال بقواته خارج مصر [٤٥] . وحاول قيصر أن يسيطر علي الجسر بين جزيرة فاروس والمدينة ولكنه فشل وفقد ٤٠٠ من جنوده وكاد هو أن يهلك لولا أن ألقى بنفسه في الماء وسبح إلى سفينته . بعـــد هذه المواقف المحرجة لقيصر وصلت إليه قوات من جيوشه عن طريـــق سوريا وحاصرت الإسكندرية واستطاع أن يقضي علي خصومه واستولى علي الإسكندرية .

بعد الهزيمة حاول الملك البطلمي الصغير وقد انتقل إلى جانب جيشه أن يهرب إلى الشرق ولكنه غرق أثناء عبوره للنيل .

دخل قيصر الإسكندرية منتصرا في عام ٤٧ ق.م ، وبعدها أعلن كليوباترا ملكة لمصر وزوجها من أخيها الأصغر بطلميوس الرابع عشر ، وبعد ذلك قضي قيصر الشتاء مع كليوباترا في رحلة نيلية إلى الصعيد وفي هذه المناسبة تنازل قيصر لها عن جزيرة قبرص ثم غادر الإسكندرية ومصر إلى سوريا بعد أن ترك حامية رومانية لضمان الاستقرار . وفي عام ٤٧ ق.م وضعت كليوباترا طفلها من قيصر وأسمته قيصر ، ولكن أهل الإسكندرية أسموه قيصرون (وهو تصغير قيصر) علي سبيل السخرية .

بعد عودة قيصر إلى روما في عام ٤٦ ق.م ذهبت إليه كليوباترا ورغم كراهية الرومان لها باعتبارها عشيقة قيصر الذي كان له زوجة شرعية إلا أن كثيرين من علية القوم في روما ترددوا عليها في مجلسها وفي الوقت نفسه أحاطها قيصر بكل رعاية وتكريم وأعلن اعترافه ببنوة ابنه من كليوباترا ، وأقام لها تمثالا من الذهب في معبده الجديد للآلهة فينوس . وفي هذه الأثناء انتشرت إشاعة حول أهداف قيصر السياسية وانه ينوي تحويل إمبراطوريته إلى مملكة يكون هو ملكها وكليوباترا ملكتها ولكن رجال السناتو بروما من الحزب الجمهوري قاموا بمؤامرة اغتيال قيصر عام ٤٤ ق.م داخل مجلس السناتو وعادت كليوباترا إلى مصر وبعد عودتها توفي أخوها بطلميوس الرابع عشر في ظروف غامضة، وأعلنت أبنها قيصر شريكا لها في العرش والذي أطلق عليه اسم بطلميوس الخامس عشر قيصر [٤٦] .

كليوباترا وماركوس انطونيوس

بعد مصرع قيصر عام ٤٤ ق.م قضـــي علـــي آمـــال وأحـــلام كليوباترا بأن تكون إمبراطورة روما ، وسرعان ما ألقت إليهـــا الأقـــدار بمغامرة ثانية بعثت آمالها من جديد . فبعد انتهاء الحرب الأهليـــة التـــي أعقبت مصرع قيصر بانتصار أوكتافيان وماركوس انطونيوس عـــام ٤٢ ق.م ، اقتسم القائدان الإمبراطورية فيما بينهما فآلت الولايـــات الغربيـــة لاوكتافيان والولايات الشرقية لماركوس انطونيوس .

كانت مصر الدولة الوحيدة التي لم تزل مستقلة عن الإمبراطورية الرومانية في الشرق . فكان من انطونيوس أن يحدد علاقته معها فأرسل إلى كليوباترا يدعوها لمقابلته في افيســـوس . فـــذهبت كليوبـــاترا إلـــى انطونيوس وهي تحمل معها سلاحين هما أنوثتها وعقلها اللماح ، ومنـــذ اللقاء الأول كان لأسلحة كليوباترا النصر التام واصبح انطونيوس اســـير غرامها ، وفي عام ٤١ - ٤٠ ق.م حضر انطونيـــوس إلـــى مصـــر وتوطدت العلاقة بينهما وانجبت كليوباترا من انطونيوس ثـــلاث أطفـــال ولدين وبنتا . وفي عام ٣٥ ق.م اعلن انطونيوس طلاقـــه مـــن زوجتـــه اكتافيا أخت أكتافيان . كما أعلن شرعية علاقته بكليوباترا ، وحضر إلى مصر واعلن تقسيم الولايات الشرقية بين أبنائها جميعا بينمـــا أصـــبحت كليوباترا نفسها ملكة علي الولايات الشرقية كلها .

بعد طلاق انطونيوس واكتافيا شن أخوها الحاكم في روما وفـــي غرب الإمبراطورية حملة ضد انطونيوس واتخذ من أعمال انطونيـــوس دليلا علي انه قد حول الولايات الشرقية إلى مملكة هو ملكها وكليوبـــاترا ملكتها وأولادهما ورثتها وهو ما يعتبر بمثابة خيانة لشعب روما ثم أعلن الحرب ضد انطونيوس باسم إنقاذ الإمبراطورية ودارت المعركة الفاصلة بينهما عند أكتيوم البحرية (غرب اليونان) في عـــام ٣١ ق.م وكانـــت

كليوباترا موجودة علي رأس أسطولها إلى جانب انطونيوس وبعد تفــوق اكتافيان في المعركة انسحبت كليوباترا إلـــى الإســـكندرية وفـــي أثرهـــا أنطونيوس ، استولى اكتافيان علي مصر واتجه إلى الإسكندرية ودخلهـــا في عام ٣٠ ق.م

فلم يجد انطونيوس حيلة سوى الانتحار ، وبعده بقليـــل وجـــدت كليوباترا منتحرة في قصرها . وبعد ذلك قام اكتافيان بقتل ابن كليوبـــاترا وقيصر (بطلميوس قيصر) وأعلن ضم مصر إلى إمبراطوريـــة رومـــا وجعلها ولاية رومانية .

وبذلك تحولت مصر من دولة مستقلة تحت حكم البطالمـــة إلـــى ولاية رومانية تتبع إمبراطور روما .

المصريين في عهد البطالمة

الثورات القومية

أسباب الثورات

ليس من العسير أن نتصور شقاء المصريين إذ انهم لـــم يكونـــوا خاضعين لملوك غرباء فحسب بل كذلك لجنس غريب بأسرة تغلغل فـــي جميع نواحي البلاد فلم تنجح طبقة في أن تنحو مـــن اســـتيراد البطالمـــة واستغلال الإغريق حيث اثقل البطالمة كاهـــل المصـــريين بالضـــرائب الفادحة ووضعوا أيديهم علي كل موارد البلاد بشكل لم يعرفه المصريين من قبل حتى في عهد الآشوريين أو الفرس فقـــد اســـتولوا علـــي أرفـــع المناصب وأخصب الضياع وأوسعها وكذلك امتدت أيديهم حتـــى داخـــل المنازل وكذلك استولوا علي الأرســـتقراطية الأهليـــة الدنيويـــة وأزلـــوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين المصريين .

فلا عجب أن نبضت قلوب المصريين بكراهيـــة الأجانـــب وان انفجر مراحل غضبهم في وجه مغتصب بلادهم فقد تضافر فـــي إشـــعال لهيب الثورات المصرية ثلاثة عوامل لهم أقوى الأثر في حياة الناس فـــي كل زمان ومكان هما العامل القومي ، الاقتصادي والديني .

الثورات

بوادر التذمر :

كانت بوادر التذمر مع النظام الاقتصادي والمالي الجديد منذ عهد فيلادلفوس حيث تحدثنا في وثائق زينون عن وقـــوع اضـــطرابات بـــين المزارعين كانت تنتهي بإضرابهم عن العمـــل وفـــرارهم إلـــى المعابـــد للاحتماء بالآلهة ولم تقل شأنا عن الاضطرابات التي كانـــت تنشـــأ بـــين

المشتغلين بالصناعة والتجارة في كنف النظام الجديد ولم يقتصر ذلك عند الاضطراب فحسب بل تهريب السلع وبيعها دون تصـــريح وكـــذلك أدت أيضا مختلف أنواع الخدمة الإجبارية إلى اضـــطرابات مماثلـــة ولكـــن الحكومة قد قابلتها بالشدة والعقوبات الصارمة وهذا النظام لم يكن صارما فحسب بل كان تطبيقه في أيد أجانب اعتبروا أنفسهم ارفع قدراً واعظـــم شأنا من المصريين ويتكلمون لغة غير لغتهم ويدينون بأديان تختلف عـــن ديانتهم بل انهم ظفروا بالثورات علي حين حلت الفاقة بالمصريين .

وفي وسط كل هذه الظروف كان من اليسير أن يندلع لهيب الثورة لأي سبب وقد توفر جيش الثورة من ملايين الزراع والصـــناع والعمـــال الذين لم ينقسم القادة حيث أن النبلاء المصريين الذين عصـــف البطالمـــة بمكانتهم وثوراتهم وامتيازاتهم كذلك رجال الدين الذين أطـــاح البطالمـــة بمراكزهم وكانوا دائما علي استعداد لاستعادة نفوذهم من البطالمة وبمرور الزمن زادت الهوة بين الفريقين وساعد علي ذلك صرامة العقاب الـــذي كان يناله الناقمين علي سوء الحال حتى انه كانت أشد ثورات للمصـــرين لم تقع إلا بعد موقعة رفح وذلك يرجع إلى أن المصريين كـــان ينقصـــهم الحافز الذي يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ويزكي روح الوطنية الكـــامن فـــي صدورهم ليخلصوا البلاد من الأجانب الدخلاء .

الثورة الأولى

لقد نشبت أول ثورة شعبية في عهد بطلميوس الثالث في خـــلال حربه السورية لكننا لا نعرف عنها إلا النزر اليسير من مؤرخين متأخري العهد هما يوستينوس ، وهيرونيموس " سان جروما " فان أولهما يحـــدثنا بأنه لو لم تستدع الملك ثورة داخلية لاحتـــل كـــل مملكـــة الســـلوقيين ، والمؤرخ الثاني اكثر إيجازا من ذلك .

ولكن هل هذه الثورة حركة إغريقية دبرها بعض رجال القصر أو قواد الجيش أم أنها كانت حركة مصرية أفضت إليها العوامل التي دفعت المصريين من قبل إلى الإضراب عن العمل ؟

ولكن ليس هناك ما يبرر الغرض الأول بينما يبرر الغرض الثاني أن الاستعدادات الكبيرة لفتوحات بطلميوس الثالث الواسعة انطوت علـــي ازدياد ضغط الحكومة وعن مطالبة مزارعي الملك بإيجارات باهظة فـــلا يبعد إذن أن هذه الحركة كانت ثورة قومية .

أدت إليها هذه العوامل وساعد عليها غياب قوات الحكومـــة فـــي الخارج وكذلك فيما يبدو تلك المجاعة التي يذكر قرار كانوب أنها ترتبت علي نقص الفيضان عن منسوبه ، فسارع بطلميوس الثالث إلـــى إنقـــاذ الموقف باستيراد القمح من سوريا وفينيقيا وقبرص وغيرها من الأقـــاليم وربما بسبب تلك الثورة أيضا توزيع اقطاعات كثيرة بين أسرى الحرب الآسيويين مما أفضي إلى إزعاج المزارعين المصريين .

وإذا عذونا إلى عهد بطلميوس الثالث وثيقة تبتونيس الشهيرة التي يدل خطها علي أنها ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثالـــث ، فإننـــا نستطيع أن نتبين شئ عن طبيعة هذه الثورة أن هذه الوثيقة تشـــير إلـــى الخطر المزدوج الذي كان يتهدد سلطان البطالمة (وهو مساوئ رجـــال الإدارة ، وعدم اقبال المصريين علي العمل) ، ولكن مع أننـــا لا يمكننـــا الجزم إذا كانت هذه الوثيقة ترجع إلى بداية عهد بطلميوس الثالث أم إلى بداية عهد خليفته ، ومع ذلك فإنها علي كل حال تبين أسباب ذلك القلـــق الذي يصف به النصف الثاني من القرن الثالث .

وكذلك تعبر نبؤة صانع الفخار عن كـــره العميـــق للاســـكندرية والأجانب وتتنبأ بقيام زعيم وطني يحرر البلاد مـــن مغتصـــبيها ويعيـــد العاصمة إلى منف ويتولى حكم مواطنيه وتزعم هذه الوثقية أنهـــا نبـــؤة

ترجع إلى عهد الملك تاخوس Tachos ٣٦٩ – ٣٦٠ ق.م وتروي تاريخ مصر منذ ذلك الوقت في شكل نبؤة لكنها في الواقع ترجع إلى عهد البطالمة وتعبر عما يجيش في صدور المصريين من الآلام والآمال آنذاك وإذا كان لا يوجد ما يقطع بظهور النبؤة في عهد بطلميوس الثالث فان الظواهر المختلفة التي تدل علي بلبلة أفكار المصريين واضطراب أحوالهم عندئذ تحملنا علي تصديق ما قاله يوستينوس وهيرونيموس عن وقوع اضطراب في مصر إبان حكم بطلميوس علي الاعتقاد بأن هذا الاضطراب كان ثورة مصرية بلغت من الخطورة حد اضطر الملك معه إلى أن يترك فتوحاته الآسيوية ويعود مسرعا إلى مصر .

ولقد عرفنا أن سياسة البطالمة الأوائل الداخلية كانت سياسة سيطرة علي أهالي البلاد يشارك الملك فيها أعوانه المدنيون والعسكريون الذين كان أغلبهم من الإغريق .

الثورات في عهد فليوباتور

إننا لا نعرف عن عهد فيلوباتور اكثر مما تحدثنا به المصادر الأدبية عن سياسته الخارجية وحياته الخاصة وحياة قصره ، فان وثائق هذا العهد المؤرخة بدقة قليلة و في أغلب الأحوال غير ذات بال ومع ذلك يبدو انه كان لحكم هذا الملك ونشاط كبير وزرائه سوسيبيوس من الأثر في تطور تاريخ مصر اكثر مما توحي به المصادر الأدبية ومن المحتمل انه خلال الاستعدادات لمحاربة انتيوخس الثالث وكذلك خلال الثورة القومية التي أعقبت ذلك أدخل فيلوباتور وسوسيبيوس بعض التعديلات علي النظم المالية والإدارية لمراجعة تكاليف هذه الأعباء فضلا عن تكاليف العطايا السخية التي اجزلها فيلوباتور لجيشه وللمعابد . بعد رفح إذ يلوح انه قد رفع بعض الضرائب وإيجارات الأراضي الملكية بوجه خاص وانه قد فرضت ضرائب جديدة حتى أن بعض المؤرخين يرون أن

بطلميوس الرابع هو الذي انشأ ضريبة الرأس ومن المحتمـل أيضـا أن ازدياد نفقات الحكومة في الوقت نفسه ونقص مواردها ، نتيجة لتـدهور مرافق البلاد الاقتصادية منذ أواخر القرن الثالث اديا إلى ازدياد التشدد في جمع الايجارات والضرائب وكافة استحقاقاتها ، والي الاكثار من الاعباء والالتزامات غير العادية .

وقد عرفنا انه من بين الوسائل التي لجأ إليها بطلميـوس الرابـع لمحاربة انتيوخس الثالث إدماج الجنود المصريين لأول مرة في صـلب الجيش العامل بعد أن كانوا لا يؤلفون حتى ذلك الوقت إلا الفرق الإضافية في الجيوش البطلمية وبالفعل نجحت سياسية فيلوباتور في كسب الحـرب لكنها تمخضت عن نتائج خطيرة بعد ذلك مباشرة ، ذلك أن الجيش مـا كاد يعود مظفراً من موقعه رفح حتى اشتغل لهيب الثورة بين المصريين.

ويحدثنا بوليبيوس بأن المصريين قد ازدادوا إعجابا بانتصـارهم في موقعة رفح ، اصبحوا لا يحتملون الخضوع لسادتهم فاخذوا يبحثـون عن زعيم يقود ثورتهم ولم يطل بهم البحث عن ضالتهم المنشودة .

وإذا كانت النبؤة الديموطيقية التي سبقت الإشارة إليها نبؤة صانع الفخار ترجع إلى هذا الوقت فلا يبعد أن زعيم هذه الثـورة كـان مـن هيراكليوبوليس " أهناسيا المدينة " لأن هذه النبؤة تذكر أن أحد رجال هذه المدينة سيحكم البلاد بعد الأجانب (الفرس) والأيونين " الإغريق " ويظن أن الثورة بدأت في مصر الوسطى والدلتا ولكنه في عام ٢٠٧-٢٠٦ ق.م كان أوارها مستعمراً في مصر العليا أيضا . إذ أن نقـوش معبـد ادفـو تحدثنا بأن أعمال البناء في هذا المعبد العظيم توقفت في ذلك العام عندما اندلع لهيب الثورة هناك وكان الثوار يختبئون داخل المعبد وتصـف لنـا وثيقة بردية من نهاية القرن الثالث جانبا يسيرا مما قام به بعض الثـوار وسط آتون هذه الحرب ، إذ تروي هذه الوثيقة التي يبدو أنها جزء مـن

تقرير لأحد رجال الشرطة أنه في بداية الشهر هاجم المصريون الحـــرس واختبأوا في مراكزهم وبعد ذلك ظهر الحراس علي مقربـــة مـــن هـــذا المركز فتقدم المصريون نحو المنازل المجاورة واحضروا عدة الهجـــوم عند منزل نحتنيبيس المطل علي ساحة المعبد وانقضـــوا عليـــه ولكـــنهم انسحبوا عندما استعد الحراس ليهدموا عليهم جانبا من السور ، ويلاحـــظ كاتب التقرير أن المصريين لا يراقبون القرية كما أمروا في البداية وذلك لأن كالياس لا يقدم تقريره ويستدل من هذه الوثيقة علي أن المصريين لم يشتركوا جميعا في الثورة ، وان الثوار اعتدوا علي بيت أحد المصـــريين لعله كان أحد مناوئي الثورة وان ثورة أولئك الأشخاص لم تنشأ في داخل القرية ولا يبعد أن أولئك الثوار الذين تتحدث عنهم هذه الوثيقـــة كـــانوا مزارعين واضطروا إلى هجرة أراضيهم لارتفاع إيجارها أو لشدة وطأة أعمال السخرة في قريتهم أو لعلهم كانوا أيضا صناعا أرهقتهم الالتزامات الجائرة أو كثرة العمل المضنية فهجروا جميعا قريتهم إلى الصـــحراء أو المستنقعات إلى أن جاء الوقت المناسب للهجوم علي قريتهم ومن الجـــائز أيضا أن يكون الثوار قد جاءوا من قرية أخرى أو أي معقل للثورة لرفع لوائها في هذه القرية ومهاجمة الموالين للأجانب .

لم يعتد الثوار علي بعض بيوت المصريين فحسب بـــل اعتـــدوا أيضا علي بعض المعابد المصرية فان قرار حجر رشيد الـــذي أصـــدره الكهنة المصريون المجتمعون في منف في العام التاسع من حكم بطلميوس الخامس يهنئ الملك الشاب علي معاقبته الثوار الـــذين هـــاجموا المعابـــد وخربوها وهذا يدل علي أن بعض رجال الدين لم يساهموا فـــي الثـــورة واظهروا ولاءهم للنظام القائم فأعتدي الثوار عليهم وعلـــي معابـــدهم ، ويجب أن نفرق بين موقف رجال الدين في الوجه البحري علي الأقل فقد

كانوا موالين للبطالمة وموقف كهنة آمون في مصر العليا الذين ناصبوهم عداءً شديداً .

وقد كانت منطقة طيبة أحد معاقل الثورة الرئيسية فانها بزعامـــة أرماخيس Armachis ، ثم انخماخيس Anchmachis وبمعاونة النوبيين فيما يظن ، اشتبكت في صراع عنيف مع فيلوباتور ثم بعد ذلك مع ابنـــه ابيفانس ويبدو من الوثائق أن منطقة طيبة انفصلت عن حكم البطالمة فترة دامت ٢٠ عاما من ٢٠٦ إلى ١٨٦ ق.م وكان يحكمها آنــذاك الملكـــان النوبيان اللذان سبق ذكرهما ولا يوجد وثائق تدل علي أن حكومة البطالمة قد جبت الضرائب من منطقة طيبة بعد العام السادس عشـــر مـــن حكـــم فيلوباتور ٢٠٦ ق.م وهو العام الذي يحدثنا أحد نقوش معبد إدفـــو بـــأن أعمال البناء قد أوقفت في خلال هذا العام في هذا المعبد عندما اندلع لهيب الثورة واحتمت إحدى فرق الثوار داخل المعبد واحتـــدم الصـــراع فـــي الجنوب وسنرى أن لهيب الثورة بقى مشتعلا إلى أن اخضع انخمـــاخيس في عام ١٨٦ ق.م.

أسباب الثورة :

يرى بوليبيوس أن أسباب تلك الثورة الجامحة أسباب قومية ترتبت علي التغير الذي طرأ علي توازن القوة وتعادلها بين الملك والمصـــريين عقب انتصارهم في موقعة رفح وترى بريو أن هذه الثورة لم تكن قومية وإلا لو كان الأمر كذلك لساهم فيها كل رجال الدين وهي تستخلص مـــن اعتداء الثوار علي إحدى القرى وبعض المعابد أن أسباب هـــذه الثـــورة كانت (اقتصادية اجتماعية) وانه لم يشترك فيها إلا الذين تخلصوا مـــن رقبة اقتصاد الدولة الخانق وهاموا علي وجوههم فـــي الغيـــافي والقفـــار وعاشوا عيشة قطاعي الطرق وهاجموا المراكـــز الاجتماعيـــة المنظمـــة كالقرى والمعابد ، ونحن نرى أن كلا من هذين الرأيين ينجح عن جـــادة

الصواب لانه إذا كان الأول قد اغفل العامل الاقتصادي فان الثاني قد بالغ في هذا العامل وأهمل العامل القومي حتى للعامل الاقتصادي أثـر بعيـد المدى في حياة الناس لكنه ليس كل شئ ولا يمكننا أن ننتظر من كل أفراد أي شعب مهما سمت مداركهم وقوى الروح الوطني بينهم أن يساهموا في أية ثورة قومية .

شعور المصريين بعد انتصارهم فـي موقعـة رفـح أن تفـوق الإغريق عليهم لم يكن إلا وهما وانهم علي الأقل ند لأولئك السادة الذين أوسعوهم بطشا واستغلال فلا عجب أن انتهز رجال الدين المخلصون كل هذه الظروف واستنفروا وطنية المصريين ومشاعرهم الدينية .

ولا يبعد أن أحد العوامل الهامة التي ألهبت مشـاعر المصـريين وخاصة في مصر العليا ودفعتهم إلى الثورة ضد البطالة كان بقاء التقاليد الفرعونية في وادي النيل جنوبي مصر وهي بارقـة أمـل فـي أحيـاء ماضيهم.

نتائج تلك الثورة :

لقد كانت تلك الثورة ثورة خطيرة اقتضت مجهوداً حربياً خطيراً وتمخضت عن نتائج اقتصادية فادحة لأنها أنقصت اليد العاملة وعطلـت الزراعة والصناعة فـي منـاطق واسـعة ولا يبعـد أيضـا أن تكـون الاضطرابات التي عانت مصر العليا منها قد أثرت في واردات مصر من الذهب عن طريق الجنوب وفي العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة والصومال ويبدو أن حكومة الإسكندرية قد شغلت بالشئون الداخلية ممـا أصاب الشلل السياسة الخارجية مما افقدها مكانتها الممتازة في حياة بحر ايجه التجارية وإزاء سوء الحالة الاقتصادية لجأت الحكومة إلـى اتخـاذ البرونز قاعدة أساسية للنقد – ورفع القيمة الاسمية للعملة .

الثورة في عهد ايبفانس

وإذا كانت حال مصر سيئة في عهد فيلوباتور ، فانها كانت اكثـــر سوءا في عهد ابنه وخليفته ابيفانس . ففي الإسكندرية وقعت اضـــطرابات شديدة وقتل اجاتوكليس وبطانته وتعاقب الأوصياء علي هذا الملك الصغير لكنهم أن اختلفوا في الأسماء فقد اتفقوا في الجري وراء أطمـــاعهم وفـــي مصر العليا والوجه البحري كانت الثورة القومية لا تزال محتدمـــة وكـــان انخماخيس لا يزال يسيطر علي الجنوب – ولسنا ندري إذا كان قد حدث في العام السادس من عهد هذا الملك حصار ابيدوس الذي تـــذكر عبـــارة خطها أحد الجنود علي جدران معبد ممنون ورد فيها (أتـــافيلوكلس بـــن فيلوكلس من ترويزنه جئت لأتعبد لسيرابيس في خلال حصار أبيدون ٢٨ بؤونة ، العام السادس) ولسنا ندري كذلك إذا كان يجب أن تعزو إلى هذا العهد أيضا ملكا نوبيا جديدا يدعي هيرجونافور Hyrgonaphor كان يحكم ابيدوس وهزم الجيش البطلمي وعلي كل حال لقد كان أوار الثورة متأججاً في بداية عهد ابيفانس في مصر العليا وكذلك مصـــر الســـفلى إذ يحـــدثنا بوليبيوس وقرار حجر رشيد عن حصار مدينة ليكوبوليس بمديريـــة أبـــو صير في العام الثامن من حكم هذا الملك (١٩٧ ق.م) لقد بلغ منســـوب الفيضان في صيف ذلك العام (١٩٧) حداً غير مألوفا حتى انه كان يخشى من طغيانه علي معدات الحصار التي اقيمت حول ليكوبوليس وتفاديا لهذه النكبة ، سدت الفرق الملكية القنوات التي كانت تمد جهة ليكوبوليس بالماء وحولت مجراها في اتجاه آخر وعندما رأي زعماء الثورة انه لم يعد هناك أمل في الاحتفاظ بموقعهم اضطروا إلى التســـليم وبعـــد وصـــف القـــرار للحصار يحدثنا بأن الملك قتل كل الكفار الذين وجدهم فيها كما عامل قديما هرمس وحورس بن ايزيس واوزوريس الثوار فيها من قبل ونلاحـــظ أن الكهنة يدعون الثوار كفار ويشبهون انتصار الملـــك علـــي هـــذه المدينـــة

بانتصار حورس علي المدن الثائرة ولذلك فان البعض يرى أن هذه الثورة التي يعتبرها الكثيرون منذ عهد بوليبيوس ثورة مبعثها حقد دفين ضد الإغريق لم تكن إلا ثورة ضد الملك لأسباب اقتصادية واجتماعية بيد انه لو كان الأمر كذلك لأفلحت منح الملك المادية في القضاء علي الثورة ، ولما رأينا الزراع والجنود كان قوميا وعلي أن المادة لم تستهو إلا النفوس المريضة وعلي انه وان استكان بعض الكهنة للبطالمة فان غالبية الأهالي العظمى كانت تعلل الأمل بطرد الطغاة الأجانب واقامة فرعون قومي علي نحو ما يبدو لنا من نبؤة صانع الفخار.

ونستدل من قرار حجر رشيد الذي أصدره الكهنة المجتمعون في منف عام ١٩٦ ق.م اجلالا لابيفانس علي سوء حال مصر عندئذ ، وهذا القرار يستند علي بيانين اصدر الملك أولهما قبل الاستيلاء علي ليكوبوليس والآخر بعد هذا الحادث .

البيان الأول وجهه الملك لسائر السكان عقب وفاة أبيه أملا في وضع حد للاضطرابات التي عمت البلاد ولذلك عفا عن كل الثوار بوجه عام والجنود المصريين بوجه خاص واعطي المعابد والسكان عامة عددا من المنح .

البيان الثاني فيبدو أن الملك اصدره بمناسبة تتويجه في منف علي نهج الطريقة الفرعونية وانه كان يحوي علي وصف الاستيلاء علي ليكوبوليس ، الإشارة إلى أن الملك عاقب الذين ثاروا علي أبيه وعليه وانه ادى المراسم المناسبة لتتويجه وانه جاد بمنح عديدة علي الكهنة ودائمة انقصت دخل الملك نقصا مستديما وان لم يكن خطيراً .

ويكشف قرار حجر رشيد عن صورة قاتمة للحالة التي سادت مصر في أواخر عهد بطلميوس الرابع وبداية عهد الخامس ولا شك في أن هذه المنح وما تبع ذلك من مصادرات الأملاك وحشد السجون بالدائنين

ومرتكبي الجرائم وفرار الكثيرين عن مواطنهم في كل أنحاء البلاد وقــد ترتب علي كل ذلك نقص عدد السكان فــي القــرى وهجــر الأراضـــي والمصانع وإهمال الترع والجسور ألهب روح الوطنية واشعال نار ثورة المصريين ضد طغاتهم وإذا كانت هذه العوامل قد أدت إلى تدهور الحالة الاقتصادية ودفعت إلى الثورة فلابد من أن تكون الثورة أيضا بما صاحبها من الاضراب عن العمل وإهمال المرافق العامة وتخريبها ، قــد ازدادت الحالة الاقتصادية سوءا علي سوء ولكن رغم العقاب الصارم الذي انزله ابيفانس بالثوار في عام ١٩٧ق.م والمنح التي اجاد بها علي المصريين لم تضع حداً للثورة عام ١٩٦ ق.م ، فنجد أن الثورة استمرت في الجنــوب حتى ١٨٦ ق.م عندما أفلح أحد قواد هذا الملك في أسر انخماخيس وقواده النوبية في ٢٧ أغسطس عام ١٨٦ ق.م وقد خلد هذا النصر قرار عفــو نفش علي نصب في فيلة واحد نقوش معبد ادفو الذي ينبئنـــا باســـتئناف أعمال البناء في هذا المعهد عندئذ بعد وقفه مدة حوالي ٢٠ عام ، ولكــن بالرغم من القضاء علي أنخماخيس في عام ١٨٦ ق.م فانه يبدو أن الثورة استمرت في الجنوب حتى عام ١٨٤ / ١٨٣ ق.م وهو العام الذي قضـــي فيه علي الثورة في الدلتا وعندما استولى بوليكراتس علي ســـايس ومثـــل الملك بالزعماء المصريين افظع تمثيل بأن شد وثاق أولئك الزعماء إلـــى عجلته الحربية وجرهم وراءه عاريين وشوهم ثم اعدمهم وذلك بعــد أن أمنهم علي حياتهم وتدل وثائق مختلفة علي أن حالة مصـــر العامـــة لـــم تتحسن بعد قرار عام ١٩٦ ق.م حتى نهاية عهد هذا الملـــك فـــان بقايـــا وثيقتين لا نعرف تاريخهم بالضبط لكنه يبدو محتملا انهم من أواخر حكم ابيفانس أو بداية عهد فيلومتور . تشير فيما يبدو إلى وقوع اضـــطرابات وسرقات .

ونسمع بأن كومانوس حاكم مديرية ارسينوي استخدم فـــي عـــام ١٨٧ ق.م ضابطاً لحراسة مركب تحمل بضاعة له ولا يبعد انـــه كـــان يرافق هذا الضابط قلة من الجنود .

كما نسمع انه خلال حكم بطلميوس الرابع أو بطلميوس الخـــامس نظمت فئة من المحاربين المصريين لتحشد بهم سفن الحراسة في النيـــل وقد أطلق عليهم اسم المحاربين المصريين الذين يحرسون الملاحين .

وفي العام الأخير من حكم ابيفانس أو بداية حكم فيلوميتور تشير الوثائق لأول مرة إلى وجود سفن من الاسطول الملكي في النيل بقوادهـــا وملاحيها تحت أمرة وزير المالية لضمان سلامة الملاحـــة فـــي النيـــل وفروعه ويلقي خطاب ملكي من عام ١٨٣/١٨٤ ق.م الضوء علي الحالة المتدنية علي الثورة وهذا الخطاب موجه إلى شخص يـــدعي ســـينوموس ويشير إلى أوامر ملكية أصدرها هذا الملك وأبوه وأجداده وفقـــرات هـــذا الخطاب تكاد تكون كاملة وهي تتناول مسألة العيون الذين استفحل أمرهم في التعليمات التي يشير إليها هذا الخطاب وتتضمن هذه التعليمات توبيخ الذين يوجهون إلى الناس تهما باطلة بدون قصد سئ – أما الذين يتهمون الناس باطلا بقصد استغلال وإثارة الاضطراب بينهم فيجب تقديمهم فـــي الحال للملك .

نتائج الثورة :

١- كما أدت الحالة الداخلية إلى وقوع اضـــطرابات (ســـرقات تجد أن سوء الحال امتد إلى الأرض الزراعية واضعف دعائم نظام الدولة الاقتصادي) إذ ترينا إحدى فقرات وثيقة من عهد فيلومتور اثر الثورة في حالة الزراعة في الأراضي الملكية في عهد ابيفانس . حيث نجد هيبالوس يستصرح المتيسرين من مزارعي الملك وأصحاب الأراضي ومـــوظفي

الحكومة وأفلح علي حملهم علي زراعة الأراضي التي هجرها أصحابها علي مسئوليتهم .

ونجد أن الظاهرة التي دفعت هيبالوس إلى اتخاذ ذلــك الإجــراء الذي يتسم بسمة الظروف القاهرة كانت خطيرة ودائمة في عهد البطالمــة المتأخرين وهي قلة اليد العاملة وما كان يتبع ذلك في نقــص المســاحة للأراضي الزراعية وأضعف دعائم نظام الدولة الاقتصادية مما أدى إلــى سوء حال البلاد الاقتصادية فتدهورت قيمة العملة في عهد ابيفانس إلى حد أن نسبة الدراخمة الفضية إلى الدراخمة البرونزية أصــبحت تعــادل ١: ٤٢٣ مما حدا بالحكومة إلى رفع القيمة الاسمية للعملة مرة ثانية .

وجهدوا الحالة نسبيا في نهاية عهد ابيفانس تكشف عن عوامــل مختلفة تنحر في عظام الدولة من جشــع الــوزراء والقــواد الإغريــق والموظفين بوجه عام ، وزيادة مطالب رجال الدين التي اســتجاب إليهــا الملك ليظفر بتأييد نفر منهم علي الأقل . وأخيرا تــدهور حــال الــبلاد الاقتصادية نتيجة للثورات وفساد الإدارة .

٢- هذه الثورات لم تذهب هباء وانما كان لها بعض التأثير علي الموجهين للسياسة في القصر فألغيت بعض الضرائب وضعف بعضها كما تنازلت الدولة عن بعض الديون المتأخرة وكذلك صدر عفو شامل عــن الجنود المصريين الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة كما نلاحــظ زيــادة ظهور المصريين في مناصب عليا في الدولة والجيش وزاد موقف القصر من الكهنة المصريين تساهلاً وتنازلوا لهم عن كثير من الامتيازات وهذا التطور في العلاقة بين القصر والمصــريين وازديــاد مكانــة العنصــر المصري ممثلا في الكهنة بالذات تكشفه لنا اشهر وثيقة خلفتها لنا مصــر القديمة هي حجر رشيد وهو يحوي علي قرار ديني أصدره مجمع الكهنة المصريين الذي عقد فــي ممفــيس (١٩٦ق.م) وكتــب بالهيروغليفيــة

والديموطيقية واليونانية واكتشف أثناء الحملة الفرنسية وهو في المتحـف البريطاني بلندن وقد حل رموزه شامبليون لأول مرة في التاريخ والقرار المسجل علي حجر رشيد مع نوع القرار الكانوبي الذي ذكرناه أثناء الكلام عن بطلميوس الثالث رغم أن فارق الزمن بين القرارين ٤٠ عام فقط إلا أن الفرق المعنوي كبير يدل علي مركز الكهنة الذي تغير تغيراً جوهرياً وأول ما يجب ملاحظته انه بينما عقد المجمع الأول في مدينة كانوب غير أن المجمع الثاني عقد في ممفيس العاصمة المصرية القديمة التـي كـان يتعصب لها المصريين في الإسكندرية ثم أن لهجة القرار وما يسجله من محاولات الملك التقرب إليهم واستمالة المصريين وتكشف عـن ضـعف السلطة كما أن حاكم طيبة التي كانت من أهم مراكز الثوار المصـريين فاصبح يشغل منصب ايستراتيجوس وله سلطان مطلق وهو بمثابة نائـب الملك في تلك المنطقة .

الثورة في عهد فيلوميتور :

عندما توفي إيفانس في الثامنة والعشرين مـن عمـره وارتقـى العرش مرة أخرى طفل صغير هو فيلوميتور كانت مصر في عهده كثير من جشع الأوصياء وفساد حكمهم ومن الدمار الذي انزلته بالبلاد غزوات انتيوخوس الرابع ومن النزاع بين بطلميوس السادس فيلوميتـور وأخيـه الصغير الذي عرف فيما بعد باسم بطلميوس يورجتيس الثاني وإذا كانت روما قد استغلت هذا النزاع واتخذت منه وسيلة لتحقيق اطماعها وتنفيـذ سياستها في مصر فان أحد زعماء المصريين ديونيسبوس بتوسرابيس قد حاول أيضا استغلال هذا النزاع لتحقيق الآمال التي كانـت تجـيش فـي صدور المصريين منذ مدة طويلة وبيان ذلك أن هذا التعليم الـذي كـان يتولي منصباً كبيراً في القصر ويتمتع بنفوذ كبير بين المصريين ولعـب دوراً ممتازاً في الحرب ضد انتيوخوس وذاعت شهرته الحربية بين الناس

أراد في عام ١٦٤/١٦٥ أن يتخلص من الملكين الأخوين الواحد بعد الآخر باستثارة خواطر السكندريين ضد بطلميوس السادس فيلوميتور حتى إذا ما تم له ذلك استنفذ فيما يبدو وطنية الأهالي ضد بطلميوس الصغير لكن فيبلوميتور خيب عليه خطئه بمصالحة أخيه فانسحب ديونسيوس إلى اليوسيس Eleusis ضاحية الإسكندرية المشهورة حيث التف حوله ٤٠٠ من الجنود لعلهم كانوا جميعا من المصريين وعندما انقضى عليهم فيلوميتور وهزمهم تمكن ديونسيوس من الفرار وإشعال لهيب الثورة في البلاد ويحدثنا ديودوروس بأن فيلوميتور تولى بنفسه اخماد الثورة وانه استطاع إخمادها بسهولة في منطقة طيبة فيما عدا مدينة بانوبوليس (أخميم الحالية) التي قاومتها مقاومة عنيفة إذا يبدو صعوبة الوصول إليها بسبب ارتفاعها ساعدت الثوار علي الاعتصام بها فلم يستولى الملك عليها إلا بعد حصار شديد وبعد ذلك عاقب الثوار ثم عاد إلى الإسكندرية وجدير بالملاحظة أن الثورة تركزت هذه المرة أيضا في أحد معاقل عبادة آمون و لكن هل تحالف المصريين هذه المرة أيضا مع النوبيين وانفصلت منطقة طيبة في حكم البطالمة ؟ هذا جائز إذا عذونا إلى هذا الوقت الملك هيروجونانور وإذا كان حصار ابيدوس الذي سبق الإشارة إليه قد حدث في هذا الوقت أي في العام السادس من حكم فيلومتور ١٦٤ ق.م وليس في العام السادس من حكم ابيفانس وقد يدل علي اهتمام فيلومبتور بحماية الحدود الجنوبية علي مساعدة النوبيين للمصريين في ثورتهم .

وترينا عدة وثائق الأحوال التي سادت مصر بوجه عام ، ونتائج الثورة المصرية بوجه خاص في عهد فيلوميتور وتأتي في مقدمة هذه الوثائق وثيقة مطولة من عام ١٦٤ ق.م وهي تلك الوثيقة تتضمن تعليمات هردوس وزير مالية فيلوميتور لمرؤسيه بخصوص الحالة الزراعية ، لقد جاءت الثورة الأخيرة عقب ثورة العهد السابق وغزوتي انتيوخوس .

فإن عدداً كبيراً من المصريين اشتركوا في الثورة وهلكوا في معاركها العديدة أو اعدموا بعد إخماد الثورة وابقوا مختفيين في الصحاري والمستنقعات فترتب علي ذلك نقص اليد العاملة في كل أنحاء البلاد وصاحب ذلك أيضا قلة الماشية وتبعا لذلك تأثرت الزراعة والصناعة والتجارة ولكن الزراعة كانت تعني الحكومة قبل كل شئ لتوفير غذاء سكان البلاد ولأنها كانت مورد الحكومة الرئيسي ولما لم يعد يجدي استصراخ همة المثيرين لإنقاذ الموقف فانه تقرر إرغام الجميع علي المساهمة في زراعة الأراضي المهجورة وقد كان الإرغام سلاحا خطيرا وكان بعض الأهالي يحاولون تفاديه والبعض الآخر يقابلونه بالشكاوي المريرة والاضطراب والإضراب عن العمل وهجرة مواطنهم مما كان يساعد علي إشعال لهيب الثورة و لذلك فان الحكومة كانت لا تلجأ دائما إليه أو كانت تحاول تخفيف عبئه بإنقاص الإيجار أو منح بعض الامتيازات للزراع لقاء استصلاح الأراضي البور المهجورة وإذا كانت النتيجة مرضية في بعض الحالات حيث أعيدت الأراضي إلى حالها السابق فإنها لم تكن كذلك بوجه عام لأنها لم تضع حدا لاطراد في زيادة مساحة الأراضي غير المزروعة التي كانت الحكومة لا تصيب منها أي دخل وكان ذلك يزعج الحكومة وينقص مواردها من الضرائب فكانت تضغط علي الملتزمين وترينا وثيقة من ١٥٦ ق.م كيف انهم القوا بدورهم هذا الضغط علي كاهل دافعي الضرائب إذ انهم استخدموا كل وثيقة مشروعة وغير مشروعة في امتصاص دمائهم .

ويبدو أن طبقة الكهنة انتهزت فرصة تحرج مركز الحكومة للفوز بامتيازات جديدة فعملت علي استرداد إدارة أراضى المعابد أو في رأي البعض عملت علي التمتع بقدر من الحرية في إدارة أراضى المعابد وبكل

الحرية في إدارة الأراضي الموقوفة لكننا لا نعرف مدى نصـــيبها مـــن النجاح في ذلك علي عهد فيلوميتور .

وثيقة هردوس سالفة الذكر تشير إلى وجود جنود مصريين فـــي الإسكندرية كانوا بين حرس الملك الخاص وان بعض الجنود اشتركوا في الثورة ضده ويبدو أن الكهنة المصريين قد انقسموا أيضا بين ثائرين علي الملك وموالين له أما الثائرين فقد عرفنا ما كان من أمـــرهم أمـــا عـــن الموالين له فان وثيقة من عام ١٦٤ ق.م تحوي شكوى من اعتداء الثوار علي معبد مصري بالفيوم كان فيلوميتور قد أعاد بناءه بعـــد مـــا دمـــره انتيوخوس الرابع ولعل هذا العطف الذي ابداه فيلوميتور نحو هذا المعبـــد ومن المحتمل أيضا ولاء كهنته للملك في أثناء الثورة قد دفعت الثوار إلى تخزيبه ويبدو أن الحالة كانت مماثلة لذلك في قرية أخرى من قرى الفيوم فان كاهنا يدعي مارس Marres كان قد اشتري قبل الثورة منـــزلا مـــن كاهنة تدعى ثمبو س وأودع عقد البيع عند شـــخص يـــدعي كونـــديلوس وعندما استولى الثوار علي هذه الثورة احرقوا العقد وانتهزت ثمبوس هذه الفرصة لتضع يدها علي المنزل ولا يبعد أن احراق العقد كان للانتقام من مارس بسبب ولائه للملك .

ولعل من الامور ذات المغذى في هذا الصدد أن بطلميوس الناسك المقدوني الذي تؤلف أوراقه جزء كبير من برديات معبد السرابيوم بمنف قد شكا عدة مرات في منتصف القرن الثاني قبل المـــيلاد مـــن اعتـــداء الأهالي عليه لانه إغريقي وإذا كان هذا هو موقف كهنة منف المعتـــدلين إزاء الإغريق فانه لا يمكننا أن نتصور موقف المصـــريين المتطـــرفين إزاءهم .

أن القضاء علي الثورة لم يضع حدا للاضطرابات فـــي مصـــر ولذلك فانه ما كان فيلوميتور يعود من روما بعد أن أحرز نصراً سياســـياً

علي أخيه الصغير حتى أعلن في عام ١٦٣ ق.م عفواً يشمل فيما يظن كل الذين كانوا مختبئين أو اتهموا باشتراكهم في الثورة ومع ذلك لم يستتب الهدوء والأمن في البلاد ونستدل علي ذلك من نشاط عصابات اللصوص في الأنحاء المجاورة لمعبد سرابيوم منف في عام ١٥٧ ق.م وعام ١٥٢ ق.م ومن محاكمة الكثيرين من زراع الملك حوالي ١٥٧ ق.م بتهم السلب والنهب وغير ذلك من الجرائم .

نتائج الثورات :

قد أدت الثورات القومية إلى تدهور حالة البلاد الاقتصادية فقد اضيف إلى ذلك في هذا العهد الآثار المترتبة علي النزاع الاسري وتكاليف التدخل المسلح في سوريا فازدادت الحالة سوء علي سوء وابلغ دليل علي ذلك استفحال أمر الازمة النقدية التي شهدتها بدايتها في عهد فيلوباتور فقد زادت باستمرار قيمة العملة الفضية وقل تداولها بين الناس فاصبح النسبة بين قيمتها وقيمة العملة البرونزية تعادل ١ : ٥٠٠ وقد صاحب ذلك بطبيعة الحال ارتفاع أسعار المواد الغذائية والمصنوعات والأجور ولما كانت موارد الملك قد نقصت علي حين التزاماته لم تنقص اقتضى أثر أبيه وجده في تحقيق هذه الالتزامات علي حساب الأهالي برفع القيمة الاسمية للعملية البرونزية .

الثورة في عهد بطلميوس الثامن

وإزاء الأحوال السيئة التي عمت البلاد اضطرت الحكومة إلى منح بعض الامتيازات لفئات مختلفة من سكان البلاد " الكهنة والجنود وملاك الأراضي الذين اقبلوا علي استصلاح الأراضي المهجورة " لكن هذه الامتيازات أن كانت قد عدلت النظام الاقتصادي الذي وضعه البطالمة الأوائل بتخفيف إشراف الحكومة علي نشاط الأفراد الاقتصادي فإنها لم

تستطع وقف تيار التدهور ، ولم تقض علي إرهاق الحكومة للأهالي ولذلك استمروا في تذمرهم ويتطلعون إلى القيام بثورة جديدة .

وفي عام ١٣١ ق.م أعطت الإسكندرية شارة البدء بالثورة ففي ذلك العام أرغمت كليوباترا الثانية وأنصارها الملك علي الهرب من الإسكندرية فالتجأ إلى قبرص لكن غيبته عن مصر لم تزد علي بضعة شهور وان كان لم يفلح في استرداد الإسكندرية ذاتها قبل أغسطس ١٢٧ ق.م ويرى بعض المؤرخين أن مصر رجعت أصداء هذا الخلاف وانقسمت فريقين :

وانه كان يؤيد كليوباترا الثانية الإسكندرية أو علي الأقل جانب من الإغريق وكذلك اليهود وجانب من الجيش علي حين كان يؤيد بطلميوس الثامن بقية الجيش وكثير من المصريين أو من المحتمل غالبيتهم بزعامة الكهنة وان هذه الحرب الأهلية كانت مزيجا من النزاع الأسري والثورة القومية ولذلك عمت الفوضى البلاد أننا نعتقد أن هذه الحرب الأهلية كانت حقا مزيجا من النزاع الأسرى والحرب الأهلية وانه عمت البلاد فوضي عنيفة أمعن القدماء في وصف فظائعها وأهوالها وتفسر ذلك كما يلوح لنا انه كان لكليوباترا الثانية حزب يضم الجانب الأكبر من إغريق مصر والمتأغرقين ، وسائر خصوم كهنة آمون ولذلك كان الموقف الطبيعي لغالبية المصريين هو مناهضة هذا الحزب اشفاء لغليل حقدهم علي الإغريق ومن هادتهم من المصريين فبدوا كما لو كانوا يناصرون بطلميوس الثامن وعلي كل حال يبدو أن المصريين انتهزوا فرصة ضعف الحكومة للإعراب عن مشاعرهم المكبوتة إزاء ما كانوا يعانونه من الإرهاق والظلم .

بينما اتخذ غضب المصرين في الوجه البحري ومصر الوسطى شكل الإضراب عن العمل ، اتخذ في مصر العليا شكل قتال بين المدن

والقرى بعضها مع البعض فقد كانت بعضها مثل باثيريس " الجبلـــين " ، طيبة لا تعترف إلا ببطلميوس الثامن ملكاً شرعياً ، ومن ثم فان هذه المدن كانت تؤرخ وثائقها بسنى حكم هذا الملك وكانت بعضها مثل هرمونثيس "أرمنت " لا تعترف إلا بكليوباترا الثانية فكانت لا تستخدم إلا سنى حكـــم هذه الملكة ويحدثنا خطاب كتبه في ٢٣ كيهك عام ٤٠ (١٥ يناير عـــام ١٢٠) جندي إغريقي يدعي استلاداس Esthladas بأنه كان علي وشـــك الزحف مع فريق من الجند الموالين لبطلميـــوس الثـــامن ضـــد مدينـــة هرمونثيس المناصرة لكليوباترا الثانية وبأنه قد وصلت أنباء تفيـــد بـــأن باوس قادم في الشهر التالي وعلي رأس قوات كافيـــة لإخضـــاع أهـــل هرمونثيس ومعاملتهم معاملة الثوار ومما يجدر بالملاحظة أن باوس كان الحاكم العام في منطقة طيبة وان اسمه يدل علي انه كان مصريا وهـــذا مثل آخر لمصري تولي منصباً كبيراً في عهد البطالمة الأواخر .

ولم تؤد عودة بطلميوس الثامن إلى الإسكندرية في عام ١٢٧ ق.م ولا عقد الصلح بينه وبين كليوباترا الثانية في عـــام ١٢٤ إلـــى انتهـــاء الثورات في البلاد فإننا نسمع عن قيام بطلميوس الثـــامن بحمـــلات فـــي الأقاليم في عامي ١٢٧ ، ١٢٦ ق.م وعن وقوع حرب بين هرمـــونثيس وجارتها كروكديلوبوليس وفي عام ١٢٣ ق.م وعند وقوع اضطرابات في مدينة طيبة خلال عام ١٢٢/١٢١ ق.م وعن حدوث قلاقل في بانوبوليس بعد ذلك ، وقد كانت هذه القلاقل خطيرة إلى حد أن هذه المدينة اســـتثنت من العفو في عام ١١٨ ولما لم تكن القوة وحـــدها فـــي القضـــاء علـــي الاضطرابات والقلاقل والثورات فان بطلميوس الثامن حاول وضع حـــد لذلك باصدار قرار أو سلسلة قرارات عفو في عـــام ١١٨ ق.م لمعالجـــة الأسباب التي أدت إلى هذه الحالة والنتائج التي ترتبـــت عليهـــا وبـــرغم النقائص التي تشوب الصورة التي وصلتنا لقرار عفو عام ١١٨ ق.م فإنها

تبين لنا مدى اضطراب أحوال البلاد من جراء الجرائم والأحداث التـــي وقعت في خلال الحرب الأهلية مثل أعمال العنف والتخريــب والحريــق وهجر الأراضي ومعيشة أربابها معيشة قطاع الطرق وعدم دفع الضرائب والإيجارات وبوار الأراضي وإهمال الرعي وعدم تحريم المواد الخـــام التي تتطلبها احتكارات الحكومة وعدم القيام بأعمال السخرة واغتصـــاب أراضي التاج ولم يقابل الملك مشاعر الأهالي واعمالهم العدائية بالعقـــاب لان القوة كانت لا تجدي فاضطر إلى العفو عن مرتكبي هذه ا لأحــداث التي سردناها ولعل الملك قد أدرك أن اخطر أعدائه لـــم يكونـــوا أولئـــك التاعسين الذين ثاروا لفرط ما قاسوا بل الموظفين الذين أساءوا اســـتخدام سلطاتهم واستباحوا لانفسهم سلطات لم تكن من حقهم .

ويسترعي انتباهنا في قرار عفو عام ١١٨ ق.م الاهتمـــام الــذي وجهه الملك للطبقات العاملة من ناحية والكهنة من ناحية أخرى مما يدل علي مقدار الأهمية التي علقها الملك علي إرضاء المصريين بوجه عـــام ويبدو أن الحكومة قد غمرها فيض من شكاوي الطبقات العاملة أو لعلهـــا رأت في ثوراتها دليلا ملموسا علي ما كانت ترزح تحته هـــذه الطبقـــات التي كانت تتألف منها ومن المحاربين المصريين اغلب جيـــوش الثـــورة ولذلك لم يسع الملك ووزراءه أن يحاولوا الاستجابة إلى مطالبها العادلـــة وقد رأينا أن اكبر مصدر لمظالم هذه الطبقات كـــان اســـتبداد مـــوظفي الحكومة وفسادهم وتكمل الصورة القاتمة التي يصورها لنا قرار العفو تلك الوثائق والخطابات الخاصة التي يضمها ســـجل مـــنخس كاتـــب قريـــة كركيوسيريس وهي ترجع إلى أواخر عهد بطلميوس الثامن وبداية عهـــد بطلميوس التاسع سوتر الثاني وتكاد تعادل في أهميتها بالنســـبة لتـــاريخ البطالمة الأواخر ما لمجموعة وثـــائق زينـــون بالنســـبة لتـــاريخ عهـــد فيلادلفوس وبداية عهد بطلميوس الثالث .

وليس أدل علي ضنك الطبقات العاملة وسوء حالتها من أن عادة واد الأطفال قد انتقلت تدريجيا من الإغريق إلى المصريين عامة وتفشت بين الطبقات العامة خاصة ولم تتغير بوجه عام سياسة البطالمة المتأخرين إزاء هذه الطبقات عما كانت عليه سياسة البطالمة الأوائل فان البطالمة المتأخرين لم يغيروا شيئا جوهريا في نظام فيلادلفوس الاقتصادي كما سبق القول وكل ما فعلوه هو انهم حاولوا حماية أولئك التاعسين من جور موظفي الحكومة العابثين فقد بقى زراع الملك والصناع وأرباب المهن والحرف المختلفة أداة في قبضة الحكومة لامداد الملك بموارده دون أن يكون لهم من الحرية الاقتصادية إلا قسطا محدودا جدا مما أدي إلى نقص الأيدي العاملة والانقطاع عن العمل والثورات مما ترتب علي ذلك نتائج بعيدة المدى في مجال الزراعة والصناعة .

ولقد كان الموظفين هم مصدر كل الشر الذي يعانيه الأهالي وقد حاول بطلميوس الثامن وغيره من البطالمة كبح جماح شهوات الموظفين دون طائل لأن السلطة المركزية لم تعد قادرة علي تنفيذ قوانينها وأوامرها وخير دليل علي ذلك أن حالة الطبقات العاملة لم تتحسن في آخر القرن الثاني وبداية الأول وان سوء تصرفات الموظفين كان فاشيا مثل ما كان في الماضي ولذلك فانه ليس من الإسراف في الرأي القول بأنه كان يحكم مصر في آخر القرن الثاني وفي القرن الأول فئة من الموظفين الأنفين الجشعين ذات إثراء عريض ونفوذ واسع فلا عجب إذن أن تصرفات موظفين من هذا الطراز كانت علي النحو الذي وضعه لنا قرار العفو وان الأهالي قد حرموا الوسائل المشروعة لمقاومة ما كانوا يعانونه من الظلم والعنف لجأوا أولا إلى الإضراب عن العمل والهرب إلى المعابد للاحتماء بالآلهة أو إلى قرى أخرى للاختباء عند إخوانهم في الظلم أو إلى المستنقعات والصحاري حيث يعيشون علي السلب والنهب حتى إذا ما

تكاثرت جموعهم هبوا ثائرين في وجه الحكومة وإذا كانـت مصـر قـد شهدت مثل هذا الإضراب منذ عهد فيلادلفوس فانها لم تراها بمثل الكثرة التي عرفها عهد البطالمة المتأخرين وقد كانت الإضرابات شائعة بوجـه خاص بين مزارعي الملك وغيرهم ممن كانوا يباشرون الشئون الزراعية وقد كان الإضراب خسارة فادحة لأن كان يحرم الملك والبلاد أهم عنصر في الحياة الاقتصادية واعني الأيدي العاملة .

وتدل الوثيقة التي سبق الإشارة إليها ورأينا فيها الكهنة يتقدمون سائر طبقات السكان عند استقبال أحد الحكام – تدل علي المكانة السـامية التي كان الكهنة يتمتعون بها خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد .

ويرى رستوفيتزوف أن الكهنة كانوا بوجه عام موالين للبطالمـة وان من الإسراف في الرأي القول بأن الكهنة كانوا يـدبرون الثـورات المصرية ويتزعمونها وبأن المعابد كانت بوجه عـام معاقـل المقاومـة الوطنية لحكم البطالمة ، بدليل أن الكثير من المعابد بقيت موالية للبطالمة في خلال غزوتي انتيوخوس الرابع وثورة ديونيسوس وان الكهنة كـانوا يخشون رجال الإدارة اقل مما كانوا يخشون الثوار . ونحن نرى أن فـي هذا الرأي إسرافا في الحكم علي موقف الكهنة إزاء البطالمة علي حين أن كهنة الوجه القبلي بصفة خاصة ناصبوهم عداء شديدا ولعل أهم سبب لهذا التبايين في موقف الكهنة من البطالمة كان ذلك العداء الشديد بـين كهنـة الوجه البحري وكهنة الوجه القبلي ولذلك كان من الإسراف فـي الـرأي القول بأن الكهنة جميعا كانوا يدبرون الثورات وان المعابد جميعا كانـت معاقل هذه الثورات والعكس وان المنح التي قد أفلحت في كسب ود جانب كبير من الكهنة فإنها لم تفلح مع ذلك في كسب ودهم جميعا إذ أن طيبة قد بقيت كما سنرى اشد معاقل الثورة حتى أواخر عهد البطالمة بطلميـوس التاسع وجملة القول أن منح البطالمة لرجال الدين أو بعبارة أخرى سياسة

إفساد الأخلاق التي يلجأ إليها كل مغتصب أجنبي لاضـعاف الحركـات القومية قد أفلحت في إفساد الاخلاق التي يلجأ إليها كل مغتصب أجنبـي لاضعاف الحركات القومية قد أفلحت في تسميم تلك الروح الظاهرة التي كانت تدفع علي الأقل الكثيرين من رجال الدين إلى تحرير الـبلاد مـن حكامها الأجانب وإزاء سوء الأحوال الاقتصـادية والاجتماعيـة وفسـاد الموظفين اكتسبت إحدى منح المعابد أهمية كبيرة وأعنـى حـق حمايـة اللاجئين وايده بطلميوس الثامن في قرار عام ١١٨ ق.م واهم مظاهر هذا الحق هو إلا يسمح الكهنة بدخول معابدهم إلا للأشخاص الذين يعتبرونهم مرغوبا فيهم ولذلك فانهم كانوا يضعون في ابرز مكان في المعبد لوحات تحمل هذه العبارة ولا يسمح بدخول الأشخاص الذين لا شأن لهـم فـي المعبد ولا شك أن هؤلاء الأشخاص هم الدائنين وعمال الحكومة الـذين يريدون جمع الضرائب أو إرغام نزلاء المعبد علـي أداء أنـواع مـن الخدمات الجبرية ولم يقصد الكهنة دحض حرية اللاجئين والنظم القائمـة إنما مناهضة عبث الموظفين وجورهم وكذلك مواجهـة دخـول بعـض الأهالي المعابد عنوة لكن المعابد تفتح أبواب للكثير من الزراع والصناع والعمال الذين تركوا عملهم وذهبوا للاحتماء بها حين كانت الحكومة فـي اشد الحاجة إليهم ولعبت دورا هاما في التطورات التي اجتازتهـا الحيـاة الاقتصادية .

الثورة في اواخر عهد البطالمة

إن الأحوال السيئة التي عمت البلاد في خلال عهـد بطلميـوس الثامن استمرت كذلك في خلال عهد خلفائه الذي شهد الكثير من القلاقـل والثورات والاضطرابات فان الظروف نفسها كانت لا تزال قائمة : نظام اقتصادي مجحف وأهالي أضنتهم مطالب ملوك أجانب ضعفاء يتنازعون الملك فيما بينهم من ناحية ويتنازعهم السلطة موظفون أغلبهم أجانب من

ناحية أخرى وتحدثنا وثيقة عن هياج الأهالي في عام ١١٤ ق.م في إحدى قرى الفيوم ضد موظفي الحكومة الذين طالما أساءوا استغلال سلطتهم وتذكر مظلمة من منطقة طيبة من عام ١١١ ق.م عن وقوع قلاقل واضطرابات حول هذا الوقت في هذه المنطقة ويبدو أنها قامت مماثلة للاضطرابات التي صحبت طرد بطلميوس الثامن ومحاولته لاسترداد مملكته فانها أدت كالعادة إلى الاعتداء علي الأملاك إذ أن شخصا استولى علي كرم هجرة صاحبه الاغريقي كما حدث في حالة منزل هرمياس صاحب القضية المشهورة وفي حالة الكثير من المنازل والاراضي في منطقة طيبة وغيرها في خلال عهد إيفانس .

ونعرف عن الثورة التي انتهت خلال الفترة الثانية من حكم سوتير الثاني اكثر مما نعرفه عن غيرها وتدل معلوماتنا علي أن هذه الثورة لم تختلف عن الثورات السابقة فإنها كانت مزيجا من الاحتجاج علي حال الطبقات الدنيا ومن الامال القومية والتعصب الديني وقد تفاقمت الحال في منطقة طيبة إلى حد أن بطلميوس سوتير الثاني خرب مدينة طيبة معقل الثورة تخريبا شديدا ويحدثنا باوسانياس بأنه ترتب علي مقتل كليوباترا الثالثة وهرب بطلميوس اسكندر خوفاً من السكندريين أن بطلميوس سوتير استرد عرشه ثانية ، وانه حارب أهل طيبة الثائرين وأخضعهم بعد ثلاث سنوات من بدء الثورة وان انتصاره عليهم كان انتصارا باهرا إلى حد انه لم تبق لهم بقية من رفاهيتهم السابقة .

ومتى بدأت هذه الثورة ومتى انتهت ؟ أن وثيقة من عام ٩٠ ق.م وهو العام الـ ٢٤ من حكم بطلميوس اسكندر تشير إلى اعتداء الثوار علي الأراضي الملكية في لاتوبوليس وباتيريس ولدينا من عام ٨٨ ق.م وهو العام السادس والعشرون من حكم بطلميوس التاسع بعض رسائل

شخص يدعي افلاطون كان دون شك الحاكم العام في منطقة طيبة إذ نراه يضطلع بمهام القيادة العليا التي كانت من اختصاص هذا الموظف.

و يتضح من كل هذه الوثائق امران : إحداهما أن بعض أحـــداث الثورة وقعت علي نحو ما رأينا في عام ٩٠ ق.م أي قبل عودة ســـوتير الثاني والآخر أن أهل منطقة طيبة لم يكونوا يدا واحدة في خـــلال هـــذه الثورة إذ أننا نرى أفلاطون يكتب في ٢٨ مارس سنة ٨٨ إلـــى أهـــالي باتيريس الذين كانوا موالين للملك وتتهددهم اخطار الثورة يبلغهم انه قـــد برح لاتوبوليس للقبض علي ناصية الحال ويدعوهم إلى الهدوء وســـاعده قائدهم نخثيرس إلى أن يصل إليهم باقصى سرعة ونرى افلاطون يكتـــب في اليوم نفسه إلى نحثيريس يبلغه فحوى خطابه إلـــى أهـــالي بـــاثيريس ويطلب إليه الدفاع عن باثيريس والعمل علي أن يسودها الهدوء والسكينة إلى أن ينضم إليه ويتولى بنفسه اخضاع الثورة وفي ٣٠ مارس ٨٨ نرى افلاطون يكتب إلى نحثيريس ليهتم بأن يتوافر لدي كل فرد إردب قمح من باب الاحتياط وهو مقدار مؤنة شهر وكذلك ما يكفي من الخبز والشـــعير وهكذا نرى الخوف يتملك الأهالي من اقتراب الثوار من إحـــدى المـــدن الموالية للملك ونرى أشباح المجاعة تتهدد هذه المدينة فيعمل المختصون علي مواجهة لازمة والاحتياط لها ونرى مرة أخرى التصادم بين المـــدن الثائرة والمدن الموالية علي نحو ما شاهدنا مرارا من قبـــل فـــي عهـــد بطلميوس الثامن ومما يجدر بالملاحظة أن نرى مصريا يتولى الدفاع عن باثيريس الموالية كما رأينا باوس من قبل يتولى اخماد بعض الثوار ويبدو من هذا الخطاب انه كان يتزعم المقاومة في باثيريس الموالية للملك رجال الدين فيها وكانوا كهنة حتحور الذين يضمرون عداء وراثيا لكهنة آمـــون وهذا ينهض دليلا علي شيئان إحداهما هو اثر الخلافات الشخصية بـــين

رجال الدين في موقفهم إزاء البطالمة والآخر أن كهنة آمون في طيبة كانوا يناصبون العداء للبطالمة .

وإذا صح أن ثورة منطقة طيبة قد بدأت في عام ٩٠ ق.م فلابد من أن تكون قد انتهت بحملة هيراكس في آخر عام ٨٨ ق.م وبذلك تكون قد انقصت في نهاية ذلك العام السنين الثلاث التي يقول باوسانياس أنها مرت قبل اخماد الثورة أما إذا كانت الثورة لم تبدأ إلا عقب عودة سوتر الثاني إلى عرشه فان الأحداث التي ترويها رسائل أفلاطون لا تمثل إلا الادوار الأولى في هذا الصراع ، وفي هذه الحالة تكون الثورة التي يشير إليها باوسانياس قد بدأت في عام ٨٨ ق.م وانتهت في عام ٨٥ ق.م .

وعلي كل حال فان تخريب طيبة وان كان فيما يبدو قد قصم ظهر الثورة إلا انه لم يؤد إلى هدوء الحالة في مصر لان نقشاً من هرموبوليس من عام ٧٨/٧٩ ق.م اوراقا بردية من مديرية هيراكليوبوليس من عام ٦٣/٦٤ ق.م ترينا أن احوال البلاد كانت مضطربة إلى حد اضطرت معه الحكومة إلى توزيع فرق قوية من الجنود المرتزقة اكثرهم من السوريين والأدوميين في مختلف أنحاء البلاد لوضع الأمور في نصابها وتكليف وحدات من الأسطول الملكي بتأمين سلامة المواصلات النهرية وفي عام ٥٧/٥٨ ق.م عندما كان يتولي الحكم برينيكي الرابعة وكليوباترا في أثناء غيبة الزمار في روما اضطربت الأحوال ثانية في منطقة هيراكليوبوليس وقد لعب في هذا الاضطراب دورا هاما شخص يدعي هرمايسكوس لعله كان مثل ديونيسيوس أحد موظفي الحكومة ثم تزعم حركة ثورية قام بها بعض الأهالي أو لعله أحد المتذمرين من سوء الحالة فهجر أرضه أو مصنعه وألف جماعة من أقرانه للسطو والنهب وقد أزعجت هذه الحركة الأهالي الوادعين المسالمين إلى حد انهم هددوا الحكومة بالانقطاع عن العمل وقد ورد ذلك في تقرير رسمي .

وقد ازداد حال الأهالي سوءا بقدر ازدياد مطالب الحكومة منهم ولا سيما أن بطلميوس الزمار بدلا من أن يسدد ديونه لدائنه الروماني رابيريوس عينه في عام ٥٥ ق.م وزيرا للمالية ويمكنا أن نتصور مدى نشاط دائن جشع أقيم وزيرا للمالية في بلد أجنبي ومدى تصرفات موظفي الحكومة في مثل هذه الظروف وقبل أن ينتهي العام كان رابيريوس قد أثار نقمة السكندريين عليه إلي حد اضطر الملك إلى أن يسجنه هو وعماله لتهدئة السكندريين وحماية رابيريوس ورجاله من الاعتداء عليهم وخير دليل علي عبث الموظفين وثيقتان إحداهما شكوى قدمها بعض المسجونين في عام ٥١/٥٠ ق.م لانهم عذبوه وسجنوه بالرغم من براءته والأخرى هي القرار الذي اصدرته كليوباترا السابعة واخوها بطلميوس الثالث عشر في عام ٤٩/٤٨ ق.م يحظر القبض علي المدنيين ويأمر باحترام ما أصدره من خطابات الأمان علي الأقل طوال موسم الزراعة ، و ليس أدل علي الأحوال السيئة التي عمت البلاد ما يصوره لنا عدد من الوثائق من مديرية هيراكليوبوليس من حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد إذ يبدو أن اشباح الغافة والارهاق المادي دفع الكثيرين إلى هجرة أراضيهم والهرب من قراهم وفي بعض الحالات هجرة جميع الأهالي موطنهم إذ يحدثنا تقرير كهنة معبد هيرانيسوس عن قلقهم علي موارد المعبد لان كل أهالي القرية قد برحوها ولم يبق فيها إلا الكهنة وحدهم وفي حالات أخرى لم يجني إلا عدد قليل من الأهالي أرهقتهم الحكومة بتكليف زراعة مساحات كبيرة من الأراضي مما حملهم عن الإضراب عن العمل ولا شك في أن هذه الأمثلة لم تكن فريدة ويؤيد ذلك ما كشفت عنه الحفريات المنظمة التي قامت بها جامعة مسيجان في كارانيس (كوم اوشيم بالفيوم) إذ أثبتت أن مساحة هذه القرية كانت في أواخر عهد البطالمة اصغر مما كانت عليه في عهد أوائلهم .

النتائج المترتبة علي تلك الثورات :

١- تعرض البلاد إلى فاقة اقتصادية كبيرة ونجد ذلك واضحا من الأمر الملكي في عام ٥٠/٤٩ ق.م الذي يفرض عقوبة الإعدام علي من يصدر القمح من مصر الوسطى إلى مصر السفلي أو العليا بدلا من تصديره إلى الإسكندرية مما يوضح أن محصول القمح كان قليلا فيما عدا مصر الوسطى ويرجع نقص المحصول إلى هبوط مستوى النيل ونقص عدد السكان في القرى وكذلك الأراضي المزروعة .

٢- ارتفاع الأسعار وتدهور قيمة العملة وهكذا تشير القرائن حكومة وشعبا إلى الفقر خلال هذه الفترة بسبب المجاعتان اللتان حدثتا في عهد كليوباترا السابعة وعهد أبيها وانخفاض مستوى الفيضان ولكن من المؤكد انه قد ساعد علي استفحال أمرهما سوء حالة الجسور والقنوات ونقص عدد السكان بوجه عام ، ولكن رغم أن كليوباترا السابعة كانت شخصية غنية لكن هذا لا يدل علي غنى البلاد فقد لا يبعد أن مخازنها كانت تفيض بالحبوب علي حين كانت البلاد في اشد الحاجة إليه .

أسباب الثورات

لقد رأينا كيف أن نظم البطالمة قسمت سكان البلاد فئتين ، إحداهما فئة عليا تتمتع بامتيازات سياسية واجتماعية واقتصادية ويتكون اغلب أفرادها من الأجانب التابعين للإغريق والتي استغلت سلطتها لإشباع أطماعها وشهواتها .

أما الفئة الأخرى فهي غالبية الأهالي الذين حرموا ارفع المناصب وخيرات بلادهم وقيدت الحكومة حريتهم الاقتصادية واستغلتهم إلى أقصى حد ولم يكن كل ذلك لفائدة ملوك قوميين وطبقة قومية بل لفائدة ملوك أجانب وجنس غريب عن أهالي البلاد في اللغة والدين والتقاليد والعادات فضاق المصريون ذرعا بهذه الحالة واحتجوا عليها منذ البداية منذ القرن

الثالث لكن احتجاجاتهم لم تتخذ شكلا خطيرا إلا عندما اســتعادوا ثقــتهم بأنفسهم عقب انتصارهم في موقعة رفح ويبدو أن هذه العوامــل كانــت مزيجا من العوامل القومية ، الدينية ، الاجتماعية ، الاقتصادية وإذا كــان للعامل الاقتصادي اثر بعيد في هذه الثورات فانه لن يمكن كذلك إغفــال العامل القومي وإلا لما رأينا نبوءة الفخار التي تردد أمال المصريين فــي تحريرهم من رقبة الأجانب واقامة حاكم وطني عليهم في عاصمة وطنية.

الأسباب التي أدت فشل تلك الثورات :

خرج المصريون من كفاحهم الطويل يجرون أذيال الخيبة بسبب افتقارهم إلى ما امتازت به عليهم قوة البطالمة من النظام والأسلحة والعتاد والأموال وكذلك عدم اتحادهم فان فريقا من المصــريين بــدلا مــن أن يشتركوا في مناهضة الحكم الأجنبي الحــائز اشــتركوا فــي مناهضــة مواطنيهم أو علي الأقل وقفوا منهم موقف سلبيا . وذلك إشباعا للأحقــاد الشخصية وسعيا وراء مصالحهم المادية فكانوا بــذلك مطيــة للأجانــب وجزءا من أداة تنفيذ سياسته الاستعمارية .

– استغلال البطالمة العداء القديم بين كهنة آمون وكهنة الآلهــة الأخرى كما استخدموا سياسة إفساد الأخلاق فاستطاعوا استمالة جانــب كبير من رجال الدين بالعطايا والامتيازات والحقوق فيما عدا علي الأقــل كهنة آمون .

– إتباع قادة الثوار أو فريق منهم لاعمال السلب والنهب التــي كانت تعم البلاد في خلال الاضطرابات مما دفع أصحاب المصالح مــن الأهالي إلى معاونة الثوار أو علي مناشدة الحكومة حمايتهم .

ولكن إذا كان المصريون قد فشلوا في الــتخلص مــن طغــاتهم الأجانب فإنهم علي الأقل أرغموهم علي النزول عن تصلتهم وجبــروتهم والنظر إليهم بعين جديدة في الشطر الثاني من حكمهم وفضلا عن ذلــك

فان الثورات القومية كانت من أهم الأسباب التي ضعفت دولة البطالمة وعجلت بالقضاء عليهم .

فئات السكان في مصر البطلمية

ضم المجتمع في العصر البطلمي فئات عديدة من السكان ، حيث كانت مصر في العصر الفرعوني تضم شتى الأجناس من أثيوبيين وليبيين وآسيويين وفارسيين ويونانيين وغيرهم ، ولكن في العصر البطلمي في مصر اختلف عن العصر الفرعوني لأن حكام هذا العصر كانوا ينتمون من العصر المقدوني اليوناني ، ولذلك اعتمدوا علي بني جنسهم في بناء دولتهم حيث قاموا باستيراد أعداد وفيرة من بني جنسهم فكانوا العنصر السائد في الجيش والإدارة . وعند توسع الإمبراطورية المصرية في مناطق آسيا الصغرى وسوريا وبحر إيجه هاجر إلى مصر أعدادا كبيرة من جميع الجنسيات المختلفة سعيا وراء العمل والرزق الوفير ، ومن هذه الجنسيات التي جاءت إلى مصر اليهود والسوريون والليبيون والفينيقيون، وتأقلمت هذه الجنسيات مع الأغلبية العظمى من المصريين و لم نعرف عدد كل جالية ولكن ذكر جوزيفوس [٤٧] عدد سكان مصر عدا أهل الإسكندرية هو سبعة ملايين ونصف .

وكذلك ذكر ديودور الصقلي [٤٨] أن عدد سكان الإسكندرية يبلغ بنحو ثلاثمائة ألف شخصا من الأحرار ، وكذلك أضف إليهم مائتين ألف من العبيد والفلاحين النازحين إلى الإسكندرية من الريف فبذلك يبلغ عدد سكان الإسكندرية بنحو خمسمائة ألف شخص تقريبا ، وعلي ذلك يبلغ متوسط عدد سكان مصر في العصرين اليوناني والروماني هو ثمانية ملايين شخص . [٤٩]

كان لابد من تنظيم هذه الأجناس المختلفة وذلك ليسهل الإشراف عليهم والاستفادة منهم، ونظم البطالمة الإغريق علي أسس خاصة حيث تم

إدراجهم في تعداد مواطني المدن اليونانية في مصـــر ، أو ضـــمهم فـــي مجموعات حسب موطنهم الأصلي تسمى يوليثيوما . أما سائر السكان من الإغريق والأجانب والأغلبية الساحقة من المصريين كانوا ينظموا حسب أعمالهم وحرفهم . (٥٠)

كانت العضوية في المدن اليونانية في مصر قاصرة علي الطبقات الممتازة من الإغريق ، وذلك لان البطالمة لم يقبلوا إنشاء مـــدن مســـتقلة علي النمط اليوناني في مصر لأنها تتعارض مع نظـــامهم فـــي الحكـــم الملكي، ولذلك فلقد اقتصروا علي المدن التي كانت موجودة من قبـــل أي قبل قيام دولتهم وتلك المدن هي نقراطيس التي تقع في شمال غرب الدلتا وتأسست في نهاية القرن السابع قبل الميلاد ، ومدينة الإسكندرية والتـــي أنشأها الاسكندر الأكبر واصبحت عاصمة لمصر بعد ذلك . ولم ينشـــئ البطالمة سوى مدينة جديدة واحدة هي مدينة بطلمية التي أسسها بطلميوس بن لاجوس في أعالي الصعيد ، وكان هدف البطالمة الأساسي من تلـــك النظم التي اقروها في المدن اليونانية الجديدة هي حفـــظ جماعـــات مـــن العنصر الإغريقي نقية بدون أي اختلاط مع الأهالي من المصريين فتفني بمرور الزمن وكان هدف البطالمة يختلف كليا مع هدف الاسكندر الأكبر نحو إنشاء المدن . فكان هدف الاسكندر هو اختلاط الإغريق مع الأهالي الأصليين في كل مدينة أنشأها حرص البطالمـــة علـــي حفـــظ العنصـــر الإغريقي نقي ولذلك سنوا لهم قوانين ما يمنعهم من الزواج من المصريين حتى يظل الدم الإغريقي نقي .

لم يكن الإغريق الذين عاشوا في مدينة الإسكندرية مواطنين بها ، بل كانت المواطنة قاصرة علي العناصر الممتازة ، أما الإغريق الآخرون فلم يتمتعوا بحق المواطنة بل كانوا رعايا الملك مباشرة ، وكان لهم نظام آخر وهو نظام بوليتيوما Politeuma وهي عبارة عن مجموعة أو رابطة

تضم جميع أبناء الوطن الواحد من الفئات الإغريقية فوجدت في بوليتيوما للمقدونيين وأخرى للكريتيين وأخرى لليهود وهكذا . (٥١)

كانت لكل مجموعة من البوليتيوما هيئة مستقلة ذات نظام خاص يغلب عليه الطابع العسكري ولها أنشطة أخرى اجتماعية ودينية وكانت خاضعة مباشرة للملك ، والسبب وفي إنشائها أن تضم جنود الجيش البطلمي في أثناء السلم حيث ينتشرون في الريف حيث مزارعهم وذلك ليسهل حصرهم واستدعاؤهم عند الحاجة إليهم ، ومنذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد نجد أن تلك البوليتيومات كانت تضم بين أفرادها عناصر أخرى وكانت قبل ذلك قاصرة علي عنصر واحد فقط وكانت من اكبر الجاليات حينئذ الجالية اليهودية . (٥٢)

أما بالنسبة للمصريين فهم الأغلبية الساحقة وكانوا من قبل رعايا فرعون واصبحوا في العصر البطلمي رعايا الملك. فلقد قسم هيرودوت (٥٣) المصريين إلى سبع طبقات حسب أعمالهم وهم بالترتيب الكهنة ، الجند ، رعاة البقر ، رعاة الخنزير ، التجار ، المفسرون ، و رجال القوارب . ولم يرد في حديث هيرودوت طبقة الفلاحين والصناع والموظفين الإداريين .

التجارة الداخلية

مقدمة :-

أن معلوماتنا عن التجارة الداخلية في العصر البطلمي هي قليلة جداً ، وتتفاوت من سلعة إلى أخرى فلا نستطيع مما تجمع لدينا من مادة أوراق البردى أن نتناول كافة السلع التي كانت تباع في أسواق مصر الداخلية ، ولا أن نعالج في اسهاب بعض هذه السلع ، ولا أن نتناول بالتفصيل الشامل التبادل الاقتصادي بين مصر وبين المدن الأخرى ، مما يوضح قلة المعلومات التي لدينا كما قلنا في بداية الأمر ، لذا سوف

نستعرض ما نعرفه عن التجارة الداخلية من منتجات مصــر المختلفــة ، ونحاول بيان السياسة التي اتبعها البطالمة في تنظيم هــذه الناحيــة مــن نواحي حياة البلاد الاقتصادية .

الحبوب الغذائية :

وتأتي الحبوب الغذائية بطبيعة الحال في مقدمة الســلع وأكثرهــا أهمية وتبين من الوثائق أن تجارة الحبوب الغذائية في مصر كانت حرة إلا إذا استثنينا الكميات التي كان الملك يحتم علي بعض الزراع أن يبايعونــه إياها بسعر معين ليسد بها فيما يبدو حاجة المديريات التي تفتقر إلــى مــا يكفيها من الحبوب ، ومعنى ذلك أن الاتجار في الحبوب الغذائيــة كانــت تشوبه بعض القيود ، ومن ثم لا يمكن القول بأنه كان حرا حرية مطلقة .

و توضح لنا الوثائق أن تجارة الحبوب كانت تتم بكميات كبيــرة في أسواق منف ، فقد جاء في إحدى هذه الوثائق وهي مؤرخة بسنة ٢٥١ أو ٢٥٠ ق.م أنه قد تم شحن كمية هائلة من الحبوب إلى الإسكندرية بلغت حمولة المركب معها حوالي ٤٨٠٠ أردباً من الشعير ، ولكن الوثيقــة لا تشير إلى مكان تصدير الحبوب ، ومما يجعلنا نفترض أن هــذه الكميــة الهائلة أرسلت من منف أن قبطان المركب كان من مدينة منف .

وقد كان أرباب الضياع الكبيرة يتاجرون بكميات هائلــة ، فــان محصول الحبوب من ضيعة أبولونيوس في منف مثلا كان لا يستهلك كله في تلك المنطقة ، ولذلك كان أسطوله ينقله لبيعه عملاؤه في أماكن أخرى غالبا إلى الإسكندرية ليباع هناك بأسعار مرتفعة لان سعره كان قليلا في الريف حيث الإنتاج وفير في حين كان سعره مرتفعا في المدن ولاســيما الإسكندرية . وتحدثنا اغلب الوثائق عن تفاوت في أسعار الحبوب وعــدم ثباتها من يوم لآخر ومن إقليم لغيره ، وغالبا ما يرجع هذا الاختلاف إلى

موسم الحصاد في الصيف حيث يكون سعر الإردب منخفضا بينما ترتفع أسعارها في الشتاء .

وعلي الرغم من حرص البطالمة علي جميع الأموال فلم يحتكروا تجارة القمح فانه في عام ٤٩/٥٠ ق.م عندما كانت البلاد تعاني أزمة شديدة صدر أمر ملكي يقتضي من التجار أن يرسلوا حبوبهم إلى الإسكندرية وإلا فرضت عليهم عقوبة الموت .

الحبوب الزيتية :

كانت الحكومة تحتكر شراء هذه الحبوب لاستخراج الزيت منها ، فكان القانون يحتم بيع كل المحصول بسعر محدد لملتزمي صناعة الزيت، وكان حق بيع الزيت يباع للملتزمين بمقتضي مزاد علني غير أن المزايدة لم تكن علي سعر الزيت لان الملك كان يحدد سعر البيع بالتجزئة وانما علي كمية الزيت التي تباع يوميا في كل مدينة وقرية وقد عرفنا من وثيقة في القرن الثاني ق.م انه لم يوجد لكل مديرية ملتزم واحد لبيع الزيت بل كان يوجد مجموعة ملتزمين لكل مدينة وقرية ونجد أن النظم المعقدة التي وضعت لاحتكار الزيت لم تتعارض مع مصالح الأهالي المادية فحسب بل أنها أيضا أفسدت أخلاقهم لأن الناس ضاقوا بها ذرعا وانتهزوا كل فرصة للخروج عليها . وقد كان الملك يسيطر سيطرة مطلقة علي تجارة هذه السلعة ولم يكن سعرها ثابت علي الدوام ، بل ويبدو انه كان يتغير من حين إلى آخر حسب مقتضيات سياسة الملك .

أما عن أنواع الزيوت المستهلكة فكان منها زيت السمسم ، زيت القرطم ، زيت الخروع ، زيت الحنطل ، وزيت الإضاءة أي الكتان .

وبجانب استهلاك هذه الزيوت يجب أن نضيف أن زيت الزيتون كان ضروري لا يستغنى عنه بالنسبة لليونانيين في أي مكان وبالأخص في الإسكندرية .

والزيتون كان يزرع في مصر قبل مجيء الإغريق إلى مصر حيث أن زيت الزيتون له نوعية جيدة من إنتاج طيبة وبناءا عليه فهو يزرع منذ زمن طويل ، وبعض أشجار الزيتون كانت تنمو بالإسكندرية بينما مئات الأشجار كانت تنمو بأبولونيوس التي كان إنتاجها بلا شك يشحن إلى العاصمة ولم يذكر زيت الزيتون في قوانين فيلادلفيوس ومن ثم استثنى من الضرائب .

وفيما يلي ذلك من حديثنا كان عن الاخشاب :

الأخشاب

كانت الأشجار في ذلك الحين مقسمة إلى قسمين : ما تملكه الحكومة وما يملكه الأهالي وكان يمكن شراء أشجار من الحكومة وقطعها ولم يكن للملك امتيازات معينة في شراء الأخشاب المحلية ولعله كان هناك ملتزمون يعطون الملك جزءا من الأخشاب يكفي لبناء المنشآت الثانوية أما المنشآت العامة فكان يجلب إليها أخشاب خاصة من الخارج التي من اجلها فتح البطالمة بعض الأقاليم الخارجية وعلي كل حال فانه يبدو أن التجارة في الأخشاب المحلية كانت محدودة بسبب قلة الأخشاب المصرية وتشير الوثائق إلى أنها كانت تجارة حرة بدليل تفاوت اسعارها فقد جاء في وثيقة مؤرخة بسنة ٣٥ من حكم فيلادلفوس أي تقريبا ٢٥٠ق.م أن مربي في قرية ميا Mea يبيعون لأبولونينوس اشجار التوت والسنط بسعر منخفض .

النبيذ (الخمر)

أما عن تجارة النبيذ فتحدثنا عنها وثيقة غير مؤرخة جاء بها توزيع كمية كبيرة من النبيذ من قرى نوموس منف إلى افروديتوبوليس والي كروكوديلوبوليس وقد نشطت منف في زراعة العنب لذلك كان من الطبيعي أن تنشط أيضا بها صناعة النبيذ وتجارته ويبدو أن تجارة النبيذ

كانت حرة وان سعره كان يتوقف علي جودة الصنف وقـانون العـرض والطلب غير أن البيع كان تحت إشراف الايقونوموس وكان الثمن يوضع في الخزانة الملكية تحت إمرة الملك من اجل تسـديد كافـة الضـرائب المستحقة علي صاحب النبيذ وكان لا يستولى علي ما تبقى من ثمن النبيذ إلا بعد أن تحصل الحكومة علي استحقاقاتها .

العسل

يبدو أن هذه التجارة كانت حرة فلم تقتصر علي أشخاص معينين ولا علي أسعار العسل ولا تفرض قيود علي نقله من مكان لآخـر وقـد عرفنا من وثيقة من منتصف القرن الثالث قبل الميلاد انه كانت تفـرض ضرائب علي العسل المستورد من الخارج وقد توفرت خلايا النحل فـي منف مما أدى إلى انخفاض سعره .

الملح

لم تكتف الحكومة باحتكار الملح بل كانت تشهر في المزاد العلني حق بيع الملح للأهالي في كل مديرية كما جاء من خلال الوثائق ومعنـى ذلك أن الحكومة كانت بمثابة الصانع وتاجر الجملة الذي لا يبيع ما لديـه من السلع إلا بأعلي سعر وقد عرفنا من وثائق أخرى أن الحكومـة كمـا يبدو هي التي كانت تبيع الملح مباشرة لبعض الهيئات الممتازة كـالجيش ولعل الغرض من ذلك كان بيع الملح لهؤلاء بسعر اقل مما كان التجـار يبيعونه به لغيرهم من سائر سكان البلاد .

وفضلا عما سبق كانت الدولة تفرض ضريبة علي الملح ولكن ما نعرفه انه كانت نسب متفاوتة يصعب التكهن بها فقد كانت تتفاوت ما بين الرجال والنساء والعبيد مع وجود من هم يعفون منها وقـد ظلـت هـذه الضريبة معمول بها حتى عام ١٥٦ ق.م تقريبا .

نستخلص مما سبق ومما أمكن جمعه من برديـات أن الحبـوب والأخشاب والنبيذ والعسل هي بعض السلع التـي كانـت متداولـة فـي الأسواق في مدينة منف ، وهذه السلع رغم كونها تباع وتبتاع في حرية إذ أن الاتجار بها كان حرا إلا انه فرض عليها ضرائب معينة ويبدو أن هذه السلع كانت اكثر حرية من الاتجار في السلع الأخرى فقـد كـان الملـك يحتكر صناعتي الزيت والملح وتجارتهما .

الكتان

أن الوثائق لا تشير إلى أن الملك كـان يحتكـر شـراء جميـع محصول الكتان في الأسواق بأسعار محددة ذلك أن جانبا علي الأقل مـن كتان ابولونيوس كان يباع للتجار في الأسواق بأسعار غير محددة وهناك وثيقة تدل علي انه لم يحتكر أي ملتزمون شراء الكتـاب بسـعر محـدد لسببين :

١- أن الحكومة لم تحتكر صناعة المنسوجات الكتانية احتكـارا كاملا .

٢- إذا كان هؤلاء التجار حق ملتزمين لما أمكن بيـع الكتـان خارج المديرية التي أنتجته كما أن تجارة الكتان لـم تكـن حـرة ، وان الحكومة كانت تحتم بيع مقدار معين لها من المحصـول فـي حـين أن التصرف في بقية المحصول إنما كان غير خاضع لأي قيد . كان هـذا بعض مما استطعنا الحصول عليه من المصادر التاريخيـة مـن بـردى وغيره بشأن الحديث عن الكتاب وها نحن الآن بصدد الحديث عما يخص الأصواف الخام .

الأصواف الخام

لم يكن الملك يحتكر تجارة الأصواف كلية وان كنا نرجح انه كان في مقدمة تجارها بسبب ما كان يملكه من قطعان الأغنام والماعز ولكـــن تجارة الأصواف الخام لم تكن متحررة من القيود لأن مصر في العصـــر البطلمي لم تعرف تجارة حرة تماماً في أي سلعة ولا نستطيع أن نعـــرف إلى أي مدى كان الملك يقيد تجارة الصوف الخام ولا يبعد انه كان يحـــتم بيع قدر معين من الأصواف الخام له بسعر معين .

المنسوجات

أن " وثيقة الدخل " تحوي بين بقاياها ما يشير إلى وجود أســـعار محددة لبيع كافة أنواع المنســـوجات و الملابـــس كمـــا وان بيـــع كافـــة المنسوجات كان في قبضة ملتزمين ولا يبعد انه كان هناك ملتزمون لبيع حصة الملك من المنسوجات لكنه لا يبعد أيضا انه كان يحق للنساجين بيع ما يتبقى لديهم وان الحكومة لم تحتكر الاتجار في المنسوجات ويؤيد ذلك أنها لم تحتكر الاتجار في المواد الخام اللازمة لصناعة المنسوجات ، كما أنها لم تحتكر كل إنتاج الصانع .

الفاكهة

لقد كانت الفاكهة مقسمة إلى قسمين رئيســـيين : العنـــب علـــي اختلاف أنواعه ، وباقي أصناف الفاكهة ومن المرجح أن بيع العنب كان علي نمط بيع الفاكهة وتحدثنا " وثيقة الدخل " انه إذا اقبل الملتزم بتقـــدير رب البستان للمحصول فان هذا يتيح له حرية التصرف فـــي محصـــوله وبيعه كما يشاء ، واما إذا لم يقبل الملتزم التقدير فانه يقوم ببيع المحصول بنفسه أي انه لم يحتكر أحد تجارة الفاكهة ولم يقيد هذه التجـــارة ســـوى اطمئنان الملتزم إلى ضمان الحصول علي الضريبة التي التزم جبايتها.

الجعة

أن المشتغلين بهذه الحرفة كان ملتزمين يتعاقدون مــع الحكومــة علي استخراج الجعة يوميا من كمية معينة من الشعير يمدهم بها موظفون مختصون .

وتبعا لإحدى الوثائق التي وصلتنا من القرن الثالث قبل المــيلاد الجعة كانت تباع حيث تصنع أي أنها كانت تباع في المصنع ولكــن لــم توجد للجعة مصانع كبيرة علي النمط المعروف حاليا وصــناعة الجعــة وبيعها في هذه الآونة كانا في قبضة ملتزمين إلا أننا لا نعــرف إذا مــا كانت الجعة كانت تباع بسعر محدد أم لا وان كان تحديد الســعر يبــدو محتملا ونجد أن القرائن تشير إلى أن الأهالي كانوا يــدفعون للحكومــة ضريبة لقاء تمتعهم بحق شراء الجعة .

المعادن والأدوات المعدنية

كانت الحكومة تمتلك المناجم وتبعا لذلك ما يستخرج منها ولما كانت الحكومة تحتكر سك النقود التي كانت تصنع من الذهب والفضــة والبرونــز فلابد إذا من أنها كانت تستبقى جانبا مما لديها من معادن لهذا الغرض ويبــدو من إحدى الوثائق انه كان في الإمكان الاتجار في المعادن التي لم تسك بعــد دفع ضريبة للحصول علي ترخيص بمزاولة ذلك ، ولكــن كانــت الحكومــة تحتكر استيراد الحديد وصناعته لسد حاجتها قبل كل شــئ ثــم ســد حاجــة الجمهور بعد ذلك ، ويتضح من وثائق زينــون أن أصــحاب المصــنوعات المعدنية الثمينة كانوا يستطيعون التصرف فيها دون قيد أو شرط .

الورق

تحدثنا وثيقة من عام ١٥٩ ق.م عن صناعة الورق وبيعــه وقــد جاء في هذه الوثيقة ما نستطيع أن نستخلصه فيما يأتي : –

١- كانت هناك إدارة خاصة للورق كما كان يوجد في كل مديرية شرق علي بيع الورق الملكي بالتجزئة وكان سعره هو سعر أي سلعة أخرى .

٢- كان يوجد ملتزمون يبتاعون من التاج الحق في أن يبيعوا في أنحاء المديرية الورق الملكي ولكننا لا نعرف ما إذا كانت الحكومة قد حددت أسعار بيع هذا الورق أم لا .

٣- كانت هناك تجارة حرة في نصيب المصانع الأهلية من إنتاجها، ولم يحظر علي المشتغلين بهذه التجارة إلا البيع لكتبة العقود فقد كان وقفا علي ملتزم بيع الورق الملكي ولعل أصحاب المصانع الأهلية للورق كانوا بمثابة تجار الجملة ولعله كان يوجد تجار تجزئة أيضا يدفعون ضريبة لقاء تمتعهم بحق مزاولة عملهم ، ولا شك أن الجميع كانوا يعملون تحت رقابة إدارة الورق كان هذا في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد .

الحيوانات والطيور

ويبدو من الوثائق المختلفة أن الاتجار في البقر والأغنام والماعز والخنازير والحمير لم يكن خاضعا لأي قيد عدا إخطار ملتزم الضريبة المفروضة عليهم لأنها كانت تباع وتشتري دون أي تدخل في ذلك من ناحية الحكومة وكان الاتجار في الخيول غير خاضع لقيود خاصة في الأوقات العادية ونستدل علي ذلك من تفاوت أسعارها في السوق واما في أوقات الضرورة كان الملك يستولى علي كل ما يلزم جيشه من الخيول أما الطيور علي اختلاف أنواعها فانه لا يعرف شئ عن الاتجار فيها .

اللحوم

كانت اللحوم وتجارتها في قبضة أشخاص يشترون من الحكومة حق مزاولتها نستدل علي ذلك من وثيقة من القرن الثاني قبـــل المـــيلاد تحدثنا عن شخص التزم ببيع اللحوم في قرية يوهمريا بالفيوم، وكـــذلك جمع الضرائب المفروضة علي تصدير الخنازير إلى هـــذه القريـــة دون إخطار الملتزم والاتفاق معه علي ذلك ويبدو أن هذا الاتفاق كان لتحقيق هدفين أحدهما تنظيم عملية تصدير الخنازير إلى هذه القرية والآخر هـــو تحديد قيمة هذه الصادرات لتقدير قيمة الضريبة المستحقة منها ونعـــرف كذلك أن الحكومة كانت تبيع لملتزمين حق بيع اللحوم المجففة والجبن .

الجلود

يبدو أن تجارة الجلود والمواد المصنوعة منها كانت حرة في ذلك الوقت علي الأقل بقدر ما كانت تجارة الأقمشة الصوفية في مصر حيـــث كانت الجلود لا تستعمل في صناعة الأحذية والحقائب فحسب بـــل وفـــي صناعة الوسائد وبعض الملابس ، ولا شك أن بعض أنواع الجلود الثمينة كانت تستحضر من الخارج فكانت تفرض عليها بطبيعة الحـــال مكوســـا جمركية .

ونجد إحدى الوثائق التي يرجع تاريخها إلى ٢٥٧ ق.م تحدثنا بأن شخصا مقيما في الإسكندرية طلب إلى زينون موافاته من منف بملابـــس العاب رياضية مصنوعة من جلد ماعز رقيق وبأنه تجبـــي عـــن هـــذه الملابس ضريبة خاصة بها .

واما عن الأسماك فكما يلي :

الأسماك

كان الملك يستخدم طريقتين لاستغلال مصايد الأســـماك أولهمـــا الفيوم باستخدام صيادين كانوا يأخذون مرتبا وجانبا من محصول صيدهم

ويبدو انه كان يقوم بتصريف نصيبه من هذه الأسماك موظفوه المشرفون علي دخله دون وساطة ملتزمين ويبدو أن هذه الأسماك كانت تأتي من الأماكن التي تصادفها إلى الأقاليم المجاورة فكان السمك يرسل من مصائده في الفيوم إلى المدن الكبيرة مثل منف والإسكندرية وقد فرضت ضرائب علي السمك الوارد إلى منف ليباع في أسواقها .

ويبدو من وثيقة هامة أن موظفي الملك هم الذين كان بمثابة تجار الجملة فقط واما تجار التجزئة فأغلب الظن انهم كانوا أفرادا عاديين يبيعون الأسماك للجمهور ويدفعون للملك نصيبا معينا من أرباحهم .

أما الطريقة الأخرى في استغلال المصايد فهي منح تراخيص للصيادين بمزاولة المهنة لقاء إعطاء الملك ربع دخلهم .

المأكولات

تحدثنا وثيقة من فيلادلفيا من القرن الثالث قبل الميلاد أن يبيع سلعة زهيدة شائعة مثل العدس المطهي لم يكن خاليا من أي قيد بل يبدو انه في كل قرية أو حي كان يستأجر شخص من الحكومة حق الاتجار في هذه السلعة بشرط إلا يبيع منها اقل من قدر معين كل شهر .

مجمل نظام التجارة الداخلية

إذا قلنا أن تجارة النبيذ والفاكهة واشجار الأهالي والحيوانات المستأنسة وتجارة جانب من الصوف الخام والكتان والحبوب الغذائية كانت حرة فإننا نقصد بذلك أنها لم تكن احتكارا حكوميا لكنه يحتمل أن لمزاولة ذلك كان يتعين علي الفرد الحصول علي ترخيص من الحكومة أو دفع ضريبة معينة ولعل الاتجار في هذه السلع كان اكثر حرية من الاتجار في السلع الأخرى فقد كان الملك يحتكر استخراج الزيت وبيعه واستخراج المعادن والملح وبيعها لتجار التجزئة كما كان يوجد ملتزمون لبيع أشجار الحكومة والورق الذي كانت تنتجه المصانع للأهالي في

القرن الثالث قبل الميلاد وكذلك مصانع الحكومة منذ القرن الثـــاني قبـــل الميلاد وان حق مزاولة بعض الحرف والصناعات كان يشمل كذلك حق بيع منتجاتها مثل صناعة الجعة والصناعات المعدنية والعســل وصـــيد الأسماك في كل أنحاء مصر ما عدا الفيوم والمنسوجات وورق المصانع الأهلية فيما عدا نصيب الملك من السلعتين الأخيرتين .

ويذهب روستوخيتزوف إلى حد القول بأنه لم يكن للتجارة الحرة وجود في مدن مصر وقراها إلا إذا استثنينا الإسكندرية لكن المؤرخ يرى أن الحكومة كانت تعتبر تجار التجزئة عملاءها الذين كانوا يســاعدونها علي بيع سلعها للأهالي ولذلك فإنها كانت تحدد أسعار البيـــع بالتجزئـــة وتمنح أرباب اغلب الحوانيت تراخيص لمزاولة البيع وتـــرغمهم علـــي إعطائها جانبا كبيرا من أرباحهم أما أن تجار التجزئـــة كـــانوا عمـــلاء الحكومة الذين يساعدونها علي بيع سلعها فهذا في رأينا لا ينطبق إلا علي المواد التي كانت الحكومة تحتكر صنعها وبيعها أو تحتم إعطاءها نصيبا معينا منها ، وذلك لان السلع المعروضة في الأسواق لم تكن كلهـــا وان كان في بعض الأحيان جعلها ملكا للحكومة مثل الحبوب الغذائية ، ومـــع ذلك فإننا نرجح انه كان يتعين علي كل أرباب الحوانيت الحصول علـــي تراخيص من الحكومة لمزاولة البيع ، واعطاء الحكومة جانبا كبيرا مـــن أرباحهم واما عن تحديد أسعار بيع السلع بالتجزئة فانه يجدر بنا أن نشير في الوثيقة التي تحوي تعليمات أحد وزراء المالية في القرن الثالث إلـــى الايقونوموس معناها أن وزير المالية كان يقسم السلع إلى قسمين :

أحدهما السلع التي كانت الحكومة تحدد أسعارها ويبدو أن هـــذه السلع كانت عبارة عن منتجات بعض الصناعات التي كانـــت الحكومـــة تحتكرها كلية أو جزئيا مثل الزيت والمنسوجات ومن المرجح أيضا الملح والمعادن والعطور والبخور .

والقسم الثاني فانه كان يشمل السلع التي كانت الحكومة لا تحـدد أسعارها مثل السلع التي كان يبيعها أولئك الذين ابتاعوا من الحكومة حق إنتاجها والسلع التي كان حق البيع وحده هو الذي يرخص به لقاء اجـر معين كبيع اللحوم وبيع العدس المطهي ولا شك في أن هؤلاء الملتزمين جميعا كانوا يحددون السعر وفقا لحالة السوق لكنه لكيلا يغالي التجار في أرباحهم طلب وزير المالية إلى وكلائه أن يحددوا لهم أرباحـا معقولـة ومعنى ذلك انه في حالة السلع التي كانت الحكومة لا تحـدد أسـعارها رسميا لم يكن الاتجار مطلقا ومحررا من كل قيد لان الأسـعار كانـت خاضعة لنوع من الإشراف ويبدو مما مر بنا أن موارد الحكومـة مـن التجارة الداخلية كانت علي خمسة أنواع هي : -

١- الأرباح التجارية التي كانت تجنيها من المواد والتي احتكرت صنعها وبيعها .
٢- الأجر الذي كانت تقتضيه نظير السماح بالتزام صنع وبيـع بعض السلع أو بيعها فقط .
٣- الضرائب التي كانت تحصلها من تجار التجزئة
٤- الضرائب التي كانت تفرضها علي الأهالي لقاء شراء سـلعة كانت تحتكر صنعها مثل الجعة أو استخراجها مثل الملح .
٥- المكوس المحلية التي كانت تجبي عند نقل السلع من مكـان لآخر.

المكوس والعوائد المحلية

يتبين مما لدينا من الوثائق انه كانت تجبي مكوس جمركية محلية عن البضائع المنقولة بالنيل من مديرية إلى أخرى وذلك فضلا عن جباية مكوس أخرى عنها من منف إذا مرت بهذه المدينة فـي طريقهـا إلـى وجهتها وانه كان لا يسمح بنقل البضائع بالنيل دون ترخيص رسمي بذلك

ومن الواضح أن معلوماتنا الحالية لا تكفي لأن تكون صورة كاملة عـن النظام الذي وضعه البطالمة للمكوس الجمركية المحلية .

النقل

يتصل النقل اتصالا وثيقا مباشرا بالتجارة الداخلية وما من شك أن عناية البطالمة بالتقدم الاقتصادي قد عدت بهم إلى الاهتمام بالدواب التي تستخدم في النقل البري وكذلك السفن للنقل النهري خاصة لنقل كمية هائلة من الحبوب وغيرها من المحاصيل من أماكن إنتاجها إلى الأقاليم الأخرى التي تنقصها هذه المحاصيل وكان كل ذلك يتطلب أعداداً كبيرة من دواب النقل وسائقيها وكذلك السفن الكبيرة والصغيرة وما يلزمها من الملاحين.

لكن لم يكن النقل عملا محتكرا من الدولة ، حقيقـة كـان لهـا مراكبها ودوابها الخاصة ولكن هذا لم يكن كافيا لاحتياجاتها لذلك تم تعبئة سائقي الحمير وملاك السفن في كل الدولة .

وقد حدثتنا الوثائق عن وجود طريقين للنقل إحداهما طريق بري يربط كل من فلادلفيا ومنف ببعضهما والآخر طريـق نهـري يربطهـا بالإسكندرية .

النقل البري :

أما عن النقل البري كان يستخدم فيـه الجمـال والحميـر لنقـل البضائع والمحاصيل من منف إلى فيلادلفيا والعكس ومع هـذا فـنحن لا نعرف معلومات كافية عن النظام الخاص بالنقل البري إلا انه من المحتمل أن تعاقدا كان يتم مع عدد من سائقي الحمير والجمال وتعبئتهم فـي كـل مدينة وحصر عدد سائقي الحمير وتسجيل أسمائهم في سجلات الحكومـة وكانت الدولة تتعاقد معهم أو مع نقاباتهم التي انتظموا فيها وذلك لضمان سير النقل البري بشكل منتظم فلا يؤدي إلى أضرار اقتصادية منها مثـل فساد الموصول في أماكن إنتاجه قبل وصوله لاماكن استهلاكه .

النقل النهري : -

أما عن النظام الخاص بالنقل النهري فتحدثنا الوثائق عن طريق نهري يربط منف بالإسكندرية مما يؤدي إلى زيادة الترابط الاقتصادي بينهما كما جاء في نص ثان انه يتم نقل الحبوب من الإسكندرية إلى منف.

وهناك وثيقة علي جانب كبير من الأهمية لأنها توضح وجود وكالة للنقل النهري في منف تاريخها يرجع إلى أواخر عصر البطالمة نستخلص منها أنها تشير إلى تعدد الأجناس العاملة في وكالة النقل النهري وتشير أيضا إلى التنظيم الدقيق في النقل النهري .

ومن البرديات العامة التي حدثتنا عن النقل النهري وثيقة يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ونستخلص منها عدة أشياء :

أولها أن منف كانت مركزا للحراسة النهرية ومقرا للمفتشين لمراقبة شحن المراكب ولكن يبدو أن هدف هؤلاء المفتشين لم يكن فقط لمراقبة شحن المراكب وانما كان يدخل في نطاق عملهم تحصيل المكوس المحلية علي البضائع الصادرة من منف أو الواردة إليها أو لعل هذا المركز كان يضم مكاتب لتفتيش المراكب ومكاتب أخرى لتحصيل المكوس المحلية .

وتحدثنا وثيقة أخرى عن رسوم النقل النهري جاء بها أن لكل مائة إردباً كان يدفع عليها نولون في منف يقدر بمبلغ ٤٥ درخمة نحاسية و ٤ درخمات فضية ومن البرديات الطريفة التي حدثتنا عن تكاليف النقل النهري بردية مؤرخة سنة ٢٤٨ ق.م جاء بها أن بارس قبطان مركب ملك زينون كان يقوم بنقل البضائع ويطلب من زينون ثلث أرباح المركب ولعله وجد أن أرباح زينون وفيرة لذلك طلب المشاركة في نصف الأرباح والطريف هنا أن عملية مقايضة علي الأرباح كانت تتم بين مالك السفينة وقبطانها .

وقد كان لدى البطالمة دواب متعددة الأنواع وسفن مختلفة الأحجام وكان لدى الأفراد أيضا مختلف وسائل النقل البرية والمائية وكان من المحتمل انه في الأوقات العادية كانت الحكومة تتعاقد مع عدد ممن كانوا يحترفون مهنة النقل بالبر أو بالنيل للعمل في خدمتها أو في أوقات الضرورة أي في الحرب مثلا وكل عام في وقت المحصول أيضا فانه من المحتمل انه في مثل هذه الأوقات كان البطالمة يستعملون إلى أقصى حد حق الحكومة الخالد في تسخير كل ما كان يلزمهم من الرجال والدواب والسفن لسد حاجتها .

وإذا كانت مهنة النقل لم تقيد تقييدا كاملا علي نحو غيرها من المهن والحرف فانه كانت تفرض ضرائب علي دواب النقل وكذلك كانت تجبي ضرائب مختلفة من محترفي النقل البري ومحترفي النقل المائي .

استعراض الحالة الاقتصادية في عهد البطالمة المتأخرين

لقد وضحت لنا الوثائق البردية أن الحكم البطلمي قد عاد علي منف في أول عهده بتقدم عظيم في مجال النشاط الاقتصادي فقد أتى هذا الحكم بنظم جديدة في مجال الزراعة والتي أدت إلى انتعاش في الزراعة والمحاصيل الزراعية ولقيت الصناعة تشجيعا كبيرا وراجت التجارة فان البطالمة الأوائل بوجه خاص لم يدخروا وسعا في مجهوداتهم لتقدم المرافق الاقتصادية للمدينة ولكن لم يقدر لهذا التقدم الاستمرار وانما بدأ الاضمحلال التدريجي مع ظهور فترة الحروب والفتن الداخلية من تاريخ مصر .

الحواشي علي الفصل الأول
مصر في العصر البطلمي

١- مصطفي العبادي ، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٧

2- Pendlebury J.D., Aegyptiaca , A catalogue of Egyptian objects in the Aegean area , 1930, Cambridge PP. XVII FF., Cat., PP. 6-40

3- Bissing F.W. , Zeitumd Herkumftder in Gerveteri gefundenen Gefasse due agyptischer fayence und glassier ton , 1941, pp. 4, 30.

4- Cook R.M., Amasis and the Greeks in Egypt , J.H.S. , 1936, p. 227ff .

٥- إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، القاهرة ، الجزء الأول ، ص ٢٢.

6- Cloche P. la Dislocation d'un Empire , Paris , 1959, PP. 45 ff.

7- Tarn W.W., Hellenistic Civilization , Thirdedition , 1952, PP. 5ff.; cloche P., op. cit. p. 47.

٨- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ٣٣.

9- Cloche P. op. cit. , pp. 141 ff.

10- Welles C.B. , Royal Correspondence in the Hellenistic, no. 1.

11- Appien , syriaca , 55.

12- Diod., XXI . 1.5.

13- Touguetp., Imperialisme Macedouien ,p. 332, ff

14- Bell H.I. , Egypt from Alexander the great to the Arab conquest , 1948, P. 51.

١٥- إبراهيم نصحي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٨٥-٢٠٧.

16- Bevan E. , Ahistory of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, 1927, PP. 41 ff .

17- Bell H.I. , Cults and Creeds in Greco – Roman Egypt , 1953, PP. 22-24.

18- Bevane E., Op. cit., P. 47.

١٩- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ٥٥

٢٠- نفس المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١١٣.

٢١- عبد اللطيف أحمد علي ، مصــر والامبراطوريــة الرومانيــة ، القاهرة ، ص ١ ، ٢ .

22- Elgood P.C. , The ptolemis of Egypt , PP. 44 ff .
23- Bevan E., op. cit., P. 58.
24- Bell H.I., Op. cit., P. 23.
25- Bevan E., op. cit., P, 197.

٢٦- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ٦٦-٦٧.

27- Bevan E., op. cit., p. 208 ff

٢٨- مصطفي العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ٦٩-٧٠.

29- Bevan E., op. cit., P. 214
30- Wablank F.W., Ahistorical commentary on polybius , 1957, Oxford, PP. 20-28.

٣١- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ٧٢.

32- Polyb . V., 107
33- Polyb. V., 107 . 2-4; XIV. 12
34- Skeat T.C., The Reigns of the ptolemies , 1954, P. 32.
35- Polyb., XV. 25, 3-11.

٣٦- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ٧٩.

37- Sottas ., & Gauthier H., Un decret trilingue en l'honneur de ptolemee IV (V)., Bevan E., op. cit.,pp. 263 ff.

٣٨- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ٨٥ انظر أيضا : إبراهيم نصحي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٥٧.
Bevan E., Op. cit., PP. 283 ff .

٣٩- وانظر أيضا إبراهيم نصحي ، نفس المرجع السابق ص ١٩٠ .
Polyb., XXIX. 27

٤٠- عبد اللطيف احمد علي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠.

٤١- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ٨٩-٩٠

42- Weigall A., The life and times of Cleopatra, Queen of Egypt , 1926

وأنظر أيضا : زكي علي . كليوباتره ، سيرتها وحكم التاريخ عليهـــا ، القاهرة .

43- Volkmann H. : Cleopatra A study in polities and propaganda , 1953

٤٤- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠٠.

45- Caesas , Bell . Civ, III 110-111.

٤٦- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠٤

47- Josephus , Bell . Jud. 11. 16. 4.

48- Diod., XVII. 52. 6.

49- Rostovzeff M., Social and Economic History of the Hellenistic world , PP. 261-267.

٥٠- مصطفى العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص ١١٠

51- Rostovzeff M., op. cit., P. 324.

52- Tcherikoxer V., and Fuks A., corpus papyrorum Judainrum , 2 vols , (1957 and 1960)

53- Herodotus, 11. 164.

الفصل الثاني

مصر في العصر الروماني

القرن الأول والثاني من الحكم الروماني في مصر

(أ) في ظل حكم الإمبراطور أغسطس ٣٠ ق.م : ١٤ م

١- بعد موت انطونيوس وكليوباترا بعد هزيمتهما في موقعة اكتيوم ٣١ ق.م حظى أغسطس باعتراف مباشر به كخليفة له حكم مصر وقد أوكل إلى واليه في مصر معظم العمل المتصل بتنظيم هذه الولاية وكانت الإجراءات الوحيدة التي تولاها التوجيه الشخصي هي تلك المتصلة بمنطقة الدلتا .

وكان أهم هذه الإجراءات هو تأمين الإسكندرية ولذلك أقام معسكر جديدا في نيكربوليس (أبى قير) وجعل به فرقة رومانية و كان السبب في ذلك يرجع إلى أن سجل الإسكندرية تحت حكم البطالمة المتأخرين اظهر لأغسطس بما لا يدعو مجالا للشك أنها اخطر بؤرة للقلائل والاضطرابات في الجزء السفلي من مصر وان هناك حالة للاحتفاظ بالقوة الأساسية لإرهاب السكان ويقال انه خطط لنقل كرسي الحكم والاحتفالات الدينية الرسمية إلى نيكربوليس ، ولكنه إذا كان قد فكر في ذلك فانه لم ينفذه بالفعل فيما يتصل لإدارة الدولة حيث لم تكن نيكربوليس في الواقع اكثر من مدينة تضم حامية عسكرية أما المكاتب والخدمة المدنية والسلطات الدينية فقد ظلت في الإسكندرية .

ولكن السياسة العامة التي تبناها نحو المدينة الرئيسية في مصر توضح انه حرم سكانها من الإغريق من مجلس البولي الخاص بهم وعلي الرغم من انه سمح باستمرار العديد من الوظائف الشرفية مثل رئاسة الجمنازيوم فان المهمة الأساسية لشاغل تلك الوظائف كانت إنفاق الأموال لامتاع مواطنيهم من الإغريق والتمتع بوضع شكلي طيب بينما لم تكن لهم سلطات إدارية عامة وقد كانت هذه الضربة موجهة لمكاسب الإغريق أثارت قدراً كبيراً من الإستياء والأكثر من هذا انه جدد لليهود " المنافسين

التقليديين للسكندريين علي الدوام " حقوقهم وامتيازاتهم التي تمتعوا بهـــا تحت حكم البطالمة والتي تضمنت تنظيم أمورهم من خلال موظف مـــن بينهم يطلق عليه الاثنارخوس ومجلس من شيوخهم وقد منح أغســطس هذا الفضل لليهود وانتزعه من بين أنياب إغريق الإسكندرية الذين قدموا طلبا يوصون فيه مطلب اليهود .

ويبدو واضحا أن أغسطس لم يكن لديه أي نية إقامة حكمه فـــي مصر علي النوايا الحسنة تجاه العناصر الإغريقية مـــن الســكان وكـــان يفضل معاملتهم كعنصر مغلوب وليس كطبقة حاكمة لها وضعها المتميز بين السكان (١) .

٢- كان من الطبيعي أن ينجذب اتجاه الرومان منذ وقت مبكـــر ومنذ فتحهم لمصر علي الاستيلاء علي ممفيس عسكريا باعتبارها مفتـــاح الاتصالات بمنطقة مصر السفلي وربما اشرف أغسطس علي ذلك بنفسه حيث سجل انه زار ممفيس قبل رحيله إلى سوريا ومـــن المعـــروف أن الطريق البري بين إسكندرية وسوريا يمر بشمال الدلتا ومعنـــى ذلـــك أن ذهابه إلى ممفيس وتوقفه هناك لم يكن له من سبب إلا اتخاذ الإجـــراءات القانونية لاحكام قبضته علي البلاد وبعد سنوات قليلة من فتح أغســطس لمصر يورد سترابون أن فرقة رومانية قد أقامت في ممفيس (٢) .

٣- لم يقترن إخضاع مصر السفلي للحكم الروماني بإخضـــاع جنوب مصر وكانت مقاطعات مصر العليا في سنوات طويلة فـــي حالـــة تمرد وثورة شبه مستمرة ضد الحكم البطلمي ولم تكـــن تلـــك المنـــاطق الجنوبية من مصر لا تقبل إمبراطوراً رومانيا تماما كما رفضت لملـــوك البطالمة من قبل ولذلك كان من أول المهـــام التـــي آلـــت إلـــى الـــوالي كورنيليوس جالوس أول الولاة الرومان في مصر والذي كلفه أغســطس لهذه المسئولية هو قمع هذه القلائل والاضطرابات الداخلية ولذلك فانه بعد

أن سحق بسرعة تمرد في هيروبوليس " وهي مدينة لها بعض الاهمية العسكرية " وتقع في الطريق إلى فلسطين " علما بأن ثورة انتشرت على نطاق واسع في الإقليم الطيبي بسبب وصول جباة الضرائب الرومان فأرسل إليهم قواته لقمع ثورتهم سنة ٢٩ ق.م سرعان ما أدرك المصريون أن القوات الرومانية شديدة البأس وإنها أداة لحكم اكثر صلابة من القوات البطلمية وتم سحق المتمردين في ١٥ يوم في معركتين ضاريتين وتم إخضاع خمس مدن تتكون منها الإقليم الطيبي . ثم صار الوالي إلى مدينة Syene (أسوان) وفي جزيرة فيلاي (الفيلة) التقى برسل من حكام الاثيوبيين في مدينة، وتوصل الوالي الروماني إلى اتفاق مع هؤلاء السفراء تصبح بمقتضاه منطقة ما بعد الشلال الأول محمية الرومانية بصورة ما ولكن يظل حكمها في أيدي الأثيوبيين . (٣)

٤- يبدو أن هذا الفتح السهل للبلاد قد أدار رأس الوالي كورنليوس جالوس حيث قال انه أمر بإقامة تماثيل له تكريما له وان تكتب وتعلق النقوش بتكريمه علي المباني العامة وبذلك أثار امتعاض الإمبراطور أغسطس .

وهناك مثال للنقوش التي كتبت لتكريمه عثر عليها في جزيرة فيلاي وهذا النقش لا يوحي بأي شكل في ولائه للإمبراطور علي الرغم من لهجة المتباهية الفاخورة ، ولكن من المحتمل أن الإمبراطور قد رغب في أن يؤكد حكم الفردي بمصر فاستدعى واليه المغرور فانتحركورنيليوس جالوس (٤) .

٥- لم تكن علاقات مصر الرومانية مع جيرانها علي الحدود الجنوبية والجنوبية الشرقية قد استقرت بصورة مرضية وأرسل الوالي ايليوس جالوس إلى مصر سنة ٢٧ ق.م وعلي عاتقه مهمة خاصة تتمثل

في اخضاع القبائل علي جانبي البحر الأحمر وكــذلك الأثيــوبيين فـــي الجنوب أو التوصل إلى اتفاق معقول .

ولذلك خطط ايليوس جالوس بحملة علي شبه الجزيـــرة العربيـــة وحشد قوة مكونة من عشرة آلاف رجل يتألفون من القوات الرومانية في مصر والقوات الحليفة لها وكان من بينها ٥٠٠ من اليهود ربما ارســـلهم هيرود (إلى فلسطين) و ١٠٠٠ من الأنباط تحت قيادة سيليوس الوزير الأكبر للملك النبطي الموالي للرومان اوبــوداس وكانـــت هـــذه الحملـــة واعدادها سئ منذ البداية " فقد جهز أسطول عند رأس خلـــيج الســـويس لخوض حرب بحرية ، ويبدو أن القادة الرومان كانوا يجهلون حقيقة انـــه لم تكون هناك مقاومة بحرية للعرب ولكن حين اكتشف هذا الخطأ كانـــت هذه القوات قد انتقلت إلى الساحل الانباطي في رحلة استمرت ١٥ يـــوم وفقدت في الطريق عددا من السفن وانتشر المرض بين الجنود وقضـــت الحملة الشتاء في مملكة الانباط وفي الربيع تحركت برا بمحاذاة ســـاحل البحر الأحمر الشرقي إلى حدود مملكة سبأ .

وعلي الرغم من أن الحملة لم تواجه مقاومة منظمة ولـــم تجـــد صعوبة في تفريق القوات العربية ذات التسليح المتواضع وفي الاســـتيلاء علي عدد من المدن فان هذه الحملة اضطرت بعد وصولها إلـــى مـــأرب عاصمة سبأ بعد ٦ اشهر إلى التخلي عن محاولة إخضاع مأرب بعـــد أن استمر حصارها ٦ أيام وقد انسحبت الحملة إلى ميناء Egra ايجرا علـــي الحدود النباطية ومنها عبرت بقايا الجيش من البحر الأحمر إلـــى مينـــاء Myos Hormos وعادت إلى الإسكندرية لاستخدام الطريق من صحراء مصر الشرقية إلى قفط ثم عبر النيل شمالا إلى الإسكندرية [٥] .

٦- تكبد الرومان من هذه الحملة خسائر جسيمة يرجع سببها في معظمها إلى المرض ونقص إمدادات خلال الرحلة البرية الطويلة . ومن

الواقع أن جالوس لم يحصل علي معلومات كافية عن تلك البلاد التي كان بصدد غزوها حيث لم يكن من الصعب أن يعلم من التجار اقصر الطرق إلى جنوب شبه جزيرة العرب أما عن طريـــق مينـــاء Myos Hormos وهو الطريق الذي سلكته الحملة عن طريق مينـــاء بيرنيكـــي Berenice لتجنب الرحلة الصعبة بمحاذاة البحر الأحمر إلى الجنوب لعبور الصحراء العربية علي الساحل .

وقد ألقيت مسئولية فشل هذه المغامرة علي سيليوس القائد النباطي حيث اخذ إلى روما ونفذ فيه حكم الإعدام ، ولكن من ا لمحتمل أن يكون سبب فشل هذه الحملة إلى عدم كفاءة ايليوس جالوس حيث نجد انه استبعد من منصبه بعد فشل هذه الحملة .

٧- كانت هناك بعض المكاسب غير المباشرة رغم ما ســـبق أن ذكرناه من الحملة شبه الجزيرة العربية معرفة الملاحة البحرية في البحر الأحمر التي كسبها الاسطول وهي معرفة كانت صالحة للتجار الرومـــان كما أن القبائل علي ساحل البحر الأحمر أصبحت تدرك قـــوة الجيـــوش الرومانية علي الرغم من أن هذه القبائل لـــم تخضـــع خضـــوعا نهائيـــا للرومان.

كذلك فقد بدأت التجارة الشرقية تتحول إلى موانئ غرب البحـــر الأحمر (ساحل مصر علي البحر الأحمر من المـــوانئ الواقعـــة علـــي سواحله الشرقية) ، كانت طريق المنتظم الذي سلكته هذه التجارة يمتد من ميناء ميوس هورمس إلى قفط علي النيل ثم شمالا إلى الإسكندرية .

٨- كان لغياب ايليوس جالوس وجزء من الحامية الرومانية في مصر في شبه الجزيرة العربية اثره في تشجيع الاثيوبيين علـــي خـــرق الاتفاقيات التي أبرمها معها كورنيلوس جالوس وحشدوا ٣٠٠٠٠ رجـــل مسلحين تسليحا ضعيفا تمكنوا في سنة ٢٥ ق.م مـــن الاســـتيلاء علـــي

Syene (أسوان) وافنتين وفيلاي وهزموا ثلاثة كتائب رومانية كانــت مقيمة في تلك المنطقة . ولكن الوالي الجديد بترونيوس حشد قوة قوامهــا ١٠٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠ من الفرسان وطرد الأثيوبيين حتــى منطقــة بسيلكيس Pselkis وهناك امضيا الطرفان ثلاثة أيام في مفوضات عقيمة وفي نهايتها هاجموا الرومان وهزموهم واجتاحوا بسيلكيس ثم بريميس ثم العاصمة نباتا علي التوالي .

ثم أرسلت كنداكي Kandaki ملكة الأثيــوبيين تطلــب الســلام وسلمت الأسرى والغنائم التي غنمتها في Syene ، ووردا بترونيوس أن ليس من الحكمة أن يتوغل في البلاد اكثر من ذلك فعاد إلى الإســكندرية تاركا حامية من ٤٠٠ رجل قامت لمدة عامين في بريميس . [٦]

وفي نهاية العامين استدعي بترونيوس ثانية إلى الجنــوب حــين وصلته الأنباء عن حصار الملكة كنداكي لحمايته بقوة كبيرة فأسرع إلــى مملكتهم وفك الحصار عنهم ، وحــين عرضــت الملكــة العــودة إلــى المفاوضات مرة أخرى أمرها بأن تتصل بالإمبراطور مباشــرة وكانــت نتيجة اتصال الملكة بالإمبراطور أغسطس أن انسحبت القوات الرومانية في الجزء الشمالي من تلك المنطقة التي جعلت منطقة عسكرية فاصلة بها مجموعة محطات مقاربة بمحاذاة نهر النيل كان ذلك ٢١ ق.م أمــا فيمــا يتعلق بالأمور المدنية فكانت تعتمد علي السلطات الرومانية الموجودة في جنوب حدود مصر .

وبعد سنوات قليلة ذهبت بعثة من مصر سنة ١٣ ق.م إلى مملكة الأثيوبيين وتركت سجلا لهذه الزيارة في بسيلكيس Pselkis في طريــق عودتها ، وبخلاف ذلك لم نسمع شيئا عن الأثيوبيين بعد حملة بترونيوس ويبدو أن علاقتهم مع روما أصبحت علاقة سلمية بصفة عامة . [٧]

٩- نفذ بترونيوس أعمال هامة في تنظيم أمور مصر واستقر السكان بصفة عامة تحت الحكم الجديد .

فقد كان عليه أن يعالج تمردا قام في الإسكندرية تلك المدينة المضطربة وقمعها بسهولة .

وفي ظل حكم بترونيوس أحس المزارعون بالرضا عن الإدارة الرومانية لان هذا الوالي اشرف علي تطهير قنوات الري التي سددت خلال حكم البطالمة المتأخرين لدرجة أن تناقصت معها مساحة الأراضي الزراعية بصورة خطيرة .

وقد تم تنفيذ تطهير هذه القنوات بنجاح كبير حتى أن الفيضان الذي يبلغ ارتفاعه ١٢ ذراع في ممفيس اصبح يجلب علي البلاد خيرات زراعية اكثر من الفيضان الذي يبلغ ارتفاعه ١٤ ذراعا أيام البطالمة المتأخرين .

١٠- كان من بين ما فعله بترونيوس أيضا أن صادر ممتلكات المعابد المصرية إلى خزانة الدولة .

وكانت ممتلكات هذه المعابد وقواتها قد ازدادت بشكل ملحوظ في ظل حكم البطالمة المتأخرين أضعاف بعد أن كان البطالمة الأوائل الأقوياء قد نظموا أمورها تنظيما دقيقا .

وكان أغسطس يدرك مدى أهمية إخضاع هذه البؤرة التي تشعل الحماس الوطني والإحساس القومي عن طريق إضعافها ، ولذا قد ألحقت أراضى زراعية التابعة للمعابد بأراضي الدولة حوالي سنة ٢٠ ، ١٩ ق.م وقد سمح لبعض الكهنة بالاستمرار في زراعة الأرض التي كانت تابعة للمعابد .

علي أن يدفعوا إيجاراً منخفضاً نسبياً إلى الدولة في حين أعطيت معابد أخرى إعانات عينية ولم تستمر في زراعة الأراضي حيث صادرت هذه الأرض وأعطيت لمزارعين آخرين .

وعهد تنظيم أمور المعابد المحلية كلية إلى موظف يطلق عليه الايديولوجوس وهو موظف مختص بالأمور المالية في مصر الرومانية وكان يحمل أيضا لقب الكاهن الأكبر للإسكندرية ومصر كلها ولكن علي الرغم من أن أغسطس قد حشد قوه الكهنة فانه لم يتدخل في العبادات والطقوس المحلية بل بني في عهده قدرا كبيرا من المعابد الكبرى في مصر العليا .

١١- هناك قائمة طويلة من المباني والأنشطة العامة أقيمت تحت حكم الإمبراطور أغسطس خصوصا إذا أخذنا في الاعتبار المنشئات العسكرية والأعمال المدنية مثل إقامة معسكر في نيوكربوليس واصلاح المعسكر الذي كان قائما في قفط واصلاح صهاريج المياه في الطريق المؤدي إلى البحر الأحمر وشق قناة وتسمى قناة شيديا إلى الإسكندرية هذه فقط هي الأعمال التي وصلتنا معلومات عنها خلال أعمال كثيرة تمت في تلك الفترة ولم تصلنا معلومات أخرى عنه [٨] .

٢- الإمبراطور تيبريويس ١٤ : ٣٧ م

١- في خلال الجزء الأخير من حكم الإمبراطور أغسطس ومعظم فترة حكم الإمبراطور تيبريوس ظلت مصر في حالة هدوء نسبيا حتى انه في سنة ١٠ من حكم تيبريوس انخفض عدد الفرق الرومانية التي كانت تشكل القوة الأساسية للحامية الرومانية في مصر من ثلاث فرق إلى فرقتين .

وكان للرقابة الصارمة التي فرضها الإمبراطور تيبريوس علي واليته فيما يتصلوا بمصالح السكان في هذه الولايات كان لها أثرها علي

المحافظة علي هذا الهدوء وذلك من خلال ضـــبط تجـــاوزات وتعســـف الموظفين التي قد ينتج عنها قلائل واضطرابات من جانب الشعب .

ومن الامثلة علي ذلك انه وبخ أحد والية في مصر عندما أرسل هذا الأخير إلى روما مقدارا من الضريبة اكثر من الضريبة المحددة لأنه قام بسلخ الماشية بدلا من جزها علي حد تعبير الإمبراطور (٩) .

وفي خلال فترة حكمه أيضا حدث لأول مرة جبايـــة الضـــرائب بشكل مباشر عن طريق جباة ضرائب معينين بدلا من النظام القديم الذي كان يعتمد علي نظام الالتزام في جباية الضرائب .

٢- كما تظهر نفس هذه الصرامة والشدة أيضـــا فـــي تعنيفـــه وتوبيخه لجرمانيكوس قيصر الذي بعث به تيبريوس حاكما للشرق فانتهز الفرصة وزار مصر في جولة سياحية بين آثارها القديمة وصعد في النيل حتى أسوان دون أن يحصل علي إذن مسبق من الإمبراطور وبذلك خطى القانون الذي وصفه الإمبراطور أغسطس من هذا الشأن والذي كان يحظر علي أي مواطن روماني من طبقة السيناتو أن يدخل الإسكندرية بغير إذن منه شخصيا (١٠) .

ويقال أيضا أن الإمبراطور تيبريوس قد اخذ علي عاتقه أن يفتح مخازن البلاد العامة إذا شحت الحبوب وكان يسمح ببيع الحبوب المخزونة فيها وهكذا يحافظ علي أسعار الحبوب كما هي بغير ارتفاعه .

ويروى أيضا انه كان يسير بين الناس في ملابس إغريقية وبدون حراسة ويبدو حقيقة انه حاول أن يمنع أي سبب مـــن أســـباب انتهـــاك القوانين وذلك بإصدار مراسيم يطلب فيها من المصريين إلا يعاملوه بتملق ونفاق زائد ويمنع فيها تكليف السكان إجبارياً بتســـليم الـــدواب والمـــؤن لاستخدامها بلا مقابل في مناسبة زيارة الإمبراطور ، ولكن من المحتمـــل أن هذه التوجيهات قد أغفلها الناس وهناك قرائن تفيد بأن الموظفين فـــي

طيبة كانوا يفرضون مساهمات عينية من الحبوب استعدادا لقدوم الإمبراطور .

وقد زار الإمبراطور تيبريوس مصر ولكنه وجه تعنيفا قاسيا إلى الموظفين عن هذه التصرفات (١١) .

٣- أن إعادة إصدار العملة الفضية مرة أخرى في الإسكندرية في عهد تيبريوس يمكن أن تأخذ كدليل علي أن مصر كانت في حالة رخاء تزايد في عصره .

وفي ظل حكم البطالمة المتأخرين أغرقت الإسكندرية بكميات كبيرة من عملة أربع درخمات الفضية المنخفضة القيمة والتي كانت قيمتها في حال تذبذب مستمر ارتفاعا وانخفاضا أمام العملة النحاسية .

وقد أوقف أغسطس إصدارها هذه العملة وأمر بإصدار كميات محدودة من العملة النحاسية ربما لغرض تثبيت سعر أو قيمة العملة ،

وفي العام السابع من حكم تيبريوس ظهرت تترادراخمة من جديد من دار سك النقود بالإسكندرية ، وكانت قيمتها لا تزال منخفضة نسبيا ولكن مقدار ما تحتويه من الفضة كان محددا بما يساوي الديناريوس الروماني الذي يعادل تترادراخمة وكان ذلك لأغراض إكساب العملة الذي ظل ثابتا بصورة معقولة بما يزيد عن القرن ، وفي الوقت ذاته تضاءل إصدار العملة النحاسية (١٢) .

٤- في قرب نهاية حكم تيبريوس كان هناك خوفا من إضرابات جديدة في مصر وهذا الخوف يمكن أن نستشعره في مرسوم أصدره الوالي افليوس فلاكوس حرم فيه حمل السلاح وان ما يخالف ذلك سيكون جزاءه الإعدام .

ويبدو أن في أعقاب صدور هذا المرسوم كانت هناك حملات بحثا عن السلاح في مناطق مختلفة من مصر وعثر علي كميات كبيرة

من الاسلحة كما يروى فيلون وهذه الإجراءات من جانب فيلاكوس الذي يبدو انه حكم مصر بعدالة وحزم منعت تفجر أي أعمال خطيرة حتى وفاة تيبريوس .

الإمبراطور كاليجولا ٣٧ : ٤١م

١- عندما ارتقي الإمبراطور كاليجولا عرش الإمبراطورية فان نتائج ضعف السلطة المركزية للامبراطورية سرعان ما وضحت في الإسكندرية حيث اشتعلت العداوة القديمة الكامنة بين الإغريق السكندريين ويهود الإسكندرية .

وكانت إشارة تفجر هذه العداوة هي وصول أجريبا Agrippa إلى الإسكندرية في طريقه لتقلد أمور المملكة التي عين حاكما لها بحكم صداقته للإمبراطور .

أن رواية اليهود لما أعقب ذلك كما يرويها فيلون وجوزيفوس تلقى اللوم كاملا بطبيعة الحال علي الإغريق ، لكن يلاحظ أن زيارات اجريبا وولده إلى الإسكندرية كانت دائما تتزامن مع أحداث الشغب .

كان هذا الملك المعين حديثا معروفا جيدا لدى المرابيين السكندريين وكان في صعوده المفاجئ من الإفلاس إلى العرش مما أتاح الفرصة للغوغاء أن يتنكروا به فكانوا يلبسون أحد المعتوهين تاجا ورقيا ويقودوه في طرقات الإسكندرية مستهزئين بالملك الجديد المحدث النعمة.

وقد بدأت الاضطرابات عندما تأكد الإغريق من أن اجريبا سوف يعرض قضية اليهود أمام صديقه الإمبراطور كاليجولا فبدوا يحاولون إيجاد تبرير لأفعالهم وكان هذا التبرير هو أن اليهود قد اغفلوا أمر الإمبراطور باقامة تماثيل له في كل المعابد وان يدخلوا المعابد اليهودية بغرض اقامة هذه التماثيل فيها .

وبهذه الحيلة السياسية استمال السكندريون الوالي فلاكــوس إلـــى جانبهم وحرضوه علي أن يسحب من اليهود امتيازاتهم الخاصة وان يجلد ٣٨ من شيوخهم أمام الناس وفي الوقت ذاته نهب السكندريون عددا مـــن اليهود وقتلوا بعضا منهم (١٣) .

٢- كان الوالي فلاكوس يتصدي لليهود دائمـــا ويمـــنعهم مـــن عرض شكواهم علي الإمبراطور إلى أن تكفل اجريبـــا قضـــية اليهـــود وأخذها علي عاتقه .

وقد كان لاجريبا من النفوذ مما مكنه من إلصـــاق تهـــم والعـــار بفلاكوس وعزله من ولاية مصر وكانت الحجة الزائفة لهذا العزل تتمثل في أنه لم يتمكن من ا لمحافظة علي السلام في ولايته وانه تجاوز سلطاته حينما حرم اليهود من امتيازاتهم هذا علي الرغم من أن هذه الحجج ليس لها وزن كبير لدى الإمبراطور كاليجولا في الحكم الفعلي في هذه القضية لان أعمال الشغب قد نشبت بسبب مسألة تأليه الإمبراطور وان اليهود قد عوقبوا بسبب معارضتهم لرغبات الإمبراطور .

ومما اضعف الموقف فلاكوس أيضا نفور السكندريون الإغريـــق منه علي الرغم من أن ثلاثة من زعماء الســـكندريين وهـــم ديانســـيوس ولامبون وايزدورس كانوا من اكبر المحرضين له علي فعله مع اليهود.

وكان السبب بعد السكندريين عنه وان ايزدورس لم ينل ما كـــان يأمله من نفوذ بسياسته المعادية لليهود وللسامية . فآثار مظـــاهرة ضـــد الوالي في الجمنازيوم وفرا هاربا بعد ذلك وهناك بعض شذرات برديـــة التي ترجع إلى تلك الفترة وتعبر عن وجهة نظر السكندريين ويبـــدو أن بعض هذه الشذرات أن ديانسيوس أيضا كان متورطا في بعض الدسائس الغامضة ضد فلاكوس (١٤) .

٣- تدل الاحتياطات التي اتخذت منذ رحيل فلاكوس إلى روما علي مدى قوة مركز الوالي في مصر بمقدار أرسل أحد كبار الضباط الرومان خصيصا من روما وبرفقته كتيبة من الجنود حينما اقترب من الإسكندرية انتظر حتى حل الظلام ثم دخل إلى الميناء واسرع بعد ذلك وفاجأ الوالي قبل أن تصله انباء عن وصول السفينة الرومانية والقي القبض عليه وهو يتناول الطعام في حفل عشاء وعاد به إلى السفينة علي وجه السرعة .

٤- نجح اجريبا في إلحاق الخزي والعار بفلاكوس ولكنه لم يتمكن من توفير المناخ الملائم لسماع السفارة التي بعث بها اليهود إلى روما لعرض قضيتهم أمام الإمبراطور كاليجولا .

وقد كان علي راس هذه السفارة اليهودية الفيلسوف اليهودي فيلون وكانت هناك في المقابل سفارة تمثل إغريق الإسكندرية كان علي رأسها أحد زعمائهم ويسمى ابليون .

وقد اجهد الجانبان أنفسهما في جري وراء الامبراطور في ارجاء القصر ومحاولة الحصول علي بعض الحجج أو التفسيرات وكان يحجم علي موضعهم في كثير من الاحيان بعض الأمور التافهة التي لا صلة لها بالموضوع والتي شغلت معظم اهتمام الإمبراطور واخيرا حين مدى من الأمر المحيط الذي له أهمية هو عبادة الإمبراطور .

فإن اليهود قد سرو حينما قادهم الإمبراطور وهو يظهر الشفقة الممزوجة بالاحتكار لهؤلاء الناس الذين لم يدركوا بعد انه إله (١٥) .

الامبراطور كلوديوس ٤١ : ٥٤ م

١- تجددت مرافعات الطرفين المتنازعين في الإسكندرية بعد ارتقاء الإمبراطور للعرش في روما في فترة وجيزة فقد ذهبت سفارة من إغريق الإسكندرية ليعرضوا نواياهم الحسنة وولائهم للبيت الإمبراطوري

ويسجلوا تقديرهم وتكريمهم للإمبراطور في أمور مثل إقامة تماثيــل لـــه والاحتفال بيوم مولده ، كما ترافعوا أيضاً مـــن اجــل تأكيـــد أو تجديـــد امتيازاتهم القديمة وانتهزوا الفرصة لعرض قضيتهم ضد اليهود أمامـــه ، ولكن علي الرغم من أن الإمبراطور قد قبل معظم مظاهر تكـــريم التـــي أعدوها له فيما عدا مسألة تأليه واكد بعض حقوقهم مثل حق المواطنة فانه لم يكن يميل إلى أن يأخذ جانب الإغريق في صراع القوميات بالإسكندرية ووجه خطابا قاسيا في طرفي النزاع ليكفوا عن الشقاق الذي قد يصل إلى درجة الحرق .

ويمكن أن نلاحظ نفوذ اجريبا في هذا الخطاب وقد نشر الـــوالي في الإسكندرية رسالة الامبراطورية في حينها ووصل الأمر أن اجريبا انه ظهر بين الناس وقرأ خطاب الامبراطور بينهم بصوت مرتفع وهكذا قام صراحة بدور زعيم اليهود ومحاميهم . (١٦)

٢- لم يكن لخطاب الامبراطور تأثير مستمر ودائم إذ سرعان ما تجددت هذه المنازعات في روما سنة ٥٣ م وفي هذه المرة كان اطـــراف النزاع والخصومة هم ازيدورس ولامبسون من الزعماء السابقين لاغريق الإسكندرية واجريبا الاصغر الذي صار حينئذ ملكا علي بلقـــيس ممـــثلا لليهود .

وقد عرض ازيدورس قضيته ضد أجريبـــا أمـــام محكمـــة مـــن الإمبراطور وحوالي ٢٤ عضواً من أعضاء السيناتو وقد وصـــل إلينـــا تقرير الدعوة التي رفعها ازيدورس في صورة شذرات لا نستطيع منها أن نحدد طبيعة هذه الشكوى .

ولكن يبدو أن كلوديوس قد أعلن عن صداقته لاجريبا وانحيازه له بشكل قاطع و كان من نتيجة ذلك أن انحدرت المحاورات والمناقشات إلى سباب شخصي بين الإمبراطور من جانب وازيدورس ولامبســـون مـــن

جانب آخر وقد حكما علي هذين المبعوثين بالإعدام وبعد قتلهما رفعهمـــا إغريق الإسكندرية إلى درجة الشهداء الذين استشهدوا في ســـبيل قضـــية وطنهم ضد روما .

وبعد حوالي ١٠٠ عام من موتهم يشير إليهما أحـــد المـــواطنين السكندريين في محاكمة أمام الإمبراطور كـــالوديوس ويبـــدو أن ســـجل أعمالهم وقولهم كانت منتشرة في مصر لمدة طويلة (١٧) .

٣- أدركت السلطات الرومانية في ذلك الحين انه بينمـــا كانـــت الإسكندرية في حاجة إلى حراسة عسكرية قوية للاحتفاظ علي الهـــدوء و الأمن فيها فان بقية ا رجاء مصر كان يمكن السيطرة عليها بصورة كافية بقوات قليلة حينما سحبت أجزاء من الفرقة المرابطة لنيكربـــوليس حـــل محلها الفرقة الثالثة التي نقلت من ممفيس لتدعيم حامية الإسكندرية فـــي معسكرها بعد ذلك كانت الفرقة الوحيدة الموجـــودة بصـــفة دائمـــة فـــي معسكرها بمصر هي تلك الفرقة المرابطة عند أبواب الإسكندرية .

٤- يبدو أن هذه الفترة شغلت تطوراً كبيراً في التجـــارة بـــين الإسكندرية والهند فمنذ حملة ايليوس جالوس حفـــت بمعرفـــة الرومـــان بصورة ملحوظة ومستمرة للملاحة في البحر الأحمـــر وكـــانوا يحلـــون تدريجيا محل التجار العرب .

ويبدو أن من المشكوك فيه أن تكون السفن الإسكندرية في ذلـــك الحين قد تجاوزت ما بعد عدن حيث يروي بليني قصة رجل القـــت بـــه الامواج والعواصف من مدخل الجنوبي للبحر الأحمر حتى ساحل سيلان في أيام الإمبراطور كالوديوس وطريقة صياغ هذه القصة توحي بأنه لـــم تكن هناك في ذلك الحين سبل مواصلات منتظمة ومباشرة حتـــى الهنـــد وسيلان . (١٨)

ولكن اتخذت إجراءات لقمع القراصنة والقضاء عليها في البحر الأحمر ومن المحتمل أن الرومان قد استولوا علي عدن في حوالي ذلك التاريخ .

الإمبراطور نيرون ٥٤ : ٦٨ م

١- كان احتلال الرومان أحد الخطوط لتأمين التجارة الهندية ومما كان يحتم ذلك القوة المتنامية لمملكة أكسوم . فقد بدأت هذه المشكلة الجديدة علي حدود مصر الجنوبية والشرقية تشد انتباه الرومان في منتصف القرن الأول الميلادي : فمن جهة ضغط الاكسوميون بشدة علي وادي النيل في مجراه الاعلي علي حساب مملكة ماروي بذلك شكلوا تهديدا علي الطريق البري من أثيوبيا ، كما كانوا من جهة أخرى يحاولون أن يكون لهم موضع قدم في جنوب شبه جزيرة العرب مما يمكنهم من قطع التجارة البحرية مع الشرق ولكن الجزء الأخير من خطة مملكة اكسوم احبط تماما بعد تكوين محمية رومانية علي مملكة حمير في شبه جزيرة العرب والتي أمنت في الوقت ذاته السيطرة علي جزيرة سوقطرة وهي من ممتلكات مملكة حمير .

٢- كان الخطر في وادي النيل علي درجة من الصعوبة ويحتاج إلى مواجهة ، فقد ضعفت قوة مملكة ماروي وكانت بصفة عامة علي علاقات صداقة مع مصر حوالي ٨٠ عاما كخطوة أولى أرسل نيرون بعثة إلى أعالي نهر النيل في مملكة ماروي ربما لغرض لتدعيم هذه المملكة لكي تشكل منطقة عازلة أو حاجزة عن مملكة أكسوم .

وأوضح تقرير هذه البعثة عند عودتها أن إمكانيات مملكة ماروي فقيرة حيث وجدوا أن كل الوادي بين أسوان وماروي عبارة عن صحراء قاحلة وكان من الضروري بالنسبة للرومان أن يتخذوا إجراءات اكثر قوة لمجابهة الاكسومين فخططوا للقيام بحملة ضد أثيوبيا واقترح الإمبراطور

نيرون أن يقوم بزيارة لمصر للإشراف علي هذه الحملة سنة ٦١ م وعلي الرغم من أن هذه الزيارة قد أجلت فان القوات بدأت تتمركز في الإسكندرية ونقلت فرقتان علي الأقل إلى الإسكندرية بغرض قيام بحملة علي أثيوبيا (١٩) .

٣- تفجرت ثورة اليهود في إقليم جودايا أو يهودا بفلسطين وبذلك اوقفت استعدادات الحملة إلى اثيوبيا حيث أرسلت كل القوات الموجودة بالإسكندرية سنة ٦٦ إلى يهودا باقصي سرعة .

أما الحامية النظامية الرومانية في مصر فقد كانت مشغولة تماما في مهمة حفظ الامن والنظام في الإسكندرية حيث تجدد النزاع القديم بين الإغريق واليهود في الإسكندرية في هذه المناسبة .

فقد نشبت مشاجرة بين الفريقين اجتماع في اللامفثيتر تطور إلى معركة وحاول الوالي تيبريوس يوليوس الاسكندر وهو يهوديا من حيث المولد أن يكبح رماح بزعماء اليهود ويسيطر عليهم فلم يتمكن وكان عليه في نهاية الأمر أن يستدعي قوات من معسكرها وان يوجهها إلى الحي اليهودي في ا لمدينة فقاموا بنهب هذا الحي بمساعدة العامة من السكندريين ويقال أن ٥٠ ألفا من اليهود قد قتلوا قبل أن تنسحب القوات واستمر تخريب العامة مدة أطول .

٤- علي الرغم مما سبق ذكره أن فكرة الحملة علي أثيوبيا يبدو أنها كانت لا تزال تلح علي رأس نيرون : فقبل سقوطه مباشرة أوصل الكتائب من بعض الفرق الجرمانية إلى الإسكندرية واغلب الظن أن الغرض من ذلك كان القيام بالحملة ضد مملكة أكسوم .

وقد قامت دار سك النقود بالإسكندرية بإصدار عملة مرسوم عليها سفينة شراعية عليها الإمبراطور ومما يظهر انه كان من المتوقع أن يزور الإسكندرية سنة ٦٨ م .

في الحقيقة فقد كانت مصر في ذهنه بشكل واضح : فعندما اعلن الجيش الروماني جالبا امبراطورا وباقترابه من روما فكر أن يأوى إلـــى مصر بل في أن يسعى بشغل منصب الوالي في تلك البلاد .

جالبا – أوتو – فيتلسيوس ٦٨ م – ٦٩ م

١- وكان نيرون قد نفذ الفكرة التي جالت بخاطره وهي اللجـوء إلى مصر هربا من جالبا لما كان قد وجد في مصر المأوى والأمــن لأن واليها تيبريوس يوليوس الاسكندر كان علي ما يبدو كان متفهما بصـــورة ما مع جالبا .

وعلي أي حال قد اصدر تيبريوس مرسوما تكريما للإمبراطــور الجديد بمجرد سماعه انباء سقوط نيرون واعلان السيناتو جالبا إمبراطورا وقد صدر هذا المرسوم قبل أن يصله رسولا من جالبا .

وكان تيبريوس يوليوس الاسكندر دبلوماسيا بارعا سعي الحفــاظ علي منصبه رغم كل المتغيرات، وقد كان تيبريوس من حيــث المولــد يهوديا مصريا ثم حصل علـــي المواطنـــة الرومانيـــة وتقلــد منصـــب الابيستارتيجوس في الإقليم الطيبي في عهد الإمبراطور كالوديوس ثم عين نيرون والي علي مصر عام ٦٦ م وظل في هذا المنصب في ظل حكـــم جالبا ثم اوتو ثم فيتليوس ثم تحت حكم فسبسيان وقد كان الأخيــر مـــدينا لتيبريوس ومساندته إلى حد ما في الوصول إلى العرش الإمبراطوري.

وبعد سقوط نيرون استبعدت فكرة الحملة علي أثيوبيا نهائيا حيث يبدو أنها لم تعجب الإمبراطور الجديد وقد أعيدت كتائب الفرق الجرمانية التي أرسلت إلى الإسكندرية لهذا الغرض إلى روما حيث شـــاركت فـــي الدسائس والمؤامرات التي أدت إلى خلع جالبا وتعيين أوتـــو إمبراطـــورا بدلا منه .

٢- تولي اوتو الحكم لفترة ثلاث اشهر من منتصف يناير حتـــى منتصف أبريل سنة ٦٩ م وقد بقيت لنا بعض الآثار عـــن فتـــرة حكمـــه القصيرة وتشير هذه الآثار إلى انه معترفا به في مصر اعترافا تاما حيث أصدرت باسمه كمية كبيرة من النقود كما استعلمت فترة حكمه في تأريخ بعض الوثائق كما تظهر صورته كفرعون ومكتوب بجوارها خرطـــوش ملائم باسمه وذلك علي جدران المعبد الصغير في مدينة هابو بطيبة وهو المبنى الذي استمر رغم كل التغيرات للحكام والأباطرة .

٣- أما الإمبراطور الثالث في تلك الفترة المضطربة ٦٨ –٦٩ م فهو فيتلسيوس الذي حكم في روما من ١٦ أبريل حتى ٢١ ديسمبر سنة ٦٩ م ولكن معلوماتنا عنه اقل عن معلوماتنا عن اوتو وفيتلســـيوس هـــو إمبراطور رومانيا الوحيد حتى القرن الثاني الميلادي الذي لم نعثر علـــي خرطوش باسمه علي أحد جدران المعابد المصرية ورغم صدور كميـــة محدودة من العملة باسمه في الإسكندرية إلا أن استعمال اســـمه وتـــاريخ وثيقة مصرية لم يرد سوى مرة واحدة علي أحد قطع الشقافة في منطقـــة الفنتين علي حدود مصر وكتبت في اليوم ١٠ من شهر يوليو سنة ٦٩ م رغم أن حكم فيتلسيوس في مصر انتهي فـــي أول يوليـــو وحـــل محلـــه فسبسيان الذي أعلن انه إمبراطور في الإسكندرية أول يوليو ســـنة ٦٩ م وتفسير ذلك أن الأيام التسعة لم يكن وقتا كافيا لوصول أخبار الإمبراطور الجديد من الإسكندرية حتى أقصى جنوب مصر [٢٠] .

فسبسيان ٦٩ – ٧٩ م

٤- يعود الفضل في إعلان فسبسيان إمبراطوراً إلى تيبريـــوس يوليوس الإسكندر : حتى هذا الحين لم تشارك الفرقتان الرومانيتان فـــي مصر وكذلك الفرق الرومانية في الشرق علي وجه العمـــوم فـــي تأييـــد واعلان إمبراطور في عام الفوضى والاضطراب سنة ٦٩ م ولكن حـــين

وصلتهم الأخبار أن القوات الرومانية في ألمانيا هي التي اختارت فيتلسيوس حفزهم ذلك إلى البحث عن مرشح عن العرش الإمبراطور يكون من طرفهم بحيث يساعد نجاحه علي تولي عرش الإمبراطورية في ضمان قدر من الغنائم لهم وكانت سبع فرق رومانية تحت قيادة فسبسيان في سوريا قد نادت به إمبراطورا قبل أيام من قسم الفرقتين الرومانيتين في مصر علي مبايعته والولاء له أمام تيبريوس يوليوس الاسكندر في أول يوليو سنة ٦٩ م وتتجلي أهمية ضمه إلى مصر إلى جانبه في أن تاريخ مبايعته في مصر اعتبر هو تاريخ بداية توليه الإمبراطورية من ذلك التاريخ اصبح سيدا بلا منازع علي الشرق وكان بإمكانه أن يحدث مجاعة في روما إذا قطع عنها إمدادات القمح من الإسكندرية ويقال أن هذه الخطة قد اقترحت عليه بالفعل من قبل أحد قواته فارسله نحو إيطاليا ومعه جيش واقترح أن يتجمع مع قواته عند منطقة تسمى اكويليا وان ينتظر نتائج سياسة قطع القمح ولكن الظروف عجلت بقرار آخر .

٥- تقدم فسبسيان بنفسه إلى الإسكندرية وتلقى وهو في الطريق اخبارا عن انتصار قائده في كريمونا واستعد لكي يجرب نتائج تجميع روما ولكن الاعتراف السريع به كامبراطور بعد مقتل فيتلسيوس في ديسمبر ٦٩ جعله يعدل عن هذا النهج وقد لقى فسبسيان ترحيبا بالغا من السكندريين الذين لم يحظوا برضا من جانب أي إمبراطور روماني منذ رحيل الإمبراطور أغسطس في مصر بعد فتحه لها .

وقد عامله السكندريين كإله فقد أتي إليه طلبا للعلاج رجلا أعمى وآخر مصاب بضمور في يده وذلك وفقا لنصيحة تلقيها من الإله سرابيس حسب قولهما وذاع خبر شفائهم ونجاحه في ذلك بعد أن بصق علي جفون الأول وداس علي الآخر بقدميه .

ولكن سرعان ما اكتشف السكندريين أن معبودهم الجديد رجل أعمال في المقام الأول وكانت المشاغل الدنيوية هي همه الأول بحيث رفع الضرائب وكان يطالب أصدقائه برد ما عليه من ديون مهما كانت ضئيلة .

ولما تحرروا من الوهم الهيته بدوا ينتقمون منه لانفسهم بأن عادوا إلى طابعهم القديم من بذاءة اعتادوا عليها من زمن طويل لتسلية أنفسهم علي حساب حكامهم : فنظرا لأنه فرض ضريبة علي السمك المملح أطلقوا عليه تاجر السمك المملح وفي مرة كان قلقا علي دينه مقداره ٦ أبولات مما جعلهم يطلقون عليه صاحب الأبولات الستة .

ويقال انه رد علي هذه النكات بأن أمر فرض ضريبة الرأس بمقدار ٦ أبولات علي الفرد من السكندريين وهي غرامة تافهة من حيث مقدارها بالمقارنة بمقدار هذه الضريبة في بقية نومات مصر وكان الغرض من فرضها علي السكندريين بهذا المبلغ الزهيد هو اهانتهم وتقليل من قدرهم لأن الإعفاء من الضريبة الرأس كان من الامتيازات الكبيرة التي تميز بها السكندريين عن أهل البلاد من المصريين ولكن تيتوس توسط السكندريين عند ابيه وجعله يفصح عنهم [٢١] .

٦- أرسل فسبسيان ابنه تيتوس إلى منطقة يهودا فلسطين يتولي قيادة الجيش الذي يحصر أورشليم وتم تدعيمه بكتائب بلغ عدد كل منها ألف فرد من الفرقتين الرومانيتين المرابطتين لمصر وذلك سنة ٧٠ م في عودته إلى الإسكندرية وفي خلال فترة اقامته المؤقتة بمصر اظهر تقدير والاحترام بمشاعر المصريين بعد أن شفع للسكندريين عند أبيه من قبل وقد حضر تقديم قربان للعجل أبيس في مدينة ممفيس واعطى الاحتفال والمناسبة تكريما إمبراطورياً لظهوره علي الملا فهو يلبس تاجا بما يتفق مع طقوس المعتادة وعلي الرغم من أن هذا الفعل كان مقصوداً به زيادة

شعبية الحكم الروماني في مصر لاظهار سماحته نحو الديانـــة الوطنيـــة المصرية وقد كانت النظرة إليه في روما هي عدم الارتياح باعتباره رمزا لرغبة في الوصول إلى العرش قبل الأوان .

٧- أعقب سقوط أورشليم اضطرابات في الإسكندرية سنة ٧٣ م حيث لجأ إليها بعض المشاكسين من اليهود الذين فروا من منطقة يهـــودا وحاولوا إقناع سكان اليهود المقيمين بالإسكندرية بالانضمام إليهم لخلـــق المتاعب والقلاقل للرومان ولكن زعماء اليهود المملبين رفضوا المشاركة في مثل هذه العملية العقيمة والقوا القبض علي بعـــض هـــؤلاء اليهـــود اللاجئين من إقليم يهودا بينما فر البعض الآخر منهم إلى مصـــر العليـــا ولكنهم أيضا القي القبض عليهم واعدموا .

وعلي الرغم من الاتجاه الموالي والمخلص للرومان من زعمـــاء اليهود فان الحكومة قررت اتخاذ خطوات لتدمير مركز من المراكز التي يمكن أن تثير الحركة الوطنية عند اليهود .

ويتمثل هذا المركز في معبد اونياس قرب رأس الدلتا وكان هـــذا المعبد قد بني اصلا في منافس لمعبد اورشليم وخشى الرومان أن تنتقـــل مكانة وتأثير معبد اورشليم أو بعضا منها في نظيره في مصر وعلي ذلك فقد نهبت كنوز هذا المعبد وحرم الدخول إليه نهائيا [٢٢] .

تيتوس ٧٩ – ٨١ م :

كان تيتوس ٧٩ : ٨١ م هو أول إمبراطور روماني ربما باستثناء نيرون يبدي ميلا لسياسة إمبراطورية حاكمة في تعامله مـــع الولايـــات الشرقية ، ولكنه لم يعيش طويلا بحيث يمكنـــه التـــأثير فـــي مقـــدرات الإمبراطورية والمعلومات الواردة عنه من مصر قليلة ، وهناك نقشـــان طريفان يعودان إلى فترة حكم تيتوس إحداها يشير إلى تطهير نهر (الخط السعيد) وهو الاسم الذي يطلق علي الفرع الكانوبي (فرع رشيد) ممـــا

يدل علي صيانة الممرات المائية لم تهمل في عهده ، أما النقش الآخـــر فيشير إلى بناء معبد للآلهة المنقذة سوتير (بطلميوس الأول وزوجتـــه) في مدينة بطلمية ويبدو منه أن الرومان قد سمحوا باستمرار عبادة مؤسس هذه المدينة في بطلمية [٢٣] .

الإمبراطور دوميتان ٨١ : ٩٦ م

١- في فترة حكم دوميتان تزايد الاه تمـــام بالآلهـــة المصـــرية المحلية فيمكن أن نستنتج أن المعبودات المصرية القديمـــة التـــي ظلـــت مكبوتة لفترة من جراء سياسة الأباطرة الرومان الأوائل بدأ تطل برأسها من جديد مرة أخرى .

وكانت مصادرة الرومان لأملاك المعابد علي يـــد الإمبراطـــور أغسطس والنظم الصارمة التي فرضها علي رجال الكهنوت كانت تشكل عبء اكثر ثقلا علي العبادات المحلية الصـــغيرة أكثـــر مـــن العبـــادات المنتشرة شبه الرسمية مثل عبادة سرابيس وايزيس وقـــد أخـــذت هـــذه العبادات الصغيرة بعض الوقت لكي تسترد مكانتها .

فبالنسبة للبناء في المعابد الكبرى فقد استمر بصورة طيبـــة فـــي العديد من المدن مصر العليا مثل فيلاي و Latopolis وطيبـــة وتنتـــارا Tyntera كما أن هناك قرائن وادلة تدل علي النشاط الكبير فـــي معابـــد التماسيح في الفيوم، ولكن معظم المعبودات المصرية المحلية بقيت فـــي الظل طيلة القرن الأول الميلادي .

وقد كان الرومان ينظرون إلى هذه العبادات المصرية باحتكـــار عميق ولم يكونوا يعترفون رسميا بعباداته بسبب ما تثيره من اضطرابات وقلاقل ويبرز الموقف الروماني المألوف من هذه العبادات فـــي كلمـــات لجوفينال الذي قضي خدمته العسكرية في معسكر سيلين في مصـــر فـــي عهد الإمبراطور دوميتان حيث يصف حادثة يقول انه شاهدها ويخبرنـــا

عن سكان المتجاوريين في مدينتى مصر العليا هما Tyntera واومبوس في الإقليم الطيبي حيث كان سكان المدينة الأولى يحتكرون ويضطهدون تمساح الذي كان يقدسه سكان اومبوس وفي إحدى الاحتفالات قامت معركة بين الفريقين وقد أهمل اومبوس باستثناء واحد منهم لم يتمكن من الفرار فأطبق عليه أهل Tyntera وقتلوه وكلوه .

ولكن يتضح انه علي الرغم من عدم الاعتراف رسميا من قبل الحكومة الرومانية لهذه العبادات القديمة لأنها كانت متمكنة جدا من السكان المصريين من أهل البلاد وكان من الممكن أن تثير أحداثاً اكثر خطورة عن تلك الحادثة التي أثارت اشمئزاز جوفينال .

فقد استدعيت القوات الرومانية لكي تضع حدا للنزاع الذي تفجر بين مدينتى اوكسيرينخوس وكينوبوليس في إقليم سبع نومات نتيجة للإهانات المتبادلة التي ألحقها سكان كل من هاتين المدينتين بمعبود المدينة الأخرى (٢٤) .

٢- يمكن أن ننظر إلى حضور تيتوس للاحتفال بتقديم القرابين للعجل أبيس كما سبق أن ذكرنا علي انه أول علامة للتغير للاتجاه الرسمي الروماني نحو الآلهة المصرية الخالصة .

وهناك قرائن أخرى ذات طبيعة مماثلة من عصر دوميتان حيث نجد نقوش اغريقية تسجل اقامة معابد للآلهة افروديتي وهي التي تمثل بالنسبة للمصريين المماثلة الآلهة حاتحور في مدينة اومبوس وذلك عام ٨٨ م وكذلك للآلهة هيرا التي تمثل الآلهة المحلية ساتي آلهة الشلال في منطقة الفنتين في أقصى جنوب مصر .

وربما يكون بالصدفة دورها في العثور علي هذه النقوش عن تلك الفترة ولكن أنماط العملة السكندرية من تلك الفترة تزودنا بأدلة اكثر تحديدا علي تغير طرأ علي السياسة الرومانية تجاه الآلهة المصرية في

عصر دوميتان وفيما سبق كان موظفو دار سك النقود بالإسكندرية يصورون علي ظهر العملة بعض المواصفات المأخوذة من الديانة المصرية من بين مواصفات أخرى كثيرة من البيئة المحلية ولكن موضعات الديانة المصرية كانت قاصرة فقط علي موضعات آلهة مثل سرابيس وايزيس وكانوبس وميلوس وهي المواضعات ذات العناصر الاسطورية المتصلة بصورة اكبر بمدينة الإسكندرية .

ولكن السنة ١١ من حكم دوميتان ظهرت مجموعة من العملة البرونزية السكندرية مصور عليها الآلهة المحلية للنومات المصرية في صورة متأغرقة بشكل أو بآخر ولكن بخصائص مصرية .

ومنذ ذلك الحين فصاعدا تمثل الآلهة المصرية المحلية بشكل اكبر علي العملة السكندرية .

ومن الجدير بالذكر أيضا في هذا الموضوع أن دوميتان نفسه قد اقام معابد لايزيس وسرابيس في روما وقد اعطي بذلك صبغة رسمية لوجود هذه الآلهة السكندرية العظيمة في عاصمة الإمبراطورية بعد أن انتشرت في كافة ارجاء الإمبراطورية وصارت مألوفة في روما ذاتها رغم محاولات السلطات الرومانية قمع وتكبيل هذه العبادة [٢٥].

الإمبراطور تراجان ٩٨ / ١١٧ م

١- هناك أدلة جديدة تدل علي تحسن الوضع الرسمي للديانة المصرية تعود إلى العام الأول من حكم تراجان حيث اقامت سيدة من مدينة تنتارا معبدا تكريما لأفروديتي الجميلة ومن المحتمل أن يشير هذا الاسم إلى بلوتينا زوجة تراجان التي ظهرت مصورة مع الآلهة حاتحور.

ومثل هذا التصوير لإمبراطورة رومانية مع آلهة مصرية لم يكن ممكنا من قبل ومما يلفت النظر أيضا نقشا طريف يعود إلى نفس الفترة تقريبا يتعلق ببناء معبد لاسكليبيوس وهيجا في مدينة بطلمية ، وانشودة

الشكر الموجودة في هذا النقش لها صيغة إغريقية تقليدية تذكر أن بطلمية لا تزال تحتفظ بسماتها وطابعها الذي تمت به منذ تأسيسها كمركز ذو طابع ديني في ارض أجنبية .

٢- هناك وثيقة ذات طابع غير عادي من عصر الإمبراطور تراجان تتمثل في وثيقة بردية تحتوي علي حديث فيه استنكار لتصرف شخص يدعي مكسيموس من الواضح انه كان موظفا كبيرا في الإسكندرية وربما كان الوالي نفسه ويبدو أن هذا الاستنكار لتصرفه ما كان في حضور إمبراطور .

ويبدو أن الظروف تشير إلى الشخص الذي هوجم علي انه فبيوس مكسيموس الذي يرجح أن فترة بدايته في مصر قد انتهت بأمر شائن أو مخزي لان اسمه كان كشطا ومحيا من علي ثلاثة نقوش كان مكتوبا عليه أصلاً وممكن افتراض أن سقوطه قد كان من بين أسباب الشكاوي التي كتبت ضده إلى الإمبراطور من سكان الأقاليم [٢٦] .

٣- ظل الوضع العام في مصر هادئا لبضعة سنوات حتى في الإسكندرية هذا النزاع مؤقتا بين الإغريق واليهود بسبب السياسة الصارمة التي اتبعت مع الحزب اليهودي والمعادي بعد سقوط اورشليم والولاء الذي أداه أحبار اليهود وزعمائهم نحو الحكومة الرومانية مما منع أي فرصة لاثارة القلاقل .

وقد انخفض منسوب مياه النيل في إحدى سنوات حكم تراجان ونتج عن ذلك مجاعة ولكن تراجان اتخذ إجراءات فورية خففت من وطأة هذه المجاعة حيث أعاد إلى الإسكندرية أسطولاً كان محملا بالقمح المصري من المخزون المتراكم في شون الغلال الحكومية [٢٧] .

ولكن قرب نهاية حكم تراجان اندلع موقف في غايـــة الخطـــورة وهو اخطر الثورات التي كان علي الرومان أن يتعاملوا معها منذ فــتحهم لمصر وهي ثورة اليهود ١١٤ : ١١٧م .

٤- أن الأحداث التي يبدو أنها مهدت لهذه الثورة قد رويت فـــي أحد الشذرات البردية المتبقية عند أحد المواطنين السكندريين قد تتعلق هذه القصة بسفارات التي كان يرسلها طرفا النزاع من الإسكندرية الإغريـــق واليهود إلى روما والتي مثلت أمام الإمبراطور تراجان قبل ذهابـــه إلـــى آخر مرة إلى الشرق في سنة ١١٤ م .

ولم يتضح لنا سبب أو مناسبة إرسال هذه السفارات إلـــى رومـــا ولكن بما أن الإمبراطور قد اتهم الإغريق في هذه الوثيقة باستفزاز اليهود فانه يتضح أن نعرف معاداة السامية القديمة قد عادت للظهور من جديـــد ويقال أن الإمبراطورة بلوتينا كانت تميل إلى اليهـــود وجعلـــت زوجهـــا تراجان يحذو حذوها .

وكل ما لدينا من هذه الوثيقة البردية هي الفقـــرات الافتتاحيـــة للمناقشة وهي تظهر نية قاطعة لدى كاتبها علـــي أن الإمبراطـــور كـــان منحازا لليهود ولكن ليس في الوثيقة مـــا يـــدل علـــي نتـــائج هـــذه المرافعات [٢٨].

٥- سواء كان الأمر استفزاز من الإغريـــق لليهـــود أم لا فقـــد اندلعت في الإسكندرية سنة ١١٤ م ثورة لليهود تمكنت الحكومة الرومانية من قمعها بسهولة .

ولكن في سنة ١١٥ م كان قد أرسل عـــدد كبيـــر مـــن القـــوات الرومانية من الفرق الموجودة في مصر للمشاركة في الحروب البارثيـــة فاندلعت وتفجرت ثورة واسعة النطاق في أرجاء مصر من قبـــل اليهـــود وفرض اليهود سيادتهم لبعض الوقت علي مناطق من البلاد حيث ذبحـــوا

الإغريق أو طردوهم ليلجئوا إلى الإسكندرية التي امن الإغريـــق علـــي أنفسهم فيها ضد كيد اليهود لانهم قتلوا كل ما كان بها من اليهود .

وقد وجدت الحكومة الرومانية أن قواتها غير كافية تماما بمجابهة هذا الخطر حتى أنها لجأت لتسليح السكان المصريين من أهل البلاد فقـد سجل المزارعين المصريين في النومات في نوع من الميليشيات المسلحة المحلية تحت قيادة الاستراتيجوس في كل نوموس وهو القائد المدني لكل نوموس .

واستمرت حرب العصابات في ارجاء البلاد حتى وفاة تراجـــان وهناك إشارات عديدة إلى حروب العصابات هذه في مراسلات أبولونيوس استراتيجوس ولم تكن هناك حملات منظمة كما لم يكن هنـــاك زعمـــاء واضحين للمتمردين اليهود وكان يتم تتبعهم ومطاردتهم كرجال عصابات خارجين علي القانون و لابد أن الخسائر الناجمة عن هذه الثورة ســـواء كانت في الإسكندرية أو في بقية الأقاليم كانت كبيرة جدا كمـــا أن هـــذه الثورة من قبل اليهود اثارت شعائر عدائية كبيرة ضد اليهود حيث نجد في إحدى الوثائق أن سكان مدينة أوكسيرينخوس كانوا لا يزالـــون يعيشـــون باحتفالهم بمناسبة انتصارهم علي اليهود في عيد سنوي حتى بعد ٨٠ عاما من هذه الأحداث . (٢٩)

٦- في فترة حكم تراجان كانت هناك تعديلات معقدة وهامة فـــي الترتيبات العسكرية في مصر وكان من أهم هذه الإجراءات بنـــاء قلعـــة جديدة في ممفيس علي ضفة النيل لتحل محل المعسكر القديم الذي كـــان علي ربوة عالية وبذلك يمكن إمداد هذه القلعة بالميـــاه بصـــورة افضـــل وكذلك تكون اتصالاتها النهرية في بقية أرجاء البلاد افضل من ذي قبل.

وقد دعم ذلك من موقف الحامية اليهودية وجعلها تحكم سيطرتها علي قمة الدلتا كما كانت تحرص رأس أول القناة التي شقها تراجان من النيل حتى البحر الأحمر .

كما كونت فرقة جديدة هي الفرقة الثانية التي تحمل اسم تراجان legistraiana وجعلت مصر مركزها وذلك قبل سنة ١٠٩ م ولم يكن الغرض من هذه الفرقة تدعيم الحامية الرومانية في مصر لأن الفرقتين الموجودتين في مصر من قبل كانتا كافيتين للحامية مع القوات المساعدة ومن المحتمل أن يكون السبب في تكوينها هو الاستعداد للتقدم نحو الشرق لان هذه الفرقة أرسلت أجزاء منها إلى الحروب البارثية رغم مقر قيادتها لم ينتقل من مصر مطلقا .

وبمرور بعض الوقت أصبحت هذه الفرقة هي الفرقة الوحيدة المتبقية في مصر في حين انتقلت الفرقتان اللتان كانتا بمصر منذ عصر أغسطس إلى أماكن أخرى .

الإمبراطور هادريان ١١٧ : ١٣٨ م

١- عندما تولي هادريان عرش الإمبراطورية كانت ثورة اليهود قد قمعت (أخمدت) فعلا ولكن كان عليه أن يقوم بأشياء كثيرة من اجل إصلاح التدمير والتخريب الذي نتج عن هذه الثورة .

ويقال انه اصلح مباني في الإسكندرية ورغم انه من الصعب أن نحدد هذه الإصلاحات بصورة مؤكدة فيبدو أن أحد هذه الإصلاحات كان مكتبة هادريان التي ذكرت في وثيقة أو مرسوم للوالي مؤرخ سنة ١٢٧ م والتي كانت قد منيت قبل وقت قريب تستعمل كمستودع للسجلات لأن مكاتب السجلات كانت دائما هدفا مفضلا لاعمال العنف التي يمارسها الغوغاء وربما كان هذا هو المبني الممثل علي عملات من العصر الهادرياني حيث يقف الإمبراطور أمام الإله سرابيس ويشير إلى سطح

صغير منقوش عليه اسمه ونظرا لان مكتبة الإسكندرية الكبـــرى كانـــت تحت حماية الإله سرابيس فمن الطبيعي أيضاً أن تكون دار السجلات التي أقامها هادريان في حماية هذه الإله أيضاً . [٣٠]

٢- كان لأحداث الشغب في الإسكندرية رد لفعلها وأثرها المعتاد في روما في شكل سفارات من قبل الإغريق واليهود إلـــى الإمبراطـــور وعلي أعلى هذه السفارات في عصر هادريان وصلتنا معلومات قليلة جدا بين ما يسمى بأعمال الشهداء السكندريين ومن الصعب أن نستخلص من هذه الشذرات أي فكرة واضحة عن الوضع في ذلك الحين .

ومن الغريب انه علي الرغم من أن يهود مصر علي وجه العموم قاموا بتمرد مسلح ضد السلطة الرومانية فان هادريان كما يبدو من هـــذه الشذرات كان مواليا لليهود ضد الإغريق .

ولكن لا ينبغي أن نأخذ هذه المعلومات علي أنها مسلم بهـــا لان الهدف الأساسي لمن كتبوا أعمال الشهداء السكندريين هـــو أن يبـــرزوا إغريق الإسكندرية كحاملين لواء القضية القومية الوطنية ضد روما لذلك من المحتمل جدا أن تكون روايات هؤلاء الكتبة قد حرفت عمدا لتناســـب الغرض منها .

وكان أحد المبعوثين من إغريق الإسكندرية ويدعي بونـــاس قـــد ظهر أمام تراجان قبل أعوام قليلة في مهمة مماثلة ويبدو انه قد ادينا فـــي هذه المناسبة وحكم عليه بالإعدام .

٣- ثارت اضطرابات جديدة في الإسكندرية بعد حوالي خمســـة أعوام من تولي هادريان العرش أي حوالي سنة ١٢٢ م في مناسبة تقديم تضحيات للعجل أبيس إما عن مصدر هذه المنازعات فلـــيس لليهـــود أو الإغريق يدا فيها .

وقد وصلت هذه الأنباء إلى هاديان عندما كان يقوم بجولته التفتيشية الأولى والكبرى في الإمبراطورية وكان حين ذلك في بلاد الغالة ولكن من المحتمل أن هذا الشغب قد قمع بسهولة بأنه كان متصلا بسكان المصريين دون تدخل من جانب اليهود أو الإغريق.

٤- في جولة هادريان الثانية زار مصر ودخل إلى البلاد من بيت المقدس أورشليم عن طريق بلوزيوم وهناك عملة إسكندرية تعود إلى العام الخامس عشر من حكم هادريان سنة ١٣٢ م تسجل وتحتفل بترحيب المدينة به.

ومن المحتمل انه وصل هناك في أوائل الخريف حتى يصعد في النيل بمجرد أن ينتهي فيضان النيل حيث كان العرف القديم يمنع الملوك من الابحار في النهر في زمن الفيضان وقد وصل إلى طيبة في أواخر نوفمبر حيث كانت الاستعدادات لقدومه هناك تجري منذ ١٢ ديسمبر وزار هو وزوجته سابينا وافراد حاشيته زار تمثال ممنون في البر الغربي لكي يسمعوا الاصوات الموسيقية الصادرة منه عند شروق الشمس وكان هذه أحد الفقرات التقليدية في الجولات السياحية للرومان في مصر .

وكما يفعل السياح عادة فان أفراد حاشية هارديان نقشوا أسمائهم علي التمثال الضخم كتذكار للزيارة وقامت إحدى السيدات المرافقات لسابينا زوجة هادريان وتدعي Balbille بتأليف وكتابة أبيات من الشعر احتفالا بهذه المناسبة أو الزيارة .

٥- أما اخلد وأبقى نصب تذكاري لرحلة هادريان لمصر فقد تمثل في مدينة انتينوبوليس وكان الدافع لدى هادريان لتأسيس هذه المدينة هو موت الصديق المفضل والحبيب له الشاب انتينوس أثناء رحلته في النيل وهو في طريقه إلى صعيد مصر إلى طيبة .

وكان هناك جمود حول وفاة انتينوس تمثلته بعض الروايات بأنه غرق بالصدفة في النيل بينما يشير آخرون إلى انه قد تمت التضحية بـه كقربان من اجل سلامة الإمبراطور

وأي كانت الظروف المحيطة بوفاة انتينوس فـان الإمبراطـور هادريان قد كرم ذكراه بان أنشئي في مكان الحادث مدينة كان الغـرض منها أن تكون مركزا جديدا للنفوذ الإغريقي في مصر قد صممت بتخطيط إغريقي بقطع من الأحجار مرقمة ترقيما منتظما ومنحت مجلسا تشريعياً ودستوراً علي النمط اليوناني وكان الإطار العام للدستور هاما خوف أمن دستور نقراطيس اقدم مستوطنة إغريقية في مصر ولكن القبائل والأحياء سميت بأسماء البيت الإمبراطوري الروماني .

ويبدو أن مستوطني انتيوبوليس قد دعيوا خصيصا مـن مدينـة بطلمية وهي المكان الوحيد في مصر العليا الذي كان التراث الاغريقـي يشكل فيه قوة حية وتحول انتينوس إلى آله محلي في المدينة التي تحمـل اسمه ولكن الافكار والتأثيرات المصرية لم تستبعد كلية حيث عبد أنتينوس المؤلمة علي أنه أوزيور أنتيوس .

ويبدو انه كان له طاقم كهنوتي مصري من الكهنـة والعـرافين وغيرهم من خدم المعابد وهناك إشارات إلى تمثيله مع الإله بـس الإلـه المحلي لهذا المكان قبل تأسيس المدينة الجديدة .

ومن الجدير بالذكر أيضا انه في دستور انتينوبوليس تـم إدخـال فقرات مختلفة عن دستور نقراطيس مثل منح أهالي انتينوبوليس حقـوق التزاوج مع المصريين وهو لم يكن مسـموحا بـه لأهـالي نقـراطيس وسيتضح أن نية هادريان وغرضه من ذلك وهو طبع السكان المصريين بالطابع الإغريقي بضمهم مع الإغريق تحت تأثيرات إغريقية كبيرة (٣١) .

٦- بتشجيع تجارة أنتينوبوليس اقيم طريق جديد من هناك إلى بيرنيكي مزود بنقاط حراسة ومحطات تزويد بالمياه وقد اكتمل هذا الطريق بعد إنشاء هذا الطريق قبل وفاة هادريان سنة ١٣٧ م وكان الغرض من اقامة هذا الطريق هو تحويل التجارة الشرقية وخصوصا التجارة الهندية من الطريق القديم الذي يصل إلى النيل عند قفط .

وربما اقترن بإنشاء هذا الطريق الأحداث التي ذكرت في نقش من بعد الإمبراطور هادريان عثر عليه في طيبة وفي هذا النقش قامت إحدى القبائل البدوية في الصحراء الشرقية بغارة علي التجار ولكن تعقبتهم القوات الرومانية لمدة يومين ومزقتهم إربا وتم استعادة البضائع المنهوبة والجمال التي تحملها (٣٢) .

٧- كان اهتمام هادريان بالثقافة الإغريقية وبكل ما هو إغريقي إثارة الأخرى في مصر فقد تعهد موسيون الإسكندرية بالرعاية ويقال انه عقد في أثناء زياراته إلى الإسكندرية مناقشات مع بعض الفلاسفة هناك .

ولكن العلامة البارزة الدالة علي تقديره لسمو هذه المؤسسة العلمية تمثلت في إحضاره لأستاذة من السوفسطائيين المتجولين الذين ربما لم يطلب منهم الإقامة في الإسكندرية ولا حتى إلقاء المحاضرات وانما فقط يشرفون الموسيون بوضع أسمائهم ضمن قائمة علماء الموسيون في مقابل مرتبات يتقاضونها نظير ذلك .

كما كانت هناك نهضة فنية عظيمة متأثرة بالنمط الإغريقي في تلك الفترة ويمكن ملاحظة ذلك بصورة قوية في العملة السكندرية حيث بدأ تغير في أسلوب هذه العملة في العام التاسع من حكم هادريان ثم تطور هذا التغير في السنوات الخمس التالية في تنفيذ قوالب العملة بشكل افضل كثيرا من القوالب المستعملة علي مدى قرنين من قبل .

وهناك مثال آخر يدل علي نفس الاتجاه نجد سلسلة من صناديق الموميات من مدافن عديدة في العصر الروماني في مصر الوسطى ولا سيما خصوصا في منطقة الهوارة والفيوم فمثلا عادة وضع صورة المتوفي علي صندوق الدفن بدلا من رأس من الخشب أو الجبس تشكل وتوضع علي الصندوق وهي العادة التي استخدمت لأول مرة في منتصف القرن الأول الميلادي أصبحت الأسلوب الأكثر استعمالا وشيوعا في عصر هادريان ومثل هذه الصور الشمعية تظهر بوضوح تقاليد الفن الهلنسي . (٣٣)

أنطونيوس بيوس التقي ١٣٨ : ١٦١م

مرت فترة حكم انطونيوس بيوس بسلام فيما يتصل بمصر باستثناء اندلاع بعض احداث الشغب في الإسكندرية التي قتل فيها الوالي سنة ١٥٣ م وربما كان هذا الوالي Moratius Felix .

ويقال أن هذه الاضطرابات جلبت علي المدينة سخط الإمبراطور وغضبه ولكن يروى أيضا انه زار المدينة عقب تلك الأحداث واقام مضمار للخيل وبوابات يطلق عليها بوابات الشمس والقمر والتي كانت في الطريق الشرقي والغربي من الشارع الرئيسي الذي يشق المدينة من أدناها إلى أقصاها .(٣٤)

ماركوس اوريليوس	١٦١-١٨٠ م
لوكيوس فيروس	١٦١ – ١٦٩ م
كومودوس	١٨٠ – ١٩٢ م

ماركوس اوريليوس ١٦١ : ١٨٠ م

١- في عهد ماركوس اوريليوس و قع حادث غير مألوف وهو ثورة سكان البلاد من المصريين في منطقة تعرف باسم Bucolia وتزعم هذه

الأحداث كاهن مصري يدعي أزيدورس وقد حشد هذا الكاهن قوة كبيرة مـــن الفلاحين في مستنقعات الدلتا ويقال انه كان يتخفى ويتنكر هو وأتباعـــه فـــي ملابس النساء وبذلك خدع القائد المسئول عن حراسه الإقليم وأتوا إليه بـــزعم انهم أتوا لدفع الضرائب وتمكنوا بهذه الطريقة من قتله وذبحوا أحـــد اتباعـــه كضحية وأكلوا لحمه بعد أن اقسموا علي جثته يمين الولاء .

وقد استطاع هؤلاء هزيمة القوات الرومانية في ميـــدان القتـــال وأوشكت الإسكندرية نفسها علي السقوط في ايدي هؤلاء المتمردين .

وقد كانت الظروف ملائمة في ذلك الحين للقيام بتلك الثـــورة لأن الفرقة الرومانية المقيمة بالحامية الرومانية في مصر وهي الفرقة الثانيـــة المسماه باسم الإمبراطور تراجان كانت قد أرسلت في المشاركة في حرب قرب نهر الدانوب وكان من الضروري في ظل هذه الظروف اســـتدعاء إمدادات من سوريا .

ووصلت هذه الامدادات وعلي رأسها افيديوس كاسيوس الحـــاكم الروماني علي سوريا ولكن كاسيوس لم يغامر في خوضه معركة حاسمة ضد هؤلاء الثوار المتحمسين والمتعصبين وانما وضع خطته علي أساس بذر بذور الفرقة والاختلاف بين صفوف الثوار وهكـــذا امكنـــه تحطـــيم قواتهم وتمكن من سحق جماعتهم المتفرقة كل مجموعة علي حده [٣٥] .

٢- بعد فترة قصيرة من قمع هذه الثورة قام تمرد عسكري كان علي رأسه القائد المنتصر أفيديوس كاسيوس حيث يقال انه كان يتآمر مع الإمبراطورة فوستينا زوجة الإمبراطور علي أمل أن يصل إلى الســـلطة الإمبراطورية بعد وفاة ماركوس اوريليوس ووصلته إشاعات كاذبة عـــن وفاة الإمبراطور ماركوس اوريليوس فجعل قواته تعلنه إمبراطوراً ويبدو أن ذلك قد حدث في ربيع سنة ١٧٥ م وسرعان ما تم الاعتراف به فـــي أرجاء الشرق وهناك إحدى الوثائق البردية مؤرخة بالثالث من مايو سنة

١٧٥ م ومؤرخة باسم أفيديوس كاسيوس هناك وثيقـة أخـرى يرجـع تاريخها إلى ١٩ من يونيو من نفس العام تدل علـي أن الاعتـراف بـه كإمبراطور قد وصل إلى Syene (أسوان) . وكـان كاسـيوس يحكـم كوالي في سوريا لمدة ستة سنوات علي الأقل وله اتصالات سابقة بمصر ليس فقط بصفته القائد الذي أخمد ثورة الفلاحين المصريين في الدلتا وانما أيضا باعتباره ابن والي سابق علي مصر يدعي أفيديوس هيلـودوروس كان يحكم مصر في سنوات الإمبراطور انطونيوس بيوس .

ولكن ثورة افيديوس كاسيوس سرعان ما انهارت بنفس السـرعة التي اندلعت به فبينما كان ماركوس اوريليوس يستعد للحرب ضده قتـل كاسيوس علي يد أحد اتباعه من القادة بعد حوالي ثلاثة اشهر من تمتعـه من اللقب الإمبراطوري وعادت قواتهم إلى طاعة الإمبراطور مـاركوس اوريليوس مرة أخرى أما مايكيانوس الذي ربمـا كـان ابـن افيـديوس كاسيوس والذي عينه كاسيوس ليتولى أمر الإسكندرية فقد لقى حتفه علي ايدي الجنود هناك في الإسكندرية [٣٦] .

٣- زار ماركوس اوريليوس الولايات الشرقية في العام التـالي وعامل هذه الولايات بالرفق واللين بعد تمردهم .

ومما يجدر ذكره أن أفيديوس كاسيوس لم يصدر نقـودا تحمـل اسمه في الإسكندرية كما يفعل معظم مغتصبي العرش وعلي الرغم مـن أن الإسكندرية قد وقفت إلى جانب كاسـيوس بصـورة حماسـية فـان الإمبراطور قد صفح عن المدينة بل وحتى الافراد الذين كانوا متورطين بصورة خطيرة في تلك المؤامرة مثل أفراد عائلة كاسيوس وكذلك والـي مصر في ذلك الحين وهو جايوس كالفسيوس ستاتيا نوس كانت عقوبتهم الغرامة والنفي فقط وهناك نقش مقدم من فرقة الحامية قرب الإسـكندرية

تكريما للإمبراطور ماركوس اوريليوس يسجل زياراته إلى الإسكندرية بعد القضاء علي مؤامرة أفيديوس كاسيوس .

٤- لم يكن تسامح الإمبراطور ماركوس اوريليوس مع عائلة كاسيوس فائدة أو جدوى علي المدى الطويل لان من أول الأعمال التي قام بها كومودوس بعد توليه العرش أن اعدم كل أفراد عائلة كاسيوس وعاقب علي ما يبدو من تعاطف معهم من السكندريين حيث كان كومودوس قد زار الإسكندرية مع أبيه بعد أن انتهت ثورة المصريين ومؤامرة كاسيوس وكان علي علم تام في موقف الأطراف المختلفة في مدينة الإسكندرية .

كومودوس ١٧٦ : ١٩٢ م

كان الخطأ الوحيد الذي اخذ علي ماركوس اوريليوس انه اختار ابنه كومودوس ليخلفه علي عرش الإمبراطورية ، ولقد أشركه قبل وفاته بنحو أربعة سنوات إشراك تاما في السلطة ولم يدخر رجال العلم جهدا في تعليم كومودوس وتوسيع مداركه ليصبح شخصا جديرا بالعرش ولكن كل هذه المجهودات ضاعت هباءا لعدم وجود الميول والاستعدادات . تولى كومودوس عرش الإمبراطورية بعد وفاة أبيه وكان ميالا إلى العنف والانتقام فقضى علي أسرة الوالي كاسيوس [٣٧] .

قام الإمبراطور كومودوس ببناء أسطول جديد لنقل الغلال من شمال أفريقيا إلى روما لمواجهة الموقف إذا تأخر القمح المصري عن روما [٣٨] ، ولم يقدم الرومان علي هذه الخطوة الهامة إلا في نهاية القرن الثاني الميلادي مما يدل علي اضطراب الأوضاع في مصر .

تقييم للفترة الممتدة من عهد فسبسيان إلى كومودوس

١- في خلال الجزء الأكبر من القرن الثاني الميلادي من حكم الرومان يبدو أن قدرا من الرخاء قد عم مصر . فقد استمر التوسع في

التجارة مع الشرق و في عهد انطونيوس بيوس أو ماركوس اوريليوس وصل تجار رومان إلى الشرق الأقصى في الصين وأمكن اختصار مدة الرحلة إلى الهند باستغلال الرياح الموسمية من ناحية واصبحت الرحلة إلى الهند من ناحية أخرى تتم في عرض المحيط مباشرة من شبه الجزيرة العربية إلى الهند ولم تعد تسير بمحاذاة الشاطئ .

ويبرز بليني المدى الذي وصلت إليه حركة التجارة في الشرق ويقدر قيمة الواردات السنوية من شبه الجزيرة العربية والهند بحوالي مائة مليون سستار في بداية هذه الفترة المذكورة .

ويرجح أن التجارة مع هذه المنطقة قد تحولت تدريجيا من استيراد سلع الرفاهية من جنوب الهند والتي كان يدفع ثمنها ذهبا إلى استيراد القطن وبعض المواد الخام الأخرى من شمال الهند فكانت تتم مقايضتها ببعض السلع الأخرى وكان الغرض الذي من اجله أن اقام هادريان طريقا من بيرنكي إلى انتينوبوليس هو الاستحواذ علي جزء من هذه التجارة الشرقية واصبح هذا الطريق بديلا للطرق القديمة من ميوس هورموس وبيرنيكي علي البحر الأحمر إلى قفط في وادي النيل واصبحت التجارة في أيدي السكندريين بدرجة كبيرة وتمتعت المدينة بمكانة عظيمة جدا كمركز للتبادل التجاري ولعل إصدار العملة في الإسكندرية يعكس تلك الأهمية وقد ساعدت دار سك النقود الكبرى بالإسكندرية تحت حكم نيرون علي تثبيت قيمة العملة إلى حدا ما وصارت وحدة العملة السائدة هي الأربعة دراخمات الفضية المنخفضة القيمة ولكن نشأت وتطورت عملة برونزية مرتبطة بها ومرتبطة كذلك بالعملة الرومانية تحت حكم أباطرة الأسرة الفلافية ووصلت هذه العملة الجديدة أقصى أهميتها تحت حكم تراجان .

٢- في حوالي منتصف الفترة المذكورة كانــت هنــاك بعــض الدلائل علي تدهور وانحلال الرخاء الاقتصادي وهناك قــرائن واضــحة علي هذا التدهور تتمثل في التوسع في نظام الأعباء الإجبارية في شــغل الوظائف المحلية لانه كان من المستحيل في ذلك الوقت إيجاد مرشــحين متطوعين لشغل هذه الوظائف والقيام بأعباء الإدارة دون مقابــل وفــي حوالي أواخر الثلث الأول من القرن الثاني المــيلادي اصــبح التعيــين إجباري لهذه الوظائف هو القاعدة وهناك أمثلة متزايدة علي فرار هــؤلاء المعينين إجبارياً من مواطنهم لتجنب هذه الأعباء وصدرت مراسيم مــن الولاه تدل علي مدى انتشار هذه الممارسات علي نطاق واسع وتطالــب الهاربين بالعودة إلى مواطنهم وتعرض عليهم الإعفاء من الكثيــر مــن التزاماتهم إذا اطاعوا الأوامر بالعودة إلى مواطنهم ، كما وجهــت ثــورة اليهود في زمن تراجان ضربة قاسية إلى الزراعة المصرية بسبب انشغال عدد كبير من المزارعين في الميلشيات المسلحة لمواجهة اليهود وتــركهم الزراعة لبعض الوقت كذلك فان نتائج ثورة الفلاحين المصريين في الدلتا في زمن ماركوس اوريليوس كانت شديدة الخطورة لان هناك إحصائيات من إقليم مندس Mendes بالدلتا من حوالي تلك الفترة تدل علي تنــاقض كبير في إعداد سكان قرى ذلك الإقليم ولكن هذا التدهور كان ملحوظــا في مناطق أخرى من البلاد مثل الفيوم في نفس ذلك التاريخ تقريبا .

وربما كان السبب في ذلك يعود إلى أمور عامة أخرى مثل المغالاة في فرض الضرائب الباهظة وعدم المحافظة علي الجسور والقنوات .

ومن مظاهر هذا التدهور أيضا أن إمدادات القمح المصرية إلــى روما في عهد الإمبراطور كومودوس لم تكن كافية مما جعلــه يســتعين بأسطول قمح من شمال أفريقيا كإمدادات إضافية مما يؤكد تدهور الإنتاج الزراعي في مصر في تلك الفترة .

ضعف وانحلال النظام في الولاية ١٩٣ : ٢٨٤ م

١- الإمبراطور بيرتيناكس :

أن الوثائق المؤرخة في فترة حكم بيرتيناكس القصيرة تبرز الفترة التي استغرقتها أثناء وصوله إلى العرش من روما إلى مصر فقد تم إعلانه إمبراطوراً في أول يناير سنة ١٩٣ وفي السادس من مارس اصدر والي مصر هانتينوس سابينوس أوامره بإقامة الاحتفالات لمدة خمسة عشر يوم في مصر احتفالا بوصول الإمبراطور إلى العرش .

وقد يكون الوالي قد اتخذ هذه الخطوة بمجرد تلقيه معلومات رسمية عن الأحداث في روما .

وعلي الرغم من أن صياغة أوامر الوالي بهذا الشأن توضح أن سابينوس كان بعيدا عن الإسكندرية عند صدورها فمن المحتمل أنه كان في ممفيس أو بالقرب منها حيث كان الوالي يعقد محكمته في العادة في شهر مارس من كل عام .

بذلك قد استغرقت أنباء وفاة بيرتيناكس فترة طويلة قبل أن تصل إلى مصر فقد اغتيل الإمبراطور في روما في ٢٨ مارس [٣٩] بينما كان اسمه لا يزال مستهلا في تاريخ إحدى الوثائق في مصر في ١٩ مايو .

٢- بيسكنيوس نيجر :

يبدو أن طريقة ديديوس جوليانوس في حكم روما لم يعترف به إطلاقاً كإمبراطور في مصر حيث لم تصدر عملة باسمه في دار سك النقود بالإسكندرية التي سبق أن أصدرت عملات باسم بيرتيناكس وزوجته ، وكما لم تؤرخ باسم جوليانوس أي وثيقة مصرية .

فقد كان للمصريين مرشحهم في عرش الإمبراطورية ممثلا في شخص بيسكنيوس نيجر القائد الروماني علي سوريا ويرد اسمه في تاريخ

إحدى الوثائق الرسمية في ١٤ يوليو سنة ١٩٣ أي بعد آخر وثيقة ورد فيها ذكر بيرتيناكس بأيام قلائل .

وكان هذا القائد يقود القوات في أسوان Syene لحماية الحدود ضد قبائل البدو الصحراء وقد اكتسب شعبية بين المصريين بسبب حزمه في فرض النظام علي رجاله ومنعهم من القيام بالسلب والنهب كالمعتاد ضد السكان الذين أرسلوا لحمايته .

ولذلك فعندما أعلنته الفرق السورية إمبراطوراً وقف إلى جانبه الجيش والشعب في مصر وصدرت نقود وعملة تحمل اسمه دليلا علي الاعتراف به كإمبراطور (٤٠) .

سبتميوس سيفيروس ١٩٣ – ٢١١ م

١- في الصراع الذي دار بين سبتميوس سيفيروس ونيجر علي العرش الإمبراطوري وضح تضائل أهمية تاج مصر من الحبوب علي مقدرات الحكم في روما فبمجرد أن أصبح لسيفيروس السيادة علي روما أسرع بتأمين شمال أفريقيا خشية أن يستولى عليها نيجر من مصر فيضع يده علي أهم مصدريين للامتداد بالحبوب ويتمكن من تجويع روما واخاضعها بينما في أيام فسبستيان كان من الممكن تحقيق ذلك بالاستيلاء علي مصر وحدها .

ومن المحتمل أن سيفيروس قد تمكن من الاستيلاء علي مصر من شمال أفريقيا قبل المعركة النهائية مع نيجر في موقعة كيزيكوس واقدم وثيقة أرخت باسم سيفيروس في مصر ترجع إلى تاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣ وهي من اوكسيرينخوس .

ومن الواضح أن الوالي مانتينوس سابينوس الذي استمر في الولاية علي مصر تحت حكم بيرتيناكس ونيجر وسيفيروس لم يتخذ موقفا حازما في النزاع بين الطرفين المتنازعين علي عرش الإمبراطورية نيجر

وسيفيروس ومن المحتمل جدا أن المصريين عموما كانوا مستعدين لقبول الطرف الأقوى والاعتراف به .

٢- في العام الثامن من حكمه سنة ١٩٩ م زار سيفيروس مصر واحدث تغييرات هامة في حكم البلاد . وكانت زيارته علي نفس نمط زيارة هادريان من حكمه حيث دخل إلى مصر من فلسطين عن طريق بلوزيوم وامضى بعض الوقت في الإسكندرية ثم صعد في النيل جنوبا إلى طيبة ، وكان هذا هو نفس خط السير التقليدي لأي سائح روماني لمصر.

وينعكس صدى سيفيروس إلى الإسكندرية في العملات السكندرية التي صدرت احتفالا بتلك المناسبة وهي تشبه تماما العملة السكندرية التي صدرت للاحتفال بزيادة هادريان من قبل مع تغير واحد هو صورة الإمبراطور فقط (٤١) .

ومثل هادريان اقام سيفيروس كثيرا من المباني في الإسكندرية فأقام حمامات عمومية وجمانزيوم ومجمعا للآلهة بالإسكندرية مثل هادريان أيضا زار سيفيروس تمثال ممنون الضخم الذي يصدر أصواتاً مع شروق الشمس ولكنه الحق الضرر بالتمثال حيث يعتقد أن سيفيروس هو الذي قام بإعادة بناء الجزء العلوي من هذا التمثل الضخم وبذلك هدم السطح الخارجي لأنه كانت تصدر منه الأصوات عند شروق الشمس .

٣- أما بالوثائق الجدارية فقد فاق سيفيروس نظيره هادريان فإذا كان هادريان قد أسس مدينة انتينوبوليس ومنحها مجلسا للبولي فان سيفيروس منح مجلسا للبولي في الإسكندرية وكذلك من المرجح انه قد منح مجالس تشريعية لكل عواصم النومات المصرية . ومن المحتمل أن يكون ذلك جزءا من سياسة مدروسة كانت تهدي إلى تقوية النفوذ الروماني في مصر تحت الأنماط اليونانية في المدن وكذلك تحسين الجهاز الإداري فيما يتصل بجباية الضرائب .

وفي الوقت ذاته يقال أنه أحدث تغيرات كبيرة في القــوانين فــي مصر وما يؤيد ذلك الأجوبة الخطية للإمبراطور في أثناء زياراته إلــى الإسكندرية علي بعض الأسئلة القانونية الموجهة عن مشكلات السكان في مصر والتي وردت إلينا في وثيقة مؤرخة في الفترة ما بين ديسمبر ســنة ١٩٩ م إلى أبريل من سنة ٢٠٠م من الإسكندرية (٤٢) .

٤- لا يتضح أن مبتيموس سيفيروس قــد اتخــذ أي إجــراءات عسكرية محددة في أثناء زياراته إلى مصر فقد منعه المرض من الــذهاب إلى منطقة الشلال والحدود الأثيوبية وعلي الرغم من وجود مبنى يعود إلى فترة حكمه في بريميس في النوبة بما قد يوحي بأنه قد كانت هنــاك نيــة للتحرك إلى الجنوب منها فإننا لا نستطيع أن نؤكد ما يوحي به هذا المبنى.

٥- كان للحروب الأهلية في أرجاء الإمبراطوريــة فــي عهــد سيفيروس أثرها يعني نشر الاضطرابات من جانب القوات المشتتة ومــن جانب الناس الذين كانوا يتنقلون بين الولايــات ويكســبون قــوتهم مــن اللصوصية والسرقة وقطاع الطرق في معظم بلدان البحر المتوسط وفــي مصر تبرز هذه الظاهرة من خلال مرسوم للوالي ســوباتيانوس اكــويلا تحت حكم سيفيروس يصدر فيه أوامر بمحاولة وضع حد لتلك الأعمــال كما أن مرسوم مماثلا صدر عن الوالي الثاني بايبيوس جونيكينوس تحت حكم كراكلا يصدر فيه أوامر مشددة جدا للمــوظفين المحليــين لتعقــب اللصوص ومعاقبة من يأويهم (٤٣) .

الإمبراطور كراكلا ٢١١ – ٢١٧ – جيتا ٢١١ – ٢١٢م

١- تحسن وضع السكان المتأغرقين في مصر بالمنحــة التــي قدمها لهم الإمبراطور سبتميوس سفيروس وهي المجالس التشريعية فــي عواصم الأقاليم وازداد هذا التحسن بمرسوم أصدره الإمبراطور كــراكلا بمنح المواطنة الرومانية لكل سكان الإمبراطورية باستثناء Dediticii أي

المستسلمين وكانوا المصريين يعتبرون من هذه الفئة فلم يستفيدوا من مرسوم كراكلا ومع ذلك فقد استفاد بمنحة المواطنة الرومانية عدد كبير من سكان عواصم الأقاليم (٤٤) .

٢- كان كراكلا قد رافق أبيه في زياراته إلى مصر سنة ٢٠٠ م وقد زار الإسكندرية بعد ذلك مرة أخرى بعد ١٥ عاما أي سنة ٢١٥ م ولكن نتائج هذه الزيارة الأخيرة غير سارة لسكان تلك المدينة وقد مارس السكندريون هوايتهم ومواهبهم في هجاءه فسخروا منه ومن محاكاته وتقليده للابطال امثال الاسكندر واخليوس ومن اغتياله لاخيه جيتا صمم علي الانتقام منه ونتيجة علي ذلك قام كراكلا بقتل الزعماء السكندريين الذين خرجوا لاستقباله عند ضواحي المدينة واطلق قواته علي المدينة فاجتاحوا وأمعنوا القتل بين سكانها في مذبحة استمرت بضعة أيام وقتل عدد كبير من السكندريين كما قام كراكلا بطرد كل المصريين من أهل الريف من الإسكندرية فيما عدا بعض ما تحتاج المدينة إلى خدماتهم من حرفيين وبحارة من الإسكندرية وزوار المدينة من يأتون للسياحة أو زيارة سرابيس أو بمهمة محددة يعودون بعدها لمواطنهم .

كما ألغى كراكلا العروض والاحتفالات العامة وأمر بإقامة نقاط حراسة في الإسكندرية لإرهاب سكانها (٤٥) .

وعلي الرغم من شدة وقسوة هذه الإجراءات فربما كان ما يبررها في ذلك الحين فقرار طرد القرويين من الإسكندرية مثلا يوحي بأن اللصوص الذين كانوا يمارسون السرقة والفساد في الريف تحت حكم سيفيروس ربما نقلوا نشاطهم إلى الإسكندرية وهي المدينة المزعجة والمضطربة أصلاً .

تدهور وضع مصر الاقتصادي وأهميتها السياسية خلال القرن الثالث الميلادي :

١- هناك بعض الأمثلة التي تدل علي تدهور مكانة مصر في الإمبراطورية الرومانية بعد أن كانت ذات تأثير كبير علي مقاليد الأمور في روما من هذه الأمثلة ما ذكرناه من قبل عن منافسة شمال أفريقيا لها كمصدر رئيسي آخر لتزويد روما بالقمح بعد أن كانت مصر من قبل هي المصدر الرئيسي للقمح الوارد إلى روما من الولايات وكان من الممكن وقتها لأي قائد سياسي أو عسكري طموح أن يستولى عليها وان يضمن عرش الإمبراطورية كما فعل فسبسيان في القرن الأول الميلادي .

هذا التدهور في أوضاع مصر الاقتصادية في القرن الثالث الميلادي انعكس بصورة مباشرة علي أهميتها السياسية فبعد أن كان الإمبراطور أغسطس قد حرم علي أعضاء السيناتو زيارة مصر إلا بإذن شخصيا من الإمبراطور نظرا لأهميتها السياسية وموقعها المؤثر كما رأينا من قبل كيف وبخ الإمبراطور تيبريوس جرمانيكوس عندما زار مصر بدون إذن منه وقد ظل تحريم زيارة أعضاء السيناتو لمصر بدون إذن شخصي من الإمبراطور ساري المفعول إلا اوائل القرن الثالث الميلادي.

ففي أوائل القرن الثالث الميلادي انحدر وضع مصر الاقتصادي والسياسي فتم التجاوز عن إذن الإمبراطور في زيارة أعضاء السيناتو لمصر بل وسمح لبعضهم بأن يشغل وظائف في مصر لأول مرة .

وفي الصراع الذي نشب بين الإمبراطوريين ماركينوس ٢١٧-٢١٨م وايلاجبالوس ٢١٨-٢١٢ م عين ماركينوس جوليوس بازليانوس والي علي مصر وجعل أحد أعضاء السيناتو ويدعي ماريوس سكندوس الرجل الثاني بعد الوالي في مصر أو نائبا للوالي، ولكن بعد أن تمكن ايلاجبالوس من الوصول إلى العرش الإمبراطوري بتأييد من القوات

الرومانية في سوريا نشبت معركة في مصـــر بـــين انصـــار الطـــرفين المتصارعين انتصر فيها أنصار ايلاجبالوس وقتل فيها ماريوس سكندوس بينما فر الوالي خارج مصر (٤٦) .

٢- لم يعد يخشى علي العرش الإمبراطوري في روما مـــن أن يصل أي شخص إلى حكم مصر بل علي العكس أصبحت الولاية علـــي مصر وسيلة لابعاد الأشخاص الطموحيين علي المواقع المؤثرة في روما ففي فترة حكم الإمبراطور سيفيروس الاسكندر ٢٢٢ / ٢٣٥م قاد شخص يدعي Epapthus تمردا وعصيان بين صفوف الحرس الابتـــوري فـــي روما ثم أرسل بعد هذا التمرد والي علي مصر وكما لو كانت مصر منفي يبعد إليه فلا تتاح له فرصة تدبير المكائد بعد أن يبتعد عن رفاقـــه مـــن رجال الحرس الابتوري الذي كان يخشاه الإمبراطور وبعد ذلـــك تمكـــن الإمبراطور من اعدام هذا المتمرد في هدوء .

٣- يجئ بعد ذلك في ترتيب الاباطرة في القرن الثالث الميلادي ماكسمينوس ٢٣٥ : ٢٣٨ م ثم جور ديانوس ثم بالبينوس وبوبينوس ثـــم جورديانوس الثالث ٢٣٨ : ٢٤٤م ثم فيليب الأول ٢٤٤ : ٢٤٩ م وفـــي خلال تلك الفترة كلها لم يكن لمصر أدنى أهمية أو تأثير لصـــنع القـــرار بالنسبة للأباطرة الرومان أو شئون الحكم في روما وكـــان المصـــريون يرضخون ويمتثلون لاحكام القدر ولقرارات الولايات الرومانية الغربيـــة وكان الموظفون والحكام في الإسكندرية يعترفون بلا أدني مناقشة بأدعياء العرش الذي يصلون إلى عرض الإمبراطورية .

ويمكن أن يقال أن السبيل الوحيد الذي لعبت مصر من خلالـــه دورا في السياسة الإمبراطورية في ذلك الحين كان من خلال فقرها وعجز مواردها فحين عجزت الحكومة المركزية في عهد فيليب الأول عن جمـــع الضـــرائب

والدخل من الولايات الشرقية الرومانية ومـن بينهـا مصـر اضـطر هـذا الإمبراطور إلى التوصل إلى سلام مع القوط علي نهر الدانوب .

٤- ويأتي بعد ذلك حكم الإمبراطور ديكيـوس ٢٤٩ : ٢٥١ م وفي عهده برز عنصر جديد من عناصر القلق لأباطرة روما فيها يتعلـق بمصر وبدأ الإحساس بهذا العنصر الجديد في السياسة المصرية ولم يكن هذا العنصر إلا ازدياد قوة ونمو الديانة المسيحية مما اجبر حكام الـبلاد علي الاعتراف بوجودها [٤٧] .

وفي الواقع لقد كانت هناك محاولات عارضة من حـين لآخـر وذات طابع محلي في خلال القرن الثاني الميلادي تهدف إلى منع انتشار هذه الديانة الجديدة ولكن أول هجوم عام علي تلك الديانة في مصر حدث في عهد ديكيوس عندما اصبح امتحان منظم لاختبار ، كان كل شـخص يجبر بمقتضاه علي تقديم الاضحيات والقرابين للآلهة وان يتـذوق هـذه القرابين ومن يرفض القيام بذلك يقع تحت طائلة الاتهـام ويعـدم بينمـا يحصل من يؤدي هذا الاختبار ويستجيب له علي شهادة من لجنة الامتحان تفيد بحسن أدائه للطقوس المطلوبة وقد وصلتنا أمثلة عديدة علي مثل هذه الشهادات في أوراق البردي [٤٨] .

٥- يأتي بعد ذلك من الأباطرة تريبونيـانوس جـالوس ٢٥١ – ٢٥٣ م ايمليانوس ٢٥٣ م ثم فاليريـانوس ٢٥٣ – ٢٦٠ م وجـالينيوس ٢٥٣–٢٦٨م وأعلن اثنان من القادة وهما مرقيانوس وكويتوس اباطرة في سوريا في صيف عام ٢٦٠ : ٢٦١م ثم يجـئ بعـد جـالينيوس حكـم الإمبراطور كالوديوس القوطي [٤٩] ٢٦٨ : ٢٧٠ م .

زينوبيا :

وفي عهد كالوديوس القوطي حدثت اضطرابات في مصر كـان مصدرها القوة المتناهية لزينوبيا ارملة أودينات Odenathus أمير بالميرا

وكان جالينيوس قد منح قيادة الولايات الشرقية لاوديتات ولكن لا يتضح ما إذا كانت هذه القيادة لاودينات تعطيه أي سلطة علي مصر أم لا.

علي أي حال ليست لدينا وثائق محلية من مصر ذكر فيها أودينات ولكن في العام الثاني من حكم كالوديس القوطي دعي أحد المصريين ويدعى تيماجينيس البالمرين لدخول البلاد واستجابا لهذه الدعوة أرسلت زينوبيا ملكة بالميريا جيشا من ٧٠٠٠٠ جندي تحت قيادة زابداس إلى مصر، وعلي الرغم من مقاومة الرومان العنيدة فقد هزموا في أول الأمر بسبب قلة عددهم بالمقارنة بجيش زابداس .

ولكن عندما انسحب الجزء الأكبر من جيش بالميرا وترك بمصر حامية صغيرة من ٥٠٠٠ رجل قام القائد الروماني في مصر Probus بطردهم ولكن زابداس وتيماجنييس عاد مرة أخرى ولقى في بادي الأمر هزيمة علي يد Probus ولكن حين حاول الأخير أن يقطع اتصالاتهم بسوريا والاستيلاء علي موقع من قرب من حصن بابليون تفو قت معرفة تيماجنييس للبلاد علي قرب من حصن نابليون تفوقت معرفة تيماجنييس للبلاد علي Probus فضمن النصر للبالمريين وانتحر Probus بعد ذلك.

وعلي الرغم انه كان بإمكان زانوبيا ملكة بالميرا أن تسيطر علي مصر سيطرة فعالة بعد هزيمة Probus وكانت متأهبة لقتال أي حاكم منافس فإنها كانت لا تزال تعترف بسيادة الإمبراطور الروماني علي مصر وكانت كل الأحداث والتواريخ رسمية تدون اسم الإمبراطور كالوديوس القوطي . (٥٠)

ولا يتضح في الواقع ما إذا كان القائد Probus الذي حارب البالمريين كان والي علي مصر ممثلا للامبراطور كما كان زابداس ممثلا للملكة زانوبيا .

٦- يجئ بعد ذلك من أباطرة الرومان كونيتيللوس ٢٧٠ م ثم اوريليانوس ٢٧٠-٢٧٥ م وجد اوريليانوس انه من الضروري أن يتخذ إجراءات للتعامل مع مشكلة بالميرا التي اصبح لها مكانا ووضعا علي درجة كبيرة من الأهمية .

وكانت الخطوة الأولى أن اعترف أوريليانوس رسميا سنة ٢٧٠ م بوهب اللات ابن زينوبيا كحاكم مشارك له في الشرق وفي العامين الأول والثاني من حكم اوريليانوس أصدرت دار سك النقود بالإسكندرية عملات تحمل علي وجهها صورة رأس الإمبراطور اوريليانوس وعلي ظهرها صورة رأس وهب اللات .

إما التاريخ علي ظهر هذه العملة فيذكر سنوات حكم وهب اللات في السنة الرابعة ، الخامسة مما يبدو انه يتضمن اعتراف بأثر رجعي بوضعه كحاكم علي أنه يبدأ مع بداية حكم كالوديوس القوطي . ولكن قبل مرور عام علي ذلك انتهت هذه الشركة حيث اعلن وهب اللات نفسه حاكما منفردا ومستقلا وكانت النتيجة مباشرة لذلك الفعل هي الحرب الصريحة بين روما وبالميرا .

٧- استغرق الصراع بين روما وبالميرا فيما يتعلق بمصر فترة قصيرة فمن المحتمل أن وهب اللات قد اتخذ خطواته الحاسمة بالانفصال عن روما في اواخر فبراير سنة ٢٧١ م وفي شهر اغسطس من نفس العام كان الرومان قد استعادوا مدينة الإسكندرية والعملات التي صدرت من الإسكندرية باسم وهب اللات وزينوبيا وحدها عملات قليلة وكلها مؤرخة بالعام الخامس من حكم وهب اللات إما العملات الصادرة باسم اوريليانوس فقد بدأت في الصدور مرة أخرى قبل نهاية هذا العام [٥١] .

وقام اوريليانوس نفسه بالحرب ضد بالميرا وترك إخضاع مصر لبرويوس الذي يبدو انه لم يواجه معارضة قوية حيث يبـــدو أن القـــوات البالميرية في مصر قد استدعيت للدفاع عن عاصمتهم .

وفي العام الثاني ٢٧١ م وقع بمصر اضطراب اكثر خطورة من خلال تمرد جديد فبعد أن استولى اوريليانوس علي بالميرا واسرى ملكتها زينوبيا عاد إلى روما وبعد ذلك مباشرة اندلعت ثورة في بالميرا ومثلهـــا في الإسكندرية التي حذت حذوها وقد كانت العلاقات التجارية وثيقة بـــين مصر وبالميرا وكان قائد التمرد الثورة في الإســـكندرية إغريقـــي مـــن سليوقية ويدعي فيرموس وكان من تجار الإسكندرية الأثرياء وكان يعمل بالتنسيق ليس فقط مع بالميرا وانما أيضاً مع بلاد النوبة حيث كان يرتبط بهم بعلاقات من خلال التجارة النهرية في قلب افريقيا .

ولكن اوريليانوس لم يتخذ أي إجراء بالنسبة لمصـــر إلا بعـــد أن سحق تمرد بالميرا نهائيا فتوجه بعد ذلك إلى الإسكندرية وهزم فيرموس وحاصر المتمردين في حي بروخيوم واجبرهم علي الاستسلام وفي خلال هذا الصراع دمر هذا الحي تقريبا وكذلك أسوار المدينة وبعد ذلك تـــرك اوريليانوس برويوس قائدا علي مصر وكان عليه أن يتعامل مـــع أهـــل النوبة وكان هؤلاء قد اجتاحوا مصر العليا حتى بطلمية وقفـــط وتمكـــن برويوس من طردهم إلى وطنهم علي مراحل وبالتدريج (٥٢) .

٨- بعد ذلك يأتي من اباطرة الرومان تـــاكتيوس ٢٧٥-٢٧٦ م وبعد ذلك ادعى أخوه ويدعي فلوريانوس حقه في عرش الإمبراطوريـــة ولكن الفرق المصرية التي يبدو أنها دعمت خلال الحرب مـــع بـــالميرا وخلال تمرد فلوريانوس واصبح لها نتيجة لذلك ثقل غير عاجي في حسم الأمر مع المتنافسين علي العرش الإمبراطوري عينت قائـــدها بريـــوس إمبراطوراً ٢٧٦-٢٨٢ م ووافق السناتور وجيوش الشـــرق علـــي هـــذا

التعيين بينما قتل فلوريانوس علي أيدي قواته في طرسوس بسوريا وبذلك اصبح بريوس إمبراطور قبل أن يكمل تأمين حدود مصر العليا .

ثم يأتي بعد ذلك في ترتيب الأباطرة كاروس ٢٨٢-٢٨٣ م ثـم كارينوس ونميويانوس ٢٨٣-٢٨٤ م .

فئات السكان في مصر الرومانية

في حوالي سنة ١٠٠ م كتب بليني الأصغر وهو رجلا علي قدر كبير من الثقافة ومليونير ومن الموظفين العموميين ذوي المكانة البـارزة كتب يخطب الإمبراطور تراجان قائلا " اشكرك يا سيدي علـي منحـك المواطنة الرومانية علي وجه السرعة لطبيب هيبوكراتس Chiropractor ولكن ذكرني أشخاص اكثر دراية مني بالقانون بانه بما أن هذا الطبيـب مصري فكان ينبغي أن احصل له أولا علي المواطنة السـكندرية ولـذا فإنني أرجو أن تتكرم بمنحه المواطنة السكندرية حتى يمكننا أن نسـتمتع بهذه المنحة منك بما يتفق قواعد القانون " .

وقد رد عليه الإمبراطور كالآتي :

" اتباعا للقواعد التي اقرها الأباطرة فان سياستي هـل إلا امـنح المواطنة السكندرية بسهولة ولكن بما انك قد حصلت بالفعل علي المواطنة الرومانية لطبيبك فإنني لا أستطيع أن أرد طلبك الإضافي ولكن لابـد أن يوافيني وتحيطني علما بالنوموس الذي ينتمي إليه حتى يمكني أن اكتـب إلى صديقي بومبيوس بلانتا والي مصر " (خطابات ٦ ، ٧)

هذان الخطابان المتبادلان بين بليني الأصغر والإمبراطور تراجـان يلخصان بدقة التركيب الاجتماعي والسياسي في مصر الرومانية وهذا البنـاء الاجتماعي اخذ شكلا هرميا ويأتي علي قمة هذا الهرم وفي أعلى درجاته ذلك العدد القليل من المواطنين الرومان الذين يقيمون في تلك الولاية .

وتأتي بعدهم شريحة أكبر عرضاً وأقل من حيث المميزات وهـم الإغريق ويأتي بعدهم اليهود واخيرا تأتي القاعدة العريضة التي تضم بقية السكان من مزارعين وفنيين وملاك أراضى وتجار وهذه القاعدة بها قلة من الأغنياء وكثرة من الفقراء وتتمثل القلة الثريـة فـي سـكان مـدن وعواصم الإقليم الذين منحوا بحكم وضعهم بعض الامتيازات أما الكثـرة الفقيرة فهي من القرويون الذين لم يستمتعوا بأي مميزات علي الإطـلاق وباختصار يعتبر هؤلاء هم الغالبية العظمى الذين كـانوا تنظـر إلـيهم الحكومة الرومانية نظرة احتكار بلا أي تمييز وتضعهم تحـت المسـمى المصريين وكان الحاجز الذي يحول دون التقدم من فئة أدنى إلـى فئـة اعلي حاجزا منيعا لا يمكن اختراقه إلا بقرار من الإمبراطور .

وغالبا ما كان وجهاء السكندريين يكافئون بمنحهم المواطنة الرومانية وقد كان هناك بعد كل ذلك صلة قوية كامنة تجذب مواطني هاتين العاصمتين وكان أثرياء الولايات في كل أرجاء الإمبراطورية يميلون عموما نحو رومـا ولكن كان هدف الحكام الرومان الالقاء علي التوازن الاجتماعي وبذلك لم يكن لديهم الدافع لتشجيع ارتقاء المصريين من وضعهم المحدود وفي سنة ٢١٢ م منح الإمبراطور كراكلا المواطنة الرومانية لكافة سكان الإمبراطورية ولكـن قبل ذلك علي أية حال كان المصري يمنح المواطنة السكندرية أو الرومانيـة بشكلاً استثنائياً فقط الرومان .

الرومان

١- كان حاكم الولاية يحمل لقـب والـي مصـر Preafectus Aegypti وكان يرسل من روما كممثل شخص للإمبراطور وكان يحكـم بطبيعة الحال بما يرضي الإمبراطور وكانت مدة حكم الوالي في العـادة تتراوح ما بين عام وثلاثة أعوام ونادرا ما كانت ما تزيد عن أربعـة أو

خمس أعوام وكان الوالي ونفر قليل من أعوانه من المواطنين الرومـــان يقيمون ويعملون في الإسكندرية .

وكانوا يغادروا الإسكندرية مرة واحدة كل عام أو كـــان يرافقـــه واحد أو اكثر من مساعديه الرومان لمدة اربعة اشهر أو خمســـة اشـــهر ويسافر إلى مدينة مصرية واحدة في الدلتا والأخرى في مصر العليا حيث كانت تعقد محاكم الوالي Comventus وكان يتلقى الالتماسات من لحقوا بهم ظلم ويدقق في مراجعـــة الحســـابات وينظـــر فـــي أداء المـــوظفين والإداريين ويشرف عليهم ولكن الوالي وكبار رجال حاشيته ظلوا بعيـــدا من الغالبية العظمى لســـكان الولاية وكانوا بالنسبة لهم رمـــوزا غيـــر مرئية للحكومـــة الرومانية (٥٣) .

٢- أما الرموز المرئية للحكومة الرومانية التي كـــان الســـكان يشاهدونها في كل مكان فهم جنود الحامية في الولاية وفي أغلب فتـــرات الحكم الروماني كان جيش الاحتلال يتألف من فرقتين مـــن المـــواطنين الرومان بالإضافة إلى وحدات مساعدة كثيرة من أهل الولايات تحت قيادة ضباط من الرومان وكانت جميع هذه القوات تشكل مستوطنة عســـكرية يبلغ تعدادها نحو ١٧٠٠٠ أو ١٨٠٠٠رجل .

وكانت الوحدات المساعدة تضم قوات المشاة والفرسان وســـرية بحرية قاعدتها في الإسكندرية للحراسة البحرية والنهرية (٥٤) .

ونرى في الوثائق البردية أفراداً من هذه الوحدات يرابطون فـــي أماكن هامة بمصر العليا أحياناً بصورة دائمة مع حاميتهم المقيمة هنـــاك واحياناً أخرى يرسلون أفراداً أو جماعات للقيام ببعض المهام الخاصة .

وكان المواطنين الرومان هم وحدهم الذين يسجلون في الفرق وكانت مدة خدمتهم ٢٥ عاما إما القوات المساعدة فكانت كـــافئ بمنحهـــا المواطنـــة الرومانية بعد خدمة ٢٦ عاما إما إذا قامت بأداء مهام مشرفة لكن كل الســـبل

التي كانت تؤدي إلى وضع متميز ومن بينها السبيل العسكري ظلت لفترة طويلة مغلقة علي جموع المصريين من سكان البلاد الأصليين فانه حتى أواخر القرن الثاني الميلادي كان تسجيل في القوات المساعدة قاصرا علي سكان العواصم الأقاليم المصرية الذين كانوا في أغلبهم ينحدرون من العنصر الإغريقي والذين استقروا بمصر تحت حكم البطالمة (٥٥) .

٣- إلى جانب جنود وضباط الحاميات الرومانية من الرومان في مصر نجد أيضاً عددا من الأثرياء الرومان الذين كانوا يأتون ليقضوا الشتاء في مصر لاعتدال مناخها شتاءاً ليخففوا عن أنفسهم بعض العلل والأمراض في نوع من السياحة العلاجية .

كما أن هناك أخيرا عددا متزايدا من المواطنين الرومان الذين اتخذوا من مصر موطنا دائما لهم وكان قلة من هؤلاء ينتمون إلى عائلات إسكندرية حصلت علي المواطنة الرومانية إما معظمهم فكانوا من الجنود الرومان في الفرق الذين سرحوا بعد انتهاء فترة الجندية وكان بإمكان الجندي بعد انتهاء مدة خدمته أن يعيش حياة ميسورة واستقر كأحد الأثرياء نسبيا فقد كانت مكافأة نهاية الخدمة وحدها تبلغ ١٢ ألف دراخمة بالنسبة لجنود الفرق الرومانية واقل من ذلك قليلا بالنسبة لجنود الفرق المساعدة هذا بخلاف المبالغ التي يمكن أن يكون وفرها في خلال فترة الجندية الممتدة حوالي ربع قرن أن لم يكن مبذرا ومسرفا .

وكان بإمكان الجندي خلال مدة خدمته للحامية الرومانية أن يجد كثيرا من الفرص لتشغيل رأس ماله من اجل الحصول علي أرباح سريعة وسهلة وكذلك لعمل استثمارات طويلة المدى وكان من بين تلك الأنشطة المتاحة لهم شراء وبيع العبيد والحصول علي أرباح طائلة من هذه الصفقات وكذلك إقراض السكان وكانت نسبة الربح القانونية علي الديون ١% شهريا وتزيد عن ذلك في حالة عدم سداد الدين في موعده ونجد في

إحدى الوثائق جنديا يشتري مخزنا بـــ ١٣٠٠٠ دراخمة نقدا وهو مبلـــغ كبير حتى في فترات التضخم وفي وثيقة أخرى نجد أحد الضباط الرومان يمتلك قاربا نهريا حمولته ٥٠٠ إردب واستأجر شابا ليقوم بتشغيله له .

وفي وصية ضابط آخر يسجل قائمة بممتلكاته المنقولة العسكرية منها والشخصية بالإضافة إلى نقود سائلة تبلغ ٨ عملات ذهبية و ١٩٩,٥ تالنـــت من الفضة وكذلك جزءا من نقوده في صندوق محكم إما اغلب ثرواته فكانـــت عبارة عن ديون علي ناس آخرين في ١٥ قرضـــــا مختلفة (٥٦) .

٤- هناك خطاب طريف يلقي بعض الضوء علي حياة هـــؤلاء الجند الرومان المسرحين عند إقامتهم في الريف المصــــري وفـــي هـــذا الخطاب الذي يعود تاريخه إلى عام ١٣٦ م نجد جنديا يتوقع تسريحه من الخدمة العسكرية بعد عام آخر فيكتب إلى أخيه الذي سرح بالفعل ويقـــيم في قرية كرانيس بالفيوم قائلا :

" إلى أخي تيرنيتانوس الجندي الذي سرح بكرامة وشـــرف اســـتقبل حامل هذا الخطاب بتوصية مني وعرفه علي أساليب القرويون حتى لا يشعر بالإهانة فهو رجل ذو شأن كبير وثروة ويرغب في الإقامة هناك وقد اقترحت عليه أن يستأجر منزلي هذا العام والعام القادم نظير ٦٠ دراخمة وأرجـــو أن تستغل هذه الدراخمات ١٢٠ في أن تشتري بها من صديقنا تاجر الكتان قرب معبد المدينة ... (لم يكتمل النص لهشة البردية) بقراءة مـــن بـــين ســـطور الخطاب الحالي الذي اقتبسناه نشعر أن سكان المصريين لم يكونوا يرحبـــون بالجنود المسرحين ويفتحون لهم أذرعهم .

كان الأمر يعتمد إلى حد كبير إلى شخصية هذا الغريب وقـــد كـــان القرويون يتشاءمون في فئة الجنود سواء كانوا في الخدمة أو بعد تسريحهم .

وقد كانت لهذا الشكل دوافع معروفة ومفهومة فعندما كانت تظهر الوحدات العسكرية أو الضابط في القرية فقد كان ظهورهم يعنـــي انهـــم

يطالبون بشئ ما سواء كان طعاما أو ضرائب أو منازل لإيــواء الجنــد وغير ذلك .

وكانت هذه المطالب تأخذ في العادة صورة تفــويض رســمي مــن السلطة الحاكمة ولكن بالإضافة إلى هذه المطالب الرسمية كان الجندي المسلح يملأ جيوبه أيضا ويقف القرويون المذعورون لا حول لهم ولا قوة.

إذ أن هذه الأشكال من الابتزاز وربما يفكر الجندي بعد تســريحه أن يعيش كجار طيب وربما يكون خيرا لكنه إذا لم يكن كذلك فانه كــان يعد (يعتبر) عبأ ثقيلا علي المجتمع .

وعلي سبيل المثال كان إعفاءه من الكثير من الضرائب والخدمات التي تفرض علي غير الرومان تثير سخط الآخرين من الدولة ليس فقــط لسبب وضعه المتميز وانما لانه سوف يزيد من نسبة الإعفاء المفروضــة علي جيرانه من غير ذوي الامتيازات .

وقد أثبتت التجارب أن هؤلاء القادمين الجدد كانوا غالبا ما يصيرون علي ممارسة امتيازاتهم حتى آخر قطرة وكانوا يظهــرون احتكــارهم كلــه للمصريين والمصريين المتأغرقين الذين كانوا يعيشون بينهم.

وكان هذا التعالي من كثير من الجند الرومان المسرحين تعويضا للنقص الذي يشعرون به بسبب أصولهم الوضعية الحقيرة في بلادهم .

وهناك التماس مقدم ســنة ١٦٢ م مــن أحــد الجنــد الرومــان المصريين يلقي الضوء علي هذا التعالي من جانب الرومان ولا تســري بالضبط موضوع هذا الالتماس لتهشم جزء كبير من البردية ولكــن فــي الجزء المتبقي من كلمات البردية نجد هذا الجندي المسرح جايوس جالوس نيجر يقول :

" لذلك فنظرا لان هذه الإهانات التي حلت بي واضحة وبما أنني روماني واعاني من مثل هذه الإهانات التي لحقت بي علي يـد مصـري فإنني اطلب ... " (٥٨) .

٥- كما كان هناك كثير من الشخصيات القوية من بين هـؤلاء الجند المسرحين ولم يكن السبب في ذلك وضعهم المتميز فقط كرومـان وانما بسبب غناهم وثرواتهم أيضا وكان هؤلاء يعتبرون مـن الأغنيـاء بمجرد مجيئهم إلى القرية بالقياس بمستوى أهل القرية وكانوا يشـرعون في شراء وحيازة الأراضي وكانوا نشـاطهم مزدهـرا فـي الزراعـة والأنشطة المرتبطة بها ولدينا تفاصيل عن العديد من هؤلاء الأثرياء .

وهناك مجموعة كبيرة من أوراق البردي تتعلق بأحد المحـاربين القدماء الذين سرحوا ويدعي لوكيوس بيللنيوس جيميالوس الذي اسـتقر في الفيوم بعد تسريحه من خدمة الجيش حوالي ٨٠ م .

وبعد وفاته بعد حوالي ٣٠ عاما وهو في سن ٧٧ عاماً أو أكثـر كان يمتلك ضياعا مزروعة بالقرب من قـرى يوثيميريـا وديونيسـياس وثلاث قرى أخرى علي الأقل .

لقد كان له وكلاء يساعدونه في تشغيل أملاكه ومـع ذلـك فـان رقابته (إشرافه) الشخصي كان يمتد إلى أدق الأمور والتفاصيل .

وفي إحدى الوثائق الخاصة بهذا الرجل نجد سبعة وعشرين مـن العمال المزارعين يعملون في إحدى مزارعه في وقت الحصاد كما كـان يمتلك معصرة زيت وكان يرسل هـدايا لقـواد الإقلـيم عنـدما تحـل الاحتفالات ليزيد وكان يأمر بذبح عشرة من الدجاج في أعياد الساتورناليا Saturnalia وكان يضحي بإحدى العجول في المناسبات الأخرى وكـان هذا الرجل له ثلاثة من الأبناء وبنت واحدة وكانوا من أعمـدة المجتمـع المحلي في الفيوم في ذلك الوقت .

ومن الأمثلة الأخرى شخص روماني آخر يدعي جـابوس جـالوس نيجر سرح من الخدمة في سلاح الفرسان وهو في سن ٤٧ واستقر في قريـة كرانيس بالفيوم واشترى منزلا بفنائين بـ ٨٠٠ دراخمة وهو مبلغ كبير فـي ذلك الحين يدل علي كبر مساحة المنزل وأهميته وقد عاش هناك حتـى سـن ٨١ وقد عاصر الطاعون الذي اجتاح جزءا كبيرا من الإمبراطورية الرومانية بما في ذلك مصر في السبعينات من القرن الثاني الميلادي .

وفي خلال فترة وجوده في كرانيس كان يمتلك مقدار كبير مـن ممتلكاته الإضافية تتضمن مزارع في قرى عديدة وبعد وفاتـه انتقلـت الضيعة إلى ولديه وعند وفاتهما انتقلت أملاكهما إلـى أرملـة أحـدهما وأولاده حيث يبدو انه لم يكن للآخر زوجة أو ذرية .

٢- الإغريق :

١- عندما ضم الإمبراطور أغسطس مصر كان بهـا ثـلاث مـدن إغريقية تتمتع بحكم ذاتي محلي ومزايا أخرى عديدة ، وهذه المـدن حسـب ترتيب نشاطها وهي نقراطيس (كوم جعيف – البحيرة) في دلتا النيل وقـد نظمها أحد الفراعنة اعترافا بالخدمات التي قدمها إليـه التجـار والمرتزقـة الإغريق ثم الإسكندرية المدينة العظيمة علي ساحل البحـر المتوسـط التـي أنشأها الاسكندر الأكبر ٣٣١ ق.م وبعد جيل تقريبا أقام بطلميوس الأول بـن لاجوس أول حكام الأسرة البطلمية مدينة سميت باسمه مدينة بطلمية علي بعد ١٢٠ شمال غرب طيبة العاصمة الفرعونية القديمة.

وفي عام ١٣٠ م بني الإمبراطور هادريان في مصر الوسـطى مدينة رابعة هي انتينوبوليس ليخلد ذكر الشاب الوسيم أنتينـوس رفيـق الإمبراطور الذي غرق في تلك المنطقة في رحلة نيلية وقد سبق الحديث عنها من قبل .

وعلي رأس هذه المدن تبرز الإسكندرية بصـــورة هامـــة الأدب اليوناني واللاتيني وفي الوثائق البردية علي أنها سيدة المدن فـــي شـــرق البحر المتوسط والعاصمة الثقافية في العالم الهلنســـي ومفتـــرق طـــرق التجارة بين العالم اليوناني والروماني وبين اقطار الشرق والجنوب وكان العرب والأثيوبيون والهنود يترددون عليها باستمرار .

وطبقا لقول تيودور الصقلي فقد كان عـــدد ســـكان الإســـكندرية الأحرار في عهد الإمبراطور أغسطس ١٠٠٠٠٠ ممـــا قـــد يرجـــع أن إجمالي عدد سكانها كان حوالي نصف المليون .

أما معلوماتنا عن نقراطيس وبطلمية تحت الحكم الروماني فهـــي معلومات قليلة أما عن أنتينوبوليس كان البردى الذي نشر في المائة عـــام الأخيرة قد أعطانا كما وفيرا من المعلومات عنها وعن تكوينها السياســـي وامتيازات مواطنيها .

٢- ومن ابرز العناصر الشائعة في المدن الأربعة المتكررة هو تقسيمها وتسجيل مواطنيها في قبائل واحياء وهي من السمات التي تجعلها قريبة الشكل لدولة المدينة اليونانية في العصور الكلاسيكية ومن الســـمات المميزة لهذه المدن أيضا الجمنازيوم الذي ظل قائما في تلك المدن واحتفظ بطابعه كرمز مرئي علي تراث وتقاليد دولة المدينة الإغريقي وطبقا للنمط الكلاسيكي القديم فان سكان المدن الإغريقية في مصر كـــانوا يتنـــاوبون تولي مهام رئاسة الجمنازيوم (الذي يتولي امـــداد الجمنـــازيوم بالزيـــت والإضاءة ولعمل المساج) كذلك وظائف كوسميتيس التي كـــان يشـــرف علي الطقوس والشعائر التي يقوم بها الشبيبة وهي التسمية التي استمرت من العصر الكلاسيكي .

ومن بين العناصر التقليدية للحكم الذاتي في دولة المدينة اليونانية كان هناك المجلس التشريعي أو المجلس البولي Bouly الذي كان مواطنوه ينتخبون أعضاءه من بينهم (٥٩) .

وقد ظلت الإسكندرية لأكثر من قرنين تحت حكم الرومان تعاني من عدم السماح لها بتكوين مجلس البولي وكان مواطنيها يعتبرون ذلك عارا عليهم وكان سبب هذه السياسة فيما نعلم هو أن أغسطس قد جعل لذلك نوعا من العقاب لاغريق تلك المدينة بسبب العداوة التي أظهروها ليوليوس قيصر ثم له بعد ذلك .

أما عن نقراطيس وبطلمية فان هناك إشارة وحيدة في إحدى الوثائق البردية يرجح انه كان مسموحا لمدينتي بالاحتفاظ بالمجالس البولي التي كانت لديهم .

أما عن مدينة أنتينوبوليس فإننا نعرف أنها منحت في وثيقة أنشئها مجلسا للبولي وتمتعت بحكم ذاتي .

وفي حوالي سنة ٢٠٠ م منحت الإسكندرية في نهاية الأمر مجلسا للبولي عندما قرر الإمبراطور سبتميوس سيفيروس منح هذه المجالس لكل عواصم الأقاليم المصرية وهو الأمر الذي لم يدخل السرور علي السكندريين حين رأوا مدينتهم العظيمة تعامل علي قدم المساواة مع عواصم الأقاليم في الريف المصرية (٦٠) .

٣- أما من الناحية الاقتصادية فإن المميزات التي تمتع بها مواطني المدن الأربع كانت كبيرة وكانت فرص التجارة المتاحة أمام السكندريين متاحة أيضا لغير المواطنين في الإسكندرية ولكن المواطنين وحدهم كانوا يعاملون مثل الرومان من ناحية إعفائهم من ضريبة الرأس التي كانت مفروضة علي بقية سكان الولاية والتي كانت تشكل بالنسبة لهم عبئا اقتصاديا ورمز للمذلة والخضوع، وبالإضافة إلى ذلك انه خلال

القرن الأول الميلادي من الحكم الروماني في مصر يبدو انـــه لـــم يكـــن مسموحا للمصريين وانما الإغريق وحدهم بشراء بعض الأراضي العامة عندما تعرض مثل هذه الأراضي للبيع [٦١] .

ومن الأمور الواضحة في هذا المجال انه في خلال فترة الحكـــم الروماني فان كثيرا من مواطني الإسكندرية وأنتينوبوليس ربما وكـــذلك مواطني نقراطيس وبطلمية كانوا يمتلكون قطع كبيـــرة مـــن الأراضــــي الزراعية وفي بعض الأحيان ضياع كبيرة ممتدة في مناطق عديدة مـــن مصر وعلي بعد مئات الكيلو مترات عن مدنهم التي يقيمون فيها .

وكانت الأراضي الواقعة في زمام مدينة الإسكندرية معفـــاة مـــن الضرائب حينما كانوا يمتلكون أراضى في أي مكان فقد كانوا هم واسرهم معفون من الاعباء وهي خدمات اجبارية متنوعة الأشكال وتكلف صاحبها مالا ووقتا وجهدا وكانت تفرض علي السكان المحليين .

٤- أخيراً وليس أخيراً فان مواطني هذه المدن كـــانوا مـــؤهلين بالخدمة في الجيش الروماني في الفرق الرومانية وبذلك يمكن أن يصبحوا مواطنين رومان بمجرد تسجيلهم بينما كان بإمكان بقية ســـكان عواصــــم الأقاليم في مصر أن يسجلوا أنفسهم فقط في الوحدات المساعدة Auxilia وبذلك لم يمكنهم الحصول علي المواطنة الرومانية إلا بعد مضـــي ربــــع قرن من الخدمة العسكرية .

ولم تكن الإقامة بهذه المدن اليونانية تمنح صاحبها مواطنة المدينة بصورة تلقائية فقد كان الكثير من المغامرين من أهل الـــبلاد والأجانـــب ينتهزون فرص العمل التي كانت تسنح لهم في تلك المدن، كمـــا كـــانوا سكان المدينة خصوصا مدينة الإسكندرية يضمون الكثير من العبيد والخدم من كل الفئات إلى الذين يقدمون خدمات لمواطني المدينة، وكمـــا كانـــت هناك فئة كبيرة من سكان الإسكندرية تتمثل في اليهود [٦٢] .

اليهود :

١- بعد خروج اليهود مع موسى من مصر الذي ورد ذكره في التوراه نجد قرائن تثبت مجئ اليهود إلى مصر مرة أخرى منذ منتصف القرن السادس قبل الميلادي علي الأقل .

كما أن هناك بعض الوثائق من بردى والاوستراكا من القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد مكتوبة باللغة الآرامية وقد عرفتنا هذه الوثائق علي المستوطنة اليهودية عند الشلال الأول من النيل وكان يهود تلك المنطقة يقومون علي حراسة حدود مصر الجنوبية بتكليف من حكامها الفرس في تلك المنطقة يقومون علي حراسة حدود مصر الجنوبية بتكليف من حكامها الفرس في ذلك الحين وتشتمل هذه الوثائق الارامية علي وثائق زواج وطلاق وشراء العبيد أو عتقهم ووثائق عن تزويد الحامية اليهودية هناك بالإمدادات الغذائية كما نجد في هذه الوثائق تفاصيل عن حياتهم الخاصة و شكاوي وقضايا حول العديد من الأمور وانتقال إلى ملكية منازل أو أراضى بالبيع أو بالهبة وكذلك عن قروض نقدية (فائدة سنوية قدرها ٦٠ %) وكذلك قروض عادية (وفي واحدة من تلك الحالات اشتراط إعادة ضعف المقدار المقترض بعد فترة ٢٠ يوما) ونعلم من هذه الوثائق أيضا انه كان لليهود معبد في جزيرة اليفنتين يسمى Fahweh وانه قد أعيد بناءه بعد أن خرب أو دمر (ولا نعرف كيف أو ماذا دمر) كما نعلم أيضا أن آلهة أخرى كانت تعبد هناك وهو أمراً مثير للدهشة .

٢- بعد ذلك انتشرت مجموعات يهودية في مصر وازدهرت فقد سمح لهم البطالمة بان يعيشوا حسب مقتضيات دينهم ولكنهم رغم ذلك لم يكونوا منغلقين خصوصا في المراكز الحضارية في الإسكندرية أمام تأثيرات وعوامل جذب الثقافة الإغريقية ومن الأمثلة البارزة علي ذلك

Septuagirt للتوراة في اللغة الإغريقية وهي الترجمة التي تمت في الإسكندرية في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد وفي العقود الأولى من القرن الأول الميلادي انغمس فيلون وهو أحد أثرياء اليهود في الإسكندرية في الفلسفة الإغريقية وكتب أعمالاً ومجلدات كبيرة في اللغة اليونانية لا تزال نقرأها حتى اليوم وفيها مفسر في التوراه للقراء من غير اليهود في اصطلاحات ومفاهيم من التراث الإغريقي وفي إحدى كتاباته يقدر فيلون أن مليون من اليهود كانوا يعيشون في الإسكندرية في عهده وهذا رقم بلا شك كاذب ومبالغ فيه إلى ابعد الحدود لان مجمل سكان المدينة في ذلك الحين يبدو انه كان حوالي نصف ذلك العدد [٦٣] .

وكانت الإسكندرية مقسمة حين ذلك إلى خمسة مناطق كانت واحدة منهم اليهود وهي المنطقة الرابعة في مقابل تأييد اليهود للإمبراطور أغسطس فقد أكد علي الامتيازات التي يتمتع بها اليهود تحت حكم البطالمة والتي كان من بينها مجلس الشيوخ الخاص بهم في الوقت الذي أنكر فيه علي المواطنين الإغريق في الإسكندرية مجلس الشوري أو مجلس البولي الخاص بهم كما سبق أن ذكرنا مراحل العداوة والصراع بين اليهود والإغريق في الإسكندرية .

وهناك خطاب خاص ورد إلينا من وثيقة بردية كتبه أحد السكندريين به ملحوظة عابرة من سلسلة من التعليمات بخصوص بعض الأمور المتعلقة بالعمل يذكرها المرسل إلى المرسل إليه ويقول في الملحوظة العابرة " ومثل أي شخص آخر عليك أيضا أن تحترس من اليهود "

٣- تقلصت امتيازات اليهود كثيرا في أعقاب ثورات اليهود في القرنين الأول والثاني الميلادي وفي الثورة الأولى عندما حاول اللاجئون اليهود من إقليم يهودا إثارة روح المقاومة في مكان آخر بعد سقوط بيت

المقدس لتدمير المعبد اليهودي هناك سنة ٧٠ ظل يهود مصر علـــي ولائهـــم لروما ورغم ذلك فقد جرد الرومان المعبد الرئيسي اليهودي في مصر (معبـــد أويناس بالقرب من منف) جردوهم من كنوزهم وخروجهم بوحشية خشية أن يحل محل معبد اليهود في أورشليم كمركز لسخط اليهود وتمردهم .

وقد كانت تفرض ضريبة تسمى ضريبة علي اليهود كانت تفرض علي الذكور البالغين من اليهود وكان مقدارها ٢ دراخمة وكانت تســتغل في إصلاح وترميم معبد أورشليم سنويا من اجل الحفاظ علي هذا المعبـــد هذه الضريبة تضاعفت أربعة مرات واصبحت تفرض علي كل عضو في الأسر اليهودية (حتى عبيدهم بدءا من سن ٣) .

وخصصت لكبير آلهة الرومان جوبتوكابيتولينوس الذي احـــرق اليهود معبده في أورشليم خلال ثوراتهم وكان الهدف من هذه الضـــريبة تأديبا اكثر منه تعويضا ومما يؤكد هذا أن هذه الضريبة علي اليهود ظلت تجبي في القرن الثاني الميلادي أي بعد فترة طويلة من إتمـــام الغـــرض الظاهري لهذه الضريبة وهو إعادة بناء معبد جوبتر ومع ذلك فان الميزة التي كان يتمتع بها اليهود وهي العيش وفقا لقوانين أسلافهم لـــن تتـــأثر وظلت كما هي .

إما عن ثورة اليهود الثانية في مصر في أوائـــل القـــرن الثـــاني الميلادي والتي استغلوا فيها ذهاب بعض الوحدات العسكرية الرومانية من مصر لحرب البارثيين فقد اندلعت سنة ١١٤ م ، ١١٥ م ثورة وامتـــدت شرارتها إلى برقة وقبرص ويهودا وما بين النهرين ولكنها سرعان مـــا أخمدت في الإسكندرية إما في بقية الأرجاء فلم تجد بصورة نهائية إلا بعد أن اعتلى الإمبراطور هارديان العرش سنة ١١٧ م ومن فتـــرة الثـــورة اليهودية كان هناك بعض البرديات في مواقع عديدة في مصر تبرز مدى شراسة القتال واعداد القتلى والمفقودين من ديارهم وحجم التخريب الذي

لحق بالأراضي الزراعية والمباني التي هدمت أثناء اضطرابات اليهـود وهناك نقوش عثر عليها في قورينا تخبرنا عن الطـرق التـي خربـت والمباني العامة التي أحرقت خلال تلك الثورة .

وبعد نحو ١٠٠ عام من انـدلاع هـذه الثـورة كانـت مدينـة اوكسيرنيخوس لا تزال تحتفل بالانتصار علي اليهود حيث ورد في إحدى الوثائق ما يلي :

" أن حسن نوايانا إخلاصنا وصداقتنا للرومان التي أظهرها شعبنا وهو يقاتل معكم جنبا إلى جنب في الحرب ضد اليهـود (٦٥) ولازلنـا حتى اليوم نحتفل كل عام بيوم النصر "

وبعد ١٧ عاما من قمع ثورة اليهود الثانية اشتعلت بالقرب مـن يهودا آخر واعنف المحاولات اليهودية بالاطاحة بالنير الروماني وكـان يهود هذه الثورة زعيما له سحره بالنسبة لليهود يسمى باركوشيا ويلقـب بابن النجم ولكن حتى انعكاسات تلك الحركة لم تلهب نيران الثورة ضـد سلطة روما بين البقية الساكنة من يهود مصر .

المزارعون في القرى في مصر الرومانية

١- كانت القرية المصرية هي مسـتقر معظـم السـكان مـن القرويون من المهد إلى اللحد ولكن بعض مما كان يتيسر أحوالهم من بين المزارعين كانوا يسعون إلى تحسين أوضاعهم الاجتماعية والثقافية عـن طريق الانتقال من القرية للإقامة في عاصمة الإقليم ليعيش هنـاك حيـاة شبه حضارية .

وخير مثال علي ذلك يتمثل في أحد هؤلاء القرويون ويدعي سرابيون بن يوتيخيدس الذي انتقل حوالي سنة ١٠٠ م وهو في نحو الاربعين من عمره إلى مدينة هيريوبوليس هو وزوجته وأولاده الأربعة وابنته ولدينا معلومات وفيرة عن هذه الأسرة وأنشطتها من خلال

مجموعة من الوثائق البردية تبلغ نحو ١٥٠ وثيقة نشرت في القاهرة سنة ١٩٦١ [٦٦] .

ومن خلال هذا الارشيف نعلم أن سرابيون وأسرته كانوا يمتلكون أراضى زراعية وكروم ومراعي في المركز القريب من عاصمة الإقليم وكانت لديهم قطعان من الأغنام والماعز يتجاوز عددها ألف رأس وكانوا يبيعون نتاجها بالعشرات ويربحون من هذا النشاط وحده نحو ١٥٠٠٠ دراخمة سنويا .

وبالنسبة للزراعة نجد في الوثائق انهم قاموا في إحدى السنوات بحصاد ٢٣٠ أرورة من الأرض الزراعية أي حوالي ١٢٠ و ٣٠ ضعف ما قد يزرعه المزارع الصغير .

ولكن عاصمة الإقليم لم تكن تمثل علي الدوام مصدر جذب أو إغراء لكل المزارعين المتيسرين فقد كان كثيرين منهم يقنعون في البقاء في قراهم كشخصيات بارزة في مجتمعهم المحلي وكانوا يعيشون في منازل تنافس منازل عاصمة الإقليم من حيث المساحة والديكور واعداد العبيد بل أن من كان يرغب منهم في الحصول علي مستويات لائقة ومحترمة من التعليم والثقافة كانوا ينكروا ذلك ويتضح ذلك من تلك النسخ من البرديات المدون عليها أعمال هوميروس وهسيودوس ويربيدس وأفلاطون وغيرهم من الكتاب والمفكرين الإغريق في أطلال القرية القديمة وحينما كان هؤلاء القرويون الأثرياء ينشدون تسلية والترفية كان ثرواتهم تمكنهم من استئجار بعض من الراقصات والمغنيات من عاصمة الإقليم ، كما نجد في وثيقة تتمثل في خطاب إلى راقصة تدعي ايزدورا من سيدة تدعي ارتمسيا من قرية فيلادلفيا من الفيوم تدعوها فيه إلى المجئ للعمل لديها هي وراقصتان أخريتان لمدة ٦ أيام نظير ٣٦ دراخمة لليوم الواحد بالإضافة إلى أربعة أرادب من الشعير وأربعين رغيفا عن

الفترة كلها ، وتتعهد السيدة مرسلة الخطاب بالمحافظة علي ملابس الراقصة وحليها الذهبية ونقلها هي وزميلتها عند قدومهن من عاصمة الإقليم وعند العودة علي حمارين .

٢- ولكن أمثال هؤلاء الأثرياء من القرويون من رجال أو سيدات كان عددهم محدود جدا بالمقارنة لبقية سكان القرية الذين كان معظمهم يعيش بالكاد فوق حد الكفاف .

وكان الرجال والنساء والأطفال والحيوانات الأليفة يحتشدون في أحياء ومنازل ضيقة ومزدحمة وكان هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد قد اندهش من عادة المزارعين المصريين في تربية الحيوانات الأليفة داخل منازلهم قال انه الشعب الوحيد الذي يفعل ذلك ومما يدل علي ازدياد ازدحام المنازل والأحياء القروية أننا نجد في الكثير من الوثائق عقود بيع لكسور صغيرة عن المنازل أو ١٠/١ أو ٢٤/١ أو ٤٢/١ من مساحة المنزل في بعض الأمثلة .

إما عن أعداد السكان في القرى فليست لدينا معلومات إحصائية دقيقة لكن هناك بعض المعلومات التقريبية في بعض الحالات في الوثائق.

ففي إحدى الوثائق نجد قرية فقد اسمها من الوثيقة يبلغ عدد سكانها من الخاضعين لضريبة الرأس عددهم – أي الرجال بين ١٤ و ٦٠ عاما – ٦٣٦ شابا ورجل وهذا يرجح أن إجمالي عدد سكانها نحو ٣٠٠٠ فرد وفي سجلات الضرائب في قرية كرانيس بالفيوم عن عامي ١٧٣ ، ١٧٤ م نجد أن عدد الذكور البالغين الذين يدفعون الضريبة حوالي ١٠٠٠ شاب ورجل أي أن إجمالي سكانها يبلغ ما بين ٤ ، ٦ آلاف فرد، بينما بلغ عدد السكان في فيلادلفيا في الفيوم حوالي ٤ ، ٥ آلاف فرد في القرن الأول الميلادي وعلي العكس من القرى الكبيرة نجد نجوع صغيرة جدا ونسمع من الوثائق عن هرب أحد سكان أحد النجوع ربما بسبب الوباء الذي انتشر لعدة سنوات في عهد الإمبراطور ماركوس اوريليوس

حتى أن عدد الرجال في هذا النجع انخفض من ٢٧ إلى ٣ ثم لم يعد به أي رجل وفي نجع آخر انخفض العدد من ٤٤ إلى ٤ ثم لم يتبق بها أي رجل أيضاً .

٣- إما عن طعام السكان في الريف قد كان يتكون أساساً من الحبوب والخضروات التي كان يزرعها المزارعين بأنفسهم بالإضافة إلى النباتات الطبيعية التي كانت تنمو في أحراش ومستنقعات النيل التي كانت مصدر البعض النباتات التي تأكل علي مدار العام وكانت (ملجأ للفقراء ضد العوز والحاجة حسب ما قاله تيودور الصقلي) .

وكانت نباتات المستنقعات هذه تضم نبات اللوتس الذي كان ينتج منه نوع من الخبز وبعض الثمار الأخرى التي كانت تقدم كحلوي بعد الأكل كما كانت سيقان نبات البردي تؤكل أو تطهى بعد غليها أو تمص كما نفعل مع قصب السكر الآن وكما كانت الدواجن ولحوم الحيوانات الأليفة التي تربي في المنزل مصدرا في البروتين والدهون لمن يربيها أو يشتريها .

كما أن هناك إشارات كثيرة إلى اللبن والجبن كما أن الأسماك كانت متوفرة في النهر والبرك الصناعية ولكن كان يدفع رسوم للصيد في البرك الصناعية المملوكة للأفراد كما يتضح من الوثائق ومن أمثلة ذلك نجد في وثيقة من سنة ١٦١ م ثلاثة رجال يدفعون ١٨٠ دراخمة لشراء حق الصيد في مجموعة من البرك الصناعية المملوكة لاحد الأفراد لمدة سبعة اشهر .

لوحظ من خلال الوثائق البردية أنه توجد كل الطرق للحصول علي الأملاك عن طريق الشراء أو الميراث ، ولكن كثرة تكرار الظروف التي يضطر فيها الأفراد إلى ترك أملاكهم هي التي تكشف عن عدم الاستقرار في المجتمع .

ففي هذه الظروف يتمكن الأثرياء من زيادة ممتلكاتهم ومساحة أراضيهم علي حساب صغار الملاك وهو ما حدث في القرن الثالث الميلادي حيث لوحظ في القرن الرابع الميلادي أن الملكية الكبيرة هي التي تميز الحياة الزراعية في مصر .

الحواشي علي الفصل الثاني
مصر في العصر الروماني

1- Tacitus, Ann. 1.11.

2- Strabo, XVII, 1.12

٣- عبد اللطيف احمد علي ، مصر والإمبراطورية الر ومانية ، القاهرة، ص ٤١-٤٢.

4- Res Gestae , Divi Augusti, 27,1.

5- Syme R., the Roman Revolution , 1952 . p. 21.

6- Milne J.G. A History of Egypt under Roman Rule , 1924. p. 10

٧- عبد اللطيف احمد علي ، نفس المرجع السابق ، ص ٦٣-٦٩.

8- Milne J.G., op. cit . p. 118

9- Dio cassisus , 65 , 8.4.

10-Tacitus , ann . 11.59

11-Jougue P., La vie municipale dans l'Egypte Romaine , 1911, p. 41.

12-West L.C. and Johnson A.C., Currency in Roman and Bysanitne Egypt , 1944, Chaes 1-11

١٣- إبراهيم نصحي ، حضارة مصر في العصر الروماني ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ص ٣٣.

14-P. OX. 1089. 57.

15-Milne J.G., op. cit. p. 124

16- Bell H.I., Jews and Christians in Egypt, London ,1912,p. 12

17-Musurillo acts of the pagan martyrs (Acta Alexandrin orum) no . Iv. Act Isidori.

18-Hist. Vol . X , PP. 880 ff

19-Lesquirer J., L'Armee romaine d'Egypte d'Augustea Dioc letien , le Caire , 1918 , p. 35

20-Milne J.G., op. cit ., pp. 26-28.

21-Ibid ., pp. 28 ff

٢٢- عبد اللطيف احمد علي ، نفس المرجع السابق ، ص ٨٦-٨٨.

23-Bell H., Egypt under the Early principate (in Cambridge Ancient History , Vol X ., Chap . X , pp. 52 ff

24-Chapot V., L, Egytpe Romaine (dans Hanotaux G. Histoire dela nation Egyptienne , Tome 111.

25- Milne J.G. op. cit ., pp. 154 ff

26-I.G.R. 1148

27-Pliny Jun , paneg , 31-32.

28-Musurillo , acts , no . VIII.

29-Griechische papyri im museum des oberhessischen geschicktsuereins zu giessen , 1910 – 1912.

30-Historia Augusta Habirianus . 20.

31-Kuhn E., Antinooupolis , 1913, pp. 58 ff

32-I.G.R. No. 1142

33-Edgar Cairo Catalogue, Graeco Egyptian coffime , p. XIV

٣٤- مصطفى العبادي ، مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٨٥.

٣٥- إبراهيم نصحي ، نفس المرجع السابق ، ص ٩٣

36-Historia Augusta Marclus Aurelius Antoninus , 25-19 .

37-Musnrillo Acts , No XI Acta Appiani

38-Historia Auggsta commoqus , 27.7

39-Dio Cassius , 77.

40- Jones A.H. M., Cities of the Eastern Roman ptovinees , p. 329.

41-Wegener P. in sysmboloe van Oven, pp. 160 ff .

42-Westermann W.L. Columbia P. Apokrimata , 123.

43-Dio cassius , 75 , 13

44-Ulpian, digest I . 5.17

45-Dio cassius, 77, 22-23

46-Dio cassius , 78, 35

47-Eusebuis, Hist. Eccles VI. 41

48-Bell , Gnits and Creeds , p. 85

49-Eusebuis , Hist. Eccles VII. 21

50-Reinach A.J., Rapport sur les fouilles de coptos , p. 17.

51-Jouguet P. précis de l'Hist., D'Egypte , I.p. 404

52-Historia Augusta , Firmos

53- Biekermann E., in Archiv of papyrafor sching , 1927 , p. 239.

54-Lesquier J. L'Armee Romaine d'Egypte , pp. 101-114

55-Dio cassius, 66 , 8.5

56-Wiicken , chrest., No. 458.

57-Sammel buch , 9636

58-S.B. m 1114.

59-Merton P., 11 , 63. ff

60-S.B. , 9016.

61-P. OXY . 111. 73.

62-Philo , In Flaccum , 6.43

63-Apion , No. 33.

64-Giss P., 1079 (41 A.D.)

65-P.OXY. 705

66-Schwertz I., les archives de sarapion et dei ses fils , le Caire , 1961 .

الفصل الثالث
مصر في العصر البيزنطي
٢٨٤ م – ٦٤٠ م

تاريخ البيزنطي

بيزنطي مشتقة من Byzantium وهي التي نعرفها الآن باسم اسـتانبول في تركيا الحالية ويختلف المؤرخون في كثيرا من معالجتهم للموضـوع فالبعض يعتبر التاريخ البيزنطي جزءا من التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى والبعض الآخر يعتبره المرحلة الأخيرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية بينما الفريق الثالث يعتبره وحدة قائمة بذاتها عندما أدت عناصر الشرق المختلفة إلي ظهور حضارة هي التي نسميها بيزنطة التي تختلف تماما عن الحضارة الرومانية القديمة .

يختلف المؤرخون أيضاً في نقطة البداية والبعض يعتقد بأن التغير الحقيقي يبدأ من عصر دقلديانوس أي أواخر القرن الثالث الميلادي عندما أحـس الإمبراطور بضرورة التغيير نظراً لتغير الظروف السياسية والاقتصادية البعض الآخر يفضل ان يبدأ التاريخ البيزنطي مـن عصـر قسـطنطين واتخاذ عاصمة تركيا للإمبراطورية سميت باسم القسطنطينية وفي نفـس الوقت أعلن الإمبراطور قسطنطين المسيحية دينا رسميا للدولة وكان ذلك يعني تغير أساسيا للحضارة الرومانية وبداية مرحلة جديدة تماما . الفريق الثالث ينتظر حتى عصر الإمبراطور جسـتنيان فـي القـرن السـادس الميلادي عندما نضجت الحضارة البيزنطية بل وصلت إلي قمتها .

تأسيس القسطنطينية

احتلت القسطنطينية الموقع الذي كانت تشغله بيزنطة القديمة وهي المدينة التي تقع علي رأس من الأرض تحيط بها المياه علي المضيق الذي يفصل بين قارة أوروبا وآسيا ويحد الموقع خليج من المياه وهو المعروف باسم

القرن الذهبي والذي يبلغ طوله حوالي ٧ ك.م من المياه الهادئة ويكـــون ميناء طبيعيا من احسن المواني فموقع المدينة مهم من الناحية العســكرية وأيضاً من الناحية التجارية إذ أنها تتحكم في تجارة الجزء الشرقي مـــن أوروبا واراضي القمح الغنية في شمال البحر الأسود أي المناطق الجنوبية من روسيا الحالية ويكفي للدلالة علي أهمية الموقع أنها صـــمدت أمـــام أعدائها قرونا طويلة سواء في تاريخها المبكر أو في الفترة المتأخرة.

هذا الموقع الممتاز هو الذي أدرك جماعة من المستعمرين من أهل مدينة ميجارا في القرن السابع قبل الميلاد بالاستيطان في هذا الموقع وتأســيس مدينة لهم .

لا يعنينا التاريخ المبكر للمدينة ولا الحكام الذين ولوا السلطة فيها حتـــى بداية القرن الرابع الميلادي حين اشتد الصراع بـــين القـــادة العســـكريين الرومان وخاصة بن ليكنيوس Licinius وقسطنطين في حـــوالي ٣٢٣ م وحاصر قسطنطين حصنه في المدينة سنين طويلة ووجد صـــعوبة فـــي اقتحام أسوارها حتى سقطت في يده أخيرا واصبح الســيد الوحيـــد فـــي الإمبراطورية الرومانية وقرر ان يطلق اسمه علي هذه المدينة الجديدة .

يمكن اذا ان نبدأ التاريخ البيزنطي من هذه الفترة المحـــددة والواقـــع ان قسطنطين قام بثورتين في الإمبراطورية الرومانية الشاسعة فهو : -

أولا : نقل العاصمة من روما إلي الشرق وبهذا انتقل مركز الثقل رسميا إلي القسم الشرقي من الإمبراطورية .

ثانيا : ثم قرر الإمبراطور قسطنطين اتخاذ المسيحية دينا رسميا للدولـــة بإعلان رسميا أصدره في مدينة ميلان بإيطاليا .

ولا شك أن هذين العاملين مهدا للانتقال من مرحلة العصور القديمة فـــي التاريخ إلي فترة العصور الوسطى ، أعلن قسطنطين مدينته الجديدة مركز للحكم في شهر مايو ٣٣٠ م وحملت المدينة اسما جديـــدا وهـــو مدينـــة

قسطنطين ولولا انه علي نفس الوقت ورغبة في تأكيد أهميتها اطلق عليها اسم روما الجديدة ، وهنا وان الاسم الجديد وهو بيزنطة استمر في الاستعمال وخاصة عند الإشارة إلي الحضارة التي كانت المدينة مركزها أو منابعها .

أسباب اختيار العاصمة الجديدة

كانت الأسباب التي دعت قسطنطين إلي اختيار عاصمة جديدة في الشرق أسبابا كثيرة بعضها جغرافي وبعضها سياسي واقتصادي ويمكن ان نلخصها في عدة نقاط : -

١- لم يكن قسطنطين رومانيا بدرجة كبيرة فقد ولد في قلب البلقان وفي مدينة نيش Nissus ونشأ وتربى في المعسكرات الرومانية حيث تنقل في مختلف الأقاليم من الغال وأسبانيا إلي آسيا الصغرى والأقاليم الشرقية وبذلك كان متحرر إلي حد بعيد من أثار الاحترام التقليدي للعاصمة المجيدة روما وهو الشعور الذي كان متأصلا في نفوس الأباطرة الرومان ممن سبقوه ويبدو أن إقليم إيطاليا ومدينة روما لم تكن تزيد في نظر قسطنطين عن أي منطقة أخرى .

٢- لم تعد روما المكان المناسب للعاصمة فقد أصبحت بعيدة عن مصادر الخطر وخاصة في الشرق بل وأيضاً في البلقان حيث كانت الغارات البربرية من الشرق تتزايد باستمرار وتهدد الإمبراطورية والواقع أن هذا هو السبب الذي دعى بعض الأباطرة قبل قسطنطين إلي ترك روما واتخاذ مراكز إدارية في المناطق الأخرى تكون قريبة للمراكز الخطر .

٣- أحس قسطنطين بقيمة الشرق وأهميته سواء في التجارة أو الجانب الاقتصادي وخاصة بعد أن فقدت روما كثيرا من أهميتها

الاقتصادية وتدهورت الزراعة في إيطاليا والأقاليم الغربية حيث اصبح الشرق هو المركز الاقتصادي الرئيسي ، أضيف إلي ذلك منذ القرن الأول الميلادي ظهور المسيحية وانتشارها مما غيـــر كثيرا من طبيعة المجتمع الروماني وتكوينه ويضاف إلـــي كـــل هذه الأسباب معرفة قسطنطين جيدا بموقع العاصـــمة الجديـــدة وأهميتها العسكرية والتجارية وكل ذلك سهل عليـــه أن يختـــار مركزا جديدا للحكم .

جغرافية الإمبراطورية عند تأسيس القسطنطينية

كانت عوامل الوحدة متوافرة في الإمبراطورية الروماني الشاسعة عندما قام قسطنطين بتأسيس عاصمته الجديدة في الشرق في أوائل القرن الرابع الميلادي أهم عوامل الوحدة هذه كانت وجود البحر المتوسط فـــي وسط العالم الروماني بحيث كان إلي حد كبير بحيرة رومانية فقد ربط بين شعوب وأقاليم إمبراطورية التي كانت تقع كلها حوله وجعل هناك تقارب في وسائل المعيشة وطرق التفكير والواقع أن البحـــر المتوســـط اســـتمر بالإضافة إلي انهار إيطاليا وأسبانيا وغيرها أهـــم وســـيلة للمواصـــلات صحيح أن الرومان ربطوا أجزاء إمبراطوريتهم بطرق طويلة مســـتقيمة ومعبدة ولكنها كانت أساسا طرقا عسكرية لتسهيل الدفاع عن الحدود، أما التجارة فلم تستعمل هذه الطرق كثيرا ومن هنا نجد ان المدن الصـــناعية والتجارية في العالم الروماني كله كانت تقع دائما علي ساحل البحر .

العنصر الثاني الذي أوجد تقاربا بين أقاليم الإمبراطوريـــة هـــو المناخ ، فدرجات الحرارة لا تختلف كثيرا بين المناطق المختلفة ولكمـــا تنخفض درجة الحرارة في الأقاليم الشمالية حيث تصل إلي درجة التجمد أما في الأقاليم الجنوبية فان درجات الحرارة كلما ترتفع اكثر من الـــلازم أي أن المناطق شديدة البرودة والمناطق شديدة الحرارة كانت تقع خـــارج

نطاق الإمبراطورية وهذا التقارب في المناخ أدى إلي تقارب فـــي نظـــام المعيشة وبناء المساكن وطرق التفكير وغير ذلك . علـــي الـــرغم مـــن عناصر الوحدة هذه قد كانت هناك عوامل أخرى أدت منذ البدايـــة إلـــي تقسيم الإمبراطورية إلي قسمين علي الأقل ولم يكن من الممكن أن تبقـــى الإمبراطورية بمساحاتها الشاسعة متماكسة تماما بل من الطبيعي أن تنقسم بسبب الاختلافات بين الشعوب إلي أقاليم وشجع علي هذا الانقسام ضعف الحكومة المركزية وخاصة منذ القرن الثالث الميلادي .

انقسمت الإمبراطورية أذن إلي قسمين رئيسيين شرقي وغربـــي ويمكـــن بسهولة أن نرى الفروق بينهما :

القسم الأول : كانت حضارته يونانية واللغة السائدة فيها هي اليونانية كما استمرت المراكز الحضارية القديمة منذ أسسها الإسكندر الأكبـــر عاقـــل حضارة اليونان .

بينما القسم الغربي كانت حضارته رومانية أو لاتينية واصطبغت أقاليمـــه من زمن بعيد بالصبغة الرومانية .

مع انقسام العالم الروماني إلى قسمين رئيسيين شرقي وغربي وكانت في كلا منهما أقاليم تختلف عن بعضها في الحضارات إذا بدأنا بالغرب نجد:

١- روما وإيطاليا وهي عبارة عن شبه جزيرة كبيرة يمتد من جبل الألب شمالا حتى البحر المتوسط جنوبا كانت مقر الإمبراطـــور في الماضي ومركز حكم الإمبراطورية كلهـــا وهـــي أن شـــبه الجزيرة بحلول القرن الرابع الميلادي اصبح فقيرا إلى حد كبير ونزح كثيرون من سكانه إلى أقاليم جديدة غنية وخاصـــة فـــي الشرق وبقيت فئة قليلة مـــن الأرســـتقراطية القديمـــة تتمســـك بالماضي ولكن الأحوال الاقتصادية عموما كانت فـــي تـــدهور مستمر .

٢- إقليم الليريا Illyria يقع شرق بحر الادرتيكي وهي أراضـــي جبلية تشمل الجزء الغربي من البلقان واللغة السائدة فيه كانـــت اللاتينية بعكس باقي مناطق البلقان وكان يسكن هذا الإقليم قبائل ممتازة الشجاعة والجرأة وهـــي التـــي مـــدت الإمبراطوريـــة الرومانية منذ منتصف القرن الثالث الميلادي بأفضـــل الجنـــود والقادة العسكريين والإمبراطور قسطنطين نفسه ولد فـــي هـــذه المنطقة والواقع أن هذه المنطقة كانت مقرا للجيوش الرومانيـــة المتجهة من إيطاليا إلى الشرق ومن هنا أصبحت صلتها قويـــة بروما لقرون طويلة .

٣- أقاليم الغال : وهي محددة بحدود طبيعية بحيث يفصلها عن إيطاليـــا جبال الألب ويفصلها عن ألمانيا الأنهار المختلفة ثـــم يحـــدها مـــن الغرب المحيط الأطلسي ويفصلها عـــن الأقـــاليم الإســـبانية جبـــال البرانس . وهذه المنطقة خضعت للحكم الرومـــاني منـــذ حمـــلات يوليوس قيصر القرن الأول قبل الميلاد وكانت تشتمل علي السهول الخصبة والأنهار الصالحة للملاحة بحيث اســـتمرت فـــي القـــرون الأولى أغنى الأقاليم الإمبراطوريـــة الرومانيـــة . ولكـــن عمليـــة استنزاف الخيرات أدت إلى تدهور الأحوال كما قلنـــا أن الحـــروب المستمرة أدت إلى تدهور الأحوال الداخلية بحيث أن المنطقـــة فـــي نهاية القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع المـــيلادي كانـــت تعود مرة أخرى إلى الصبغة الجرمانية وخاصـــة وصـــول قبائـــل متعددة من اصل جرماني إليها.

٤- إقليم إسبانيا : هذا الإقليم محدد أيضا بحدود طبيعية فينفصل عن الغال سلسلة جبال البرانس المرتفعة بممراتها القليلة ويحده مـــن جهة الشرق البحر المتوسط ومن الغـــرب المحـــيط الأطلســـي

المنطقة جبلية ولكنها تشتمل علي سهول زراعية خصبة ومناجم غنية بالمعادن وان كانت خيراتها قد حلت بمضي الزمن .

٥- الأقاليم الأفريقية : التي تشتمل علي سهل ساحلي ثم سلسلة عالية من الجبال تفصلها عن مناطق القبائل الداخلية وكانت هذه المناطق الشاسعة تنقسم من الغرب إلى الشرق إلى ثلاث أقاليم رئيسية : - موريتانيا Mauritania ونوميديا Bumidia وأفريقيا Africa المنطقة كانت غنية بالقمح والموارد الطبيعية واستفادت منها روما قرونا طويلة لكن حكمها كان صعبا وخاصة لوجود غابات جبلية كبيرة في المناطق التابعة .

٦- شبه جزيرة البلقان : وهي التي تلاقي فيها القسم اللاتيني والقسم اليوناني في الإمبراطورية والمنطقة معظمها جبلي ويحدها من الشمال نهو الدانوب كما يحدها بحر من الجهات الأخرى وبين سلاسل الجبال توجد عدة سهول اهمها ميزيا Maesia وتساليا Thessalia وتراقيا Thracia ثم في الجنوب تاتي اتيكا Attica والبيلونويز Peloponeus كل هذه المناطق جمعها الحكم الروماني لأول مرة في وحدة كاملة ومع احترام الرومان التقليدي للحضارة الرومانية لم تتغير طبيعة المنطقة .

٧- آسيا الصغرى : كانت تنقسم إلى منطقة ساحلية غنية تنشط إلى التجارة بل كانت امتداد لبلاد اليونان نفسها ثم منطقة جبلية في الداخل كانت تختلف كثيرا في حضارتها عن الساحل وبالطبع كان إقليم آسيا الصغرى من الدعامات الرئيسية في الدولة البيزنطية.

٨- إقليم سوريا : ويشمل شرقي البحر المتوسط كله من أغنى أقاليم الإمبراطورية سواء من ناحية الزراعة أو بسبب النشاط

التجاري الذي ظهر بشكل كبير ولا ننسى المدن اليونانية القديمة التي استمرت معاقل للحضارة اليونانية في المنطقة .

٩- مصر : مخزن بلاد الإمبراطورية قرونا طويلة هنا أيضا استمرت الإسكندرية أهم مراكز الحضارة الرومانية أغنى مدن العالم القديم في الداخل كان العنصر القومي واضحا وقويا بل أن فترة الحكم البيزنطي كلها تميزت بالثورات الداخلية المستمرة ومحاولة الخروج عن نطاق عن الحكم الرومان ويمكن أن نضيف إلى مصر إقليم برقة الذي كاد يمثل الامتداد الطبيعي للأراضي الزراعية في الدلتا .

الأخطار التي هددت الإمبراطورية الرومانية المتأخرة :

منذ نهاية القرن الثالث الميلادي وطوال القرن الرابع الميلادي كان هناك خطران أساسيان يهددان حدود الإمبراطورية الرومانية الشاسعة هما الفرس ناحية الشرق والقبائل الجرمانية من ناحية الشمال بالإضافة إلى ذلك كانت هناك أخطار أخرى مثل القبائل التي كانت من اصل جرماني أيضا وتعيش في مناطق الغال الغرب وقبائل أخرى بربرية تعيش في الجزر البريطانية ثم قبائل شمال أفريقيا ولكن خطر هذه جميعا كان محدد .

١- الخطر الفارسي : أسس الفرس الساسانية دولة قوية في القرن الثالث الميلادي شملت معظم المناطق التي كانت تحتلها الإمبراطورية الفارسية القديمة واصبحت لها حكومة مركزية قوية تسيطر علي مناطق شاسعة إلى الشرق من الأقاليم الرومانية وبدأ الصراع يأخذ شكلا حادا فقد كان الفرس الساسايون ينظرون إلى الرومان باعتبارهم نوعا من السيطرة الأوروبية علي الأقاليم الآسيوية ومن هنا اشتد الصراع ولم

يكن من الممكن عقد صلح إلى فترات قصيرة وكان الهـدف الأساسي للفرس هو الوصول إلى سواحل البحـر المتوسـط وكثيرا ما تمكنوا من غزو أقاليم سورية لكن علي أي حـال مهما كانت خطورة هذه الجهة الشرقية إلا أن الحرب كانـت جيوش نظامية ولم تؤثر تأثيرا خطيرا علي الإمبراطوريـة الرومانية .

٢- القبائل الجرمانية : كانت تشكل خطرا من نوع آخـر علـي الحدود الشمالية والعالم الروماني فبينما كان الفـرس شـعبا متحضرا له بدنية قديمة كان الجرمان بقبائلهم المختلفة مـن مجموعات رحل وليس لهما موطن ثابت بل كانوا في تنقـل مستمر من شرق أوروبا إلى غربها وكثيرا ما كانت القبيلـة الواحدة تنقسم إلى قسمين قسما منها يبقى في موطنه الأصلي بينما القسم الآخر يرحل إلى مكان بعيـد واحيانـا ينضـبط مجموعة أخرى من القبائل ليظهر لنا تحت اسم جديد ثـم أن جميع هذه القبائل كانت محاربة بطبيعتها ولا تميل إلى الإقامة الطويلة في مكان واحـد وحتـى أن اسـتطاعت الجيـوش الرومانية هزيمتها فإنها تظهر من جديد في مكان آخر علـي طول الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية فـي أواخـر القرن الثالث الميلادي وأوائـل القـرن الرابـع المـيلادي أصبحت هناك ثلاث مجموعات رئيسية من القبائل الجرمانية مجموعة استقرت تقريبا في شمال أوروبا واستمرت بعيـدة إلى وقت ما عن الحدود الرومانية ثم مجموعة استقرت فـي شـرق أوروبـا ونطلـق عليهـا عـادة اسـم القـوط

الشرقيون Ostrogoths والمجموعة الثانية القوط الغربيـــون Visigoth.

بدأت المشاكل عندما أخذ القوط الشرقيون يدفعون أمامهم القـــوط الغربيون وبالطبع كان السبب الرئيسي هو البحث عن الطعام فاتجه القوط الغربيون نحو نهر الدانوب ثم جاءت الخطوة الثانية عندما حاول القـــوط الغربيون عبور الحدود الرومانية والإقامة داخل نطاق العالم الروماني بما فيه من خيرات وحياة مستقرة .

لم يظهر الخطر في شكل جـــاد إلا عنـــدما اســـتطاعت القبائـــل الجرمانية كبيرة العدد أن تنظم صفوفها وتجد لها قائد يقودها إلى هـــدف محدد .

قسطنطين

كانت الدولة الرومانية تمر طوال القرن الثالث الميلادي بظروف عصيبة والأحوال فيها متدهورة باستمرار وكان السبب الرئيسي الصراع الداخلي في الجيش أي بين القادة العسكريين ومحاولة كل مـــنهم زيـــادة سلطاته ثم الصراع بين القوة العسكرية والسناتو وكثيرا ما كان أحد القادة العسكريين يتمكن من الاستيلاء علي السلطة ولكنه لا يستطيع الاستمرار طويلا بل ينتهي الأمر إلى انقلاب عسكري آخر وهكذا هذه الانقلابـــات المستمرة شجعت الفرس علي الجبهة الشرقية علي زيادة ضغطها علـــي الحدود الرومانية .

وفعلا استطاعوا في سنة ٢٥٦ م الاندفاع نحو ســـوريا ودمـــروا مدينة إنطاكية المهمـــة وحـــاول الإمبراطـــور الرومـــاني فاليريـــانوس Valerianus وقف الخطر ولكن الأمـــر انتهـــي بكارثـــة عنـــدما وقـــع الإمبراطور الروماني في الأسر واستمر حتى وفاته سنة ٢٥٩ م ثم حاول الرومان استعادة زمام الأمور فـــي عصـــر الإمبراطـــور اوريليـــانوس

Aurelianus وهنا ظهر خطرا كبيرا آخر في الشرق وهو دولة بـــالميرا وقد استطاع الرومان القضاء علي قوة زانوبية ودولتها في بالميرا غير أن هذه المرحلة لم تستمر طويلا وعاد القادة الرومان إلى الصراع فيما بينهم من جديد ولم يستطع أي منهم أن يستحوذ علي السلطة لفترة طويلة حتى جاء عام ٢٨٤ م حين ظهر دقلديانوس Diocletianus الذي قضي حوالي ١٢ عاما وهو يحاول إعادة النظام إلى العالم الروماني كما أعاد التنظـيم الإداري ونظم الأحوال الاقتصادية واهم من ذلك انه أحس بقيمة الأقـاليم الشرقية وأهميتها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية بشكل عام لكن بمجـرد أن تنازل دقلديانوس عن سلطاته في أواخر القرن الثالث الميلادي ورغم كل الإصلاحات الشاملة التي قام بها بدأت مرحلة أخرى من الصراع بين القادة العسكريين وكان أهم قائد ظهر في هذه الفترة قسطنطين نفسه حاول قسطنطين تدعيم مركزه في الأقاليم الغربية وتثبيت حكمـه فـي إيطاليـا والغرب وفعلا انتصر علي خصمه مكسنيتوس Maxentius في معركـة كبرى هي التي عرفت باسم قنطرة ملفيان Milvian أعلن قسطنطين علي اثر هذه المعركة انه انتصر في صراعه مع خصـومه بفضـل اعتناقـه للمسيحية حيث انتصر علي خصومه الوثنيين ثم فـي المرحلـة التاليـة استطاع قسطنطين أن يحاصر مدينة بيزنطة وقضي علي خصمه الرئيسي لكينوس وبذلك اصبح العالم الروماني كله في قبضته .

ولد قسطنطين أصلاً في مدينة نيش Naissus في إقليم الصـرب في يوغسلافيا الحالية .

وكان قسطنطين ضابط في الجيش الروماني ويغلب علي الظن انه من اصل ريفي لقد تنقل مع والده في مختلف الأقاليم الغربية ونال عبـرة كبيرة من ناحية العسكرية ساعدته بلا شك في تدعيم مركزه فيما بعد كما أن تجاربه الطويلة في مختلف أنحاء العالم الروماني جعلت مـن السـهل

عليه أن يطور اختيار مقر جديد في الشرق هو القسطنطينية ومنها حاول تنظيم شئون العالم الروماني الشاسع ثم قام بعمل آخر مهم عندما اصـــدر في عام ٣٢٥ م ما يعرف باسم مرسوم ميلان وهـــو الـــذي مـــنح فيـــه الجماعات المسيحية الحرية في ممارسة شعائرها الدينية دون خوف مـــن السلطات ومن هنا دفع قسطنطين بقوة التغير في العالم الرومـــاني كلـــه فعندما أسس عاصمة في الشرق ساعد علي اتجاه الإمبراطوريـــة كلهـــا اتجاها شرقيا ثم عندما اعترف بالمسيحية غير من الأوضاع الداخلية فـــي العالم الروماني كله .

مرحلة حكم قسطنطين أدت إلى توجيه الإمبراطورية الرومانيـــة اتجاها جديدا فقد استطاع أن يضع حدا لفترة الحروب الأهلية والصراعات بين القادة العسكريين ثم استطاع أن يحدث نوعا من الاستقرار ساعد إلى حد كبير علي تحسن الأحوال الاقتصادية وخاصة بعد وضع الإمبراطور دقلديانوس في أواخر القرن الثالث الميلادي مجموعة مـــن الإصـــلاحات الإدارية والاقتصادية بدأت تثمر في الفترة التالية أي فـــي فتـــرة حكـــم الإمبراطور قسطنطين طويلة نسبيا .

النقطة الأخيرة أن قسطنطين بتركيزه علي الأقاليم الشرقية وجـــه الإمبراطورية الرومانية اتجاها طويلا وقد كان القسم الشرقي في العـــالم الروماني هو الأكثر قوة ولعل الفضل الأول في استمرار الإمبراطوريـــة وبقائها اكثر من ألف عام بعد عصر قسطنطين يرجع إلى هـــذا الاتجـــاه الجديد .

خلفاء قسطنطين
(أسرة فلافيان)

تعتبر الفترة الأولى من التاريخ البيزنطي أي الفترة منـــذ وفـــاة قسطنطين سنة ٣٣٧م وحتى نهاية القرن الرابع الميلادي فترة مهمة فـــي

تكوين الإمبراطورية وخاصة الجزء الشرقي منها بل أن هذه الفترة حددت الخطوط الرئيسية لتطور منطقة حوض البحر المتوسط كله توفي قسطنطين بعد تأسيس عاصمة القسطنطينية بسبع سنوات وبعد أن وضع التقسيم الرئيسي للعالم الروماني إلى قسمين شرقي وغربي ولكن رغم ذلك فقد بقى قسطنطين أن يقسم إمبراطوريته بين أبنائه الثلاث وأبناء أخوته ولعل رأي أن الإمبراطورية أكبر من أن يحكمها شخص واحد من هنا أعطى ابنه الأكبر قسطنطين الثاني الجزء الغربي أي أقاليم الغال وإسبانيا ثم أعطى أبنه الأصغر كنستانز Constentius الأقاليم الشرقية أي آسيا الصغرى وسوريا ثم وزع أقاليم البلقان بين اثنين من أبناء اخوته أي اصبح هناك خمس أقاليم كاملة ربما أن قسطنطين بعد أن شغل نفسه طوال حياته في صراع مستمر ولم تتح له الفرصة لترتيب الوراثة من بعده لكن بمجرد وفاته فشل مشروع التقسيم وبدأ الصراع العنيف بين الحكام المختلفين كلا منهم يحاول أن يزيد من سلطانه ويوسع ممتلكاته وانتهت فترة الصراع بين أفراد الأسرة حين تجمعت السلطات كلها في يده Constentius الذي بدأ في العمل علي تدعيم الجذري ومحاولة مواجهة الأخطار الخارجية التي أخذت في التزايد باستمرار .

حوالي عام ٣٦٠ توفي كنستنتيوس (كنستيوز) وتجمعت خيوط السلطة في يد ابن عمه جوليان الذي تربي تربية عسكرية ونال خبرة ومهام في الحملات المختلفة وخاصة في الأقاليم الغربية والواقع انه تدرب أيضا علي شئون الحكم بعد أن اشترك مع كنستيوز في الفترة الأخيرة من حياته أي انه نال خبرات كانت الإمبراطورية في حاجة إليها داخليا وخارجيا ولكنه خلق مشكلة جديدة عندما بدأ في محاربة الجماعات المسيحية من جديد ومن هنا بدأت مشاكل داخلية تتزايد وعرف جوليان باسم المرتد لانه حاول العودة إلى الديانات الوثنية من جديد ولكنها كانت

محاولة يائسة يصعب أن تنجح وعلي أية حال فكان حكمه قصيرا لم يزيد عن ٣ سنوات وقتل علي الجبهة الفارسية لمرحلة من مراحل الصراع مع الفرس في عام ٣٦٣ م .

تولى الحكم بعد موت جوليان إمبراطور جديد هو جوفيان وكـــان من فئة القادة العسكريين أيضا وقد بدا بمحاولة حد للصراع مع الفــرس وفعلا استطاع في بداية حكمه أن يصل إلى اتفاق معهم وتنازل في سبيل الوصول إلى السلم عن بعض أقاليم الحدود وخاصة في منطقـــة أرمينيـــا التي كانت دائما آثارا للصراع بين البيزنطيين والفرس .

كان جوفيان آخر اباطرة الأسرة الفلافية وانتهت به هذه الأســـرة تماما ووصل إلى الحكم أسرة جديدة هي أسرة فالنتيان Valentinianus.

مشاكل القبائل الجرمانية

رغم فداحة الخسائر التي لحقت في الجيوش البيزنطية في صـــراعها الطويل علي الجبهة الشرقية فقد ظهر فيما بعد أن الخطـــر الأكبـــر مصـــدره الشمال ففي الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي بدأت قبائل من التتار من منطقة وسط آسيا وشرق أوروبا بدأت تتدفق نحو منطقة البحر الأسود متجهة غربا ودفعت امامها قبائل القوط التي كانت تقيم في هذه المنطقة ولم يســـتطع القوط الشرقيون الذين واجهوا الموجات الأولى لم يستطيعوا الصمود بل بدأوا هم أيضا يتجهون غربا لكي يدفعوا أمامهم المجموعة الثانية وهي قبائل القوط الغربيون واضطرت قبائل القوط الغربيون إلى الاتجاه نحو نهو الدانوب إلـــى الحدود الرومانية حيث كانوا يأملون في الحصول علي حمايـــة الإمبراطـــور الروماني وكانت لهم في الواقع اتصالات تجارية متعددة مع العالم الرومـــاني استمرت سنينا طويلة وفعلا طلب القوط الغربيون السماح لهم بعبـــور نهـــر الدانوب والإقامة داخل نطاق العالم الروماني كان اقتراح القوط هذا ينطـــوي بعد كثير من المخاطر فأعدادهم كبيرة وهم في حالة يأس شـــديد متحـــاربون

بطبيعتهم ولا يعرفون استقرار ويحملون معهم أسلحتهم وكان معنى أن وافق علي دخولهم داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية منحهم المساعدات والأراضي التي يقيمون فيها وكانت المشكلة أساسا تهم الإمبراطور الشرقي فالنز Valens وقد اضطر أخيرا من أن يسمح لهم بعبور نهر الدانوب علي أن يسلموا أسلحتهم ويعطوا رهائن ضمانا لحسن سلوكهم وقد قبلوا هذه الشروط ونقلتهم سفن الأسطول الروماني عبر النهر إلى المقاطعات الشمالية في البلقان وخاصة مقاطعة ميزيا Moesia ولا ندري السبب في قيام إمبراطور فالنز وقبول هذه الأعداد الغزيرة ربما انه كان يأمل في ضم تعداد منهم إلى جيوشه فهم عناصر محاربة من افضل الأنواع وربما انه اضطر إلى الموافقة وعلي أية حال فقد بدأت المتاعب بمجرد وصولهم فقد رفض القوط تسليم أسلحتهم واحتالوا علي الاحتفاظ بمختلف الوسائل ومن جهة أخرى لم تكن الموارد إقليم ميزيا كافية لهذه الأعداد الكبيرة واضطر فالنز إلى إحضار التموين من مناطق أخرى ويبدو أن الإدارة الرومانية للمنطقة كانت سيئة واختل نظام التوزيع واشتد الخطر شيئا فشيئا .

معركة ادرنة :

تجمع القوط بأعداد كبيرة بمناطق شمال البلقان وبدأوا في الانتشار نحو الجنوب محدثين الدمار والتخريب في كل مكان واصبح الموقف في البلقان شبيه بما كان يحدث في مناطق الغال لفترة مبكرة حين لا تتمكن القوات الرومانية من الوقوف في وجه قبائل رحل محاربة بطبيعتها ولا تستقر طويلا في مكان واحد ثم انضمت إلى القوط مجموعات مختلفة من قبائل جرمانية الأصل عبرت هي أيضا نهر الدانوب ثم انضمت إلى كل هذه المجموعات بأعداد كثيرة من العبيد الذين في حالة الفوضي المتفاشية فرصة للتحرك وكانت المعارك وحشية والقتلة كثيرون ولم تكن الجيوش الرومانية تستطيع مواجهة مثل هذا الموقف وجد

الإمبراطور فالنز نفسه مضطرا للتدخل رغم كراهيته للحرب ولكنه كـــان السبب الأول في قيام هذا الموقف الحرج فسحب جيوشه من مناطق آسيا الصغرى واتجه نحو البلقان ووعد الإمبراطور الغربي بتقديم المســـاعدة غير أن الأمر انتهي بكارثة كبرى ففي عام ٣٧٨ م نجح القسم الأكبر من القوط من احتلال منطقة شاسعة في شمال البلقان وكان معسكرهم الرئيسي قريب من مدينة ادرنة معظم قوات القوط كانت مـــن الفرســـان ســـريعي الحركة بينما كانت اغلب الجيوش الرومانية من المشاة وقد اظهر قـــادة القوط براعة في فنون الحرب كما انهم عرضوا التفاوض اكثر من مـــرة حتى ينتهوا من تجميع قواتهم واخيرا نشبت موقعة ادرنة الحاسمة وانهزم الجيش الروماني أمام هجمات القوط وقتل الإمبراطور فالنز واغلب قواده وابيد الجيش الروماني كله تقريبا وفقدت الإمبراطورية الرومانية افضـــل العناصر العسكرية فيها وكانت كارثة لم يشهد الرومان مثيلا لهـــا منـــذ معركة كناى Cannae التي أباد فيها هنيبال جيوش الرومان التي كانـــت تفوقه عددا والواقع أن مؤرخي هذا العصر عقدوا المشابهة بين المعركتين علي اثر أنصارهم الكبير حاصر القوط مدينة ادرنة التي احتمت داخـــل أسوارها بقايا الجيوش الرومانية ولم يشأ القوط أن يضيعوا وقتا طويلا في حصار المدينة بل اتجهوا نحو الجنوب وتفرقـــوا فـــي منـــاطق اليونـــان المختلفة واتجهوا نحو القسطنطينية نفسها ونهبوا كل المناطق المحيطة بها ولم يقف في طريقهم إلا أسوار قسطنطينية مرتفعة التي أثبتت قدرتها علي المحافظة عليها وكان هذا أول خطر كبير يهدد مدينة القسطنطينية وبعـــد نصف قرن فقط من تأسيسها وهكذا انتشر القوط بأعداد كبيرة في منطقـــة شاسعة من ا لمناطق الخاضعة للإمبراطورية الشرقية .

الإمبراطور ثيودوسيوس Theodonius

يعتبر ثيودوسيوس الأكبر كما عرف في التاريخ من أهم الشخصيات التي تولت زمام الأمور في هذه الفترة الحرجة وقد تولى عرش القسطنطينية وخضع له النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط أي نفس الأقاليم التي كانت خاضعة للقسطنطينية منذ تأسيسها ولد ثيودورسيوس في إسبانيا وكان أبوه من طبقة القادة العسكريين وتربى الابن تربية عسكرية ولعله أول إمبراطور من اصل روماني يتولي الحكم منذ عهد بعيد وقد استفاد خبرة واسعة في مختلف المعارك التي اشترك فيها في جبهات مختلفة من شمال أفريقيا إلى الجزر البريطانية إلى مناطق القبائل الجرمانية وراء نهر الراين وكانت الإمبراطورية في اشد الحاجة إلى خبرته الواسعة هذه كانت التركة التي ورثها ثيودوسيوس ثقيلة وليس من السهل إزالة اثر الكارثة التي قضت علي النفوذ الروماني في البلقان واطاحت بسمعتهم ولم يكن من الممكن جمع جيوشه جديدة لمحاولة الوقوف أمام القوط ولذلك اخذ الإمبراطور الجديد يعمل في هدوء واخذ خطة جديدة فبدأ بإصلاح الجيش علي قدر ما سمحت بذلك الظروف وجعل مقره في مدينة سالونيك في مقدونيا شمال اليونان وذلك ليسهل عليه مراقبة تحركات القبائل البربرية من جهة وأيضا لكي يبعد الخطر المباشر علي العاصمة القسطنطينية من جهة أخرى ثم عمل علي تقوية تحصينات المدن وزيادة حاميتها فهي الوحيدة التي تستطيع الوقوف في وجه الخطر الكبير فاستطاع بهدوءه أن يبث روح الثقة من جديد بين جنوده فبدأو في مهاجمة فرق القوط المنتشرة في كل مكان كلما سنحت الفرصة بذلك .

وصارت هذه الخطة بنجاح فلم يحاول ثيودوسيوس أبدا أن يهاجم القسم الرئيسي من قوات القوط وبالتدريج بدأت القبائل القوطية تتفرق وتضعف وتتصارع مع بعضها واخيرا استطاع ثيودوسيوس أن يعقد مع

زعمائه صلحا في عام ٣٨١ م بنفس الشروط التي كان الإمبراطور فالنز قد اتفق عليها معهم عند بدء الأزمة فمـنح القـوط الأراضـي اللازمـة لاقامتهم في تراقيا وغيرها من أقاليم الشمال وعـاملهم افضـل معاملـة واعتبرهم حلفاء Foederati واخذ في ضم أعداد منهم إلى جيوشه بل انه عين منهم ضباط أيضا وما لم لبث فرسان القوط أن اصـبحوا يكونـون احسن فرق في الجيوش الرومانية واقواها علي رغم مما كانت تنطـوي عليه هذه السياسة من خطر جسيم صحيح أن القوط اثبتوا أهميـتهم مـن الناحية الحربية ولكنهم بالتدريج اصبحوا دولة داخل دولة وخطبهم يتزايد باستمرار فبينما نجد انه في القرون الماضية كان الجند الجرمان وغيرهم يخدمون في القوات النظامية الرومانية دائما تحت قيادة ضـباط رومـان بحيث لا يكونون فرق كاملة بل هم جزء من الفرق الرومانيـة أمـا الآن وبفضل سياسة ثيودوسيوس فقد أصبحت لهم فرقهم الكاملة بقواتهـا مـن القوط علي أية حال استمرت سياسية ثيودسيوس دائما علي هـذا الـنمط واغدق الأموال علي القوط وعمل علي استرضائهم بكافة السبل حتى لقب من جانب المؤرخين بلقب صديق القوط والسلام ومن هنـا ولائهـم لـه وطوال حياته ولاء شامل ومن هنا نرى أن الخطر القوطي الذي بدأ فـي الربع الأخير من القرن الرابع عشر استمر حتى نهاية هذا القرن أي حتى وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م .

العلاقة بين الدين والدولة في القرن الرابع الميلادي

كلمة كنيسة التي استعملت منذ عصر المبكر عند الإشـارة إلـى المجموعة التي اعتنقت المسيحية مشتقة من الكلمة اليونانية Ecclsia وهي تعني مجموع الشعب وقد كانت في البداية عبارة عن مجموعة صغيرة من المؤمنين بالتعليم المسيحي وعادة كانت الجماعات المفترقة فـي مختلـف أنحاء العالم الروماني تختار لها واحدا أو اكثر من كبار السن أو ما يمكن

أن نسميهم الكهنة لكي يرشدها ويفسر لها ما يصعب عليها من تعاليم دينية وأيضا لكي يحل ما يقرأ من مشاكل ثم تزايدات أعداد المسيحيين خلال القرن الثاني الميلادي وتعقدت المشاكل إلى حد ما فاصبح من الضروري أن تختار كل مجموعة من القرى أو مدينة كبيرة مشرفا ينسق المسائل الدينية يطلق عليه اسم Esiscopos ومنها اشتقت أسقف أي المشرف ثم زاد عدد هؤلاء المشرفين أو الأساقفة واصبحوا هم أيضا في حاجة إلى من يشرف علي أعمالهم وينسقها ومن هنا ظهر في الرابع الميلادي ما نسميهم كبار الأساقفة Arch Episcopos وهم المسيطرون علي الجماعات المسيحية في ولاية بأكملها وقد كانت هناك مراكز رئيسية لها أهمية كبرى في تنظيم المسائل الدينية ومنذ الرابع الميلادي أيضا أصبحت مراكز بعض كبار الأساقفة هؤلاء ذات وزن كبير وهذه المراكز هي القسطنطينية وإنطاكية والقدس والإسكندرية وأوروبا . وكان الأساقفة وكبار الأساقفة يحاولون عقد اجتماعات لمناقشة المشاكل التي تطرأ بحيث تكون القرارات التي تصدر من هذه الاجتماعات ملزمة للجميع وهذا ما أعطى الكنيسة بشكل عام الطابع العالمي واصبحت السلطة الدينية موازية للسلطة المدنية في العالم الروماني كله .

عندما كانت الجماعات المسيحية صغيرة ومحدودة العدد لم يكن هناك مجال للخلاف الديني فيما بينها ولكن عندما كبرت الجماعات وانتشرت بدأت المشاكل تتشعب والخلافات تظهر فيما يتعلق بمبادئ الدين بالطبع كانت هذه الخلافات تهدد الوحدة الداخلية ومن هنا عمل رجال الدين علي منع التفتت والتأكيد علي الوحدة الداخلية وبمجرد أن انتهى عصر الاضطهاد الديني من جانب السلطات الرومانية بدأت الصراعات بين المسيحيين تأخذ شكلاً حاداً ولم يكن السبب في هذه الصراعات دينيا فقط بل كانت له معاني سياسية في أحيانا كثيرة .

زاد المشكلة تعقيدا الصراع بين كبار الاساقفة أنفسهم كل منهم يحاول أن يزيد من سلطاته وثبت أهمية منطقته فمثلا القسطنطينية وهي مدينة حديثة ليس لها تاريخ عريق في المسيحية كانت تحاول أن تفرض سيطرتها علي باقي الأقاليم وكانت روما العاصمة القديمة تحاول هي أيضا أن تثبت عراقتها وكانت الإسكندرية العاصمة العريقة لاقليم من أغنى واهم الأقاليم في حوض البحر المتوسط كله ولها خلفية حضارية مهمة حاولت هي أيضا أن تبسط نفوذها .

أخيرا فان إنطاكية كانت تحاول باستمرار أن تكون المركز الأول في التفسيرات الدينية علي الأقل فالأقاليم الشرقية من البحر المتوسط هنا وجد قسطنطين من الضروري أن يكون له أيضا نوعا من السيطرة علي الجانب الديني بحيث لا تفلت الأمور من يديه .

مجمع نيقيه Nicaea : ٣٢٥ م

منذ أوائل القرن الرابع الميلادي بدأت الخلافات الرئيسة تأخذ شكلا حادا ولعل أول انقسام كبير هو المعروف باسم المشكلة الأريوسية نسبة إلى Arius الذي كان كاهنا بالإسكندرية ولو انه من اصل ليبي ولقد كان العامل الأول في قيام الخلاف الواقع أن Arius أيضا تلميذ من تلاميذ المدرسة المسيحية في إنطاكية وهي مدرسة كانت تنافس الإسكندرية علي أي حال كان الخلاف خاصة بطبيعة السيد المسيح والعلاقة بين المسيح والله ويبدو أن اريوس بشكل عام كان يحاول تبسيط التفسيرات الدينية بان نادى بأن المسيح تالي لله وجاء بعده ووجدت آراءه المبسطة قبولا بين أعداد كبيرة من الجماهير هكذا اظهر الخلاف أولا في الإسكندرية وكان لابد من أسقف المدينة الإسكندرية يتدخل لوضع حدا له ، بدأ الخلاف يزداد عندما رفض اريوس التوقف عن دعوته ولجأ إلى فلسطين وسوريا واخيرا وصلت الأخبار عن هذا الخلاف إلى القسطنطينية

وكان لابد من الإمبراطور قسطنطين أن يتدخل بصـفة رئيسـية علـي إمبراطورية مسيحية وبالتالي مسئولا علي الجانب الديني .

دعي قسطنطين إلى عقد أول مجمع عام للمسـيحيين فـي سـنة ٣٢٥م وهو المعروف باسم مجمع نيقيه وقد عقد ليس في العاصمة نفسها بل في مدينة نيقية القريبة منها في آسيا الصغرى ولقد حضر الاجتمـاع عدد ضخم من رجال الدين يمثلون الكنائس المختلفة في جميع الأقاليم ولا يهمنا المناقشات الطويلة التي دارت ولا الآراء التي تمت مناقشتها ويبدو أن قسطنطين رأس جلسة الافتتاح بنفسه ثم ترك الرياسة لمستشاريه الديني هوسيوس Hosios أسقف مدينة قرطبة في إسبانيا لم يجـد المجتمعـون صعوبة في التوصل إلى قرار مشترك أطلق عليه عقيدة نيقيه ويبـدو أن أسقف الإسكندرية الاسكندر ومـن بعـده تلميـذه وخليفتـه اثيناسـيوس Athanasius لعب دورا رئيسيا في إدارة المناقشات وفي التوصـل إلـى القرار النهائي الذي كان ا لمتوقع أن يؤدي إلى وضع حدا نهائيا للمشكلة اريوس فقد اكد هذا القرار علي التوحيد الكامل علي المسيحية واكد علـي ضرورة اتباع جميع الأقاليم بهذا التفسير الجديد ولا شك أيضا أن نتيجـة هذا المؤتمر كانت نصرا كبيرا للإسكندرية واكدت أهميتها بين الكنـائس المسيحية المختلفة .

نتائج مجمع نيقية :

علي الرغم من أن الإمبراطور قسطنطين كان يأمـل أن ينتهـي مجمع نيقية بحالة من الهدوء وان يضع نهاية للخلافات الدينية إلا أن ذلك لم يحدث بل أن الخلافات استمرت تتزايد طوال القرنين الرابع والخامس الميلاديين وزادت العلاقات تعقيدا بين السلطتين الدينية والمدنية وفي عام ٣٢٦ م اصبح اثناسيو س Athanasius أسقفا للإسكندرية وكان الـدور الذي لعبه في مناقشات مجمع نيقية قد أعطته مكانا خاصا كما أن انتشار

حركة الرهبنة في مصر في هذه الفترة جعلت صلة قوية بجميع المناطق الداخلية في مصر من هنا عندما حاول قسطنطين أن يستعمل نفوذه لكـــي يجبر الجميع علي قبول عقيدة نيقية دون تردد بل أن اريوس نفسه الـــذي كان السبب الأول في الخلافات قبل أن يتراجع عن آراءه السابقة تمامـــا علي الرغم من ذلك كله فان المشاكل لم تنتهي وكانت العقبات اكبر ممـــا يعتقده الإمبراطور فان رجال الدين في مجمع نيقية وضـــعوا الخطـــوط العريضة فقط .

وكان هناك مجال كبير للاختلاف في التفصيلات ونلاحـــظ فـــي الفترة التالية انه أصبحت هناك عدة مدارس متعارضة إلى حد كبير فـــي التفسيرات الدينية فهناك روما أولا ثم هناك الإســـكندرية ذات المديريـــة العريقة وهناك أيضا مدرسة إنطاكية التي كانت لها تفســـيراتها الخاصـــة علي أي حال عندما أرسل قسطنطين خطابا إلى أسقف الإسكندرية لاعادة قبول اريوس من جديد رفضت الإسكندرية ذلك تمامـــا فمـــا كـــان مـــن قسطنطين إلا أن قرر إبعاد أسقف الإسكندرية من مدينته ولا نعـــرف أن كان قد غادر البلاد فعلا أم اختبئ بعض الوقت واستمر هذا الوضع لحين وفاة قسطنطين عام ٣٣٧ فعاد اثناسيوس إلى مقره ولكنه بعد فترة وجيزة اضطر إلى مغادرة البلاد مرة أخرى واستمر هذا الوقع المقلقل طوال حياة اثناسيوس وحتى وفاته ٣٧٣ م نلاحظ بشكل عام أن ارتباط الدين بالدولة ادى إلى مشاكل لا نهاية لها وبدلا من أن يزيد التماسك بـــين الســـلطتين كثيرا ما كانت تجد الدولة نفسها مضطرة إلى التدخل في مسائل دينيـــة لا تجد لها حلا ومن جهة أخرى فقد ارتبطت المشـــاكل الدينيـــة بالمشـــاكل السياسية في وقت كانت معظم الأقاليم الشرقية فيه تحاول الخروج عـــن نطاق الحكم البيزنطي وبذلك استمرت هذه العلاقة المتوترة بين السلطتين

المدنية والدينية طوال الخامس الميلادي علي الـــرغم مـــن المجتمعـــات المتعقدة التي عقدت لمحاولة حل المشاكل الدينية .

الرهبنة المسيحية :

العامل الثاني الذي ظهر اثره في تنظيم المسيحية إلـــى جانـــب المجامع الدينية هو حركة الرهبنة التي ظهرت في مصر ربما من القرن الثالث الميلادي وأخذت فيها شكلا منتظما بحيث كان لها قواعد أصـــول وفكرة الانقطاع عن العالم والصلاة والتام والفكر الهادي نبعت في الشرق ونسمع في مناطق متعددة ليس في مصر فقط وانما في مناطق أخرى من الشرق عن أفراد يعتزلون الحياة الاجتماعية ويفضلون حياة الوحدة غيـــر أن مصر هي المكان الذي تبلور فيه هذا النظام وأخذ شكله المميز ولم تبدأ هذه الحركة في الإسكندرية ذات المدارس العلمية وانما بدأت في المناطق الداخلية وربما في اكثر من موقع حين اخذ بعض الأفراد يطرقون وراءهم أو مدنهم يعيشوا في الصحاري وينقطعون للتأمـــل والتفكيـــر وربمـــا أن الحركة مرت بمرحلتين : ففي المرحلة الأولى :

ظهر المتوحدون أو النساك الذين أرادوا اعتزال الحياة والابتعـــاد عن ملذاتها وبعضهم كان يكتفي بالاعتزال عند حدود قريته بينما البعض يفضل أن يتوغل في الصحراء بعيدا عن موطنه .

ثم جاءت المرحلة الثاني : حين تكونت الجماعات المنظمة التي تخضع في حياتها الدينية لنظام معين ويكون لكل فرد فيها واجبات محددة وتركزت حركة الرهبنة في مناطق معينة منها منطقة وادي النطرون ثـــم منطقة الصحراء الشرقية وخاصة بالقرب من البحر الأحمر ثـــم منطقـــة مصر الوسطى واخيرا منطقة طيبة العاصمة القديمة لمصر فـــي معظـــم الحالات التي كانت الحركة تبدأ ببعض أفراد يعتزلون في كهوف يقيمون فيها ثم تبدأ شهرتهم في الازدياد فيتجمع حولهم أفراد آخرون يطلبون منهم

المشورة وهذا ما حدث مثلا بتقديس انطونيوس الذي اعتزل الحيـــاة فـــي أواخر القرن الثالث الميلادي ويعتبر من أول الأسماء التي وصلتنا عـــن تنظيم حركة الرهبنة فقد ولد في منطقة مصر الوسطى وكـــان تفكيـــره مصريا بحيث لم يتأثر بالثقافة اليونانية المنتشرة في البلاد وقد اتجه نحو الصحراء الشرقية تاركاً أمور الدنيا تماما وفي النهاية تجمع حوله تعـــداد كبيرة تريد أن تتلمذ علي يديه وكلما ازدادت عدد هؤلاء التلاميـــذ كـــان يتوغل اكثر في الصحراء حتى وصل إلى منطقة جنوب مدينة الســـويس الحالية حيث يوجد الدير الموجود المعروف باسمه حتى الآن وبشكل عام كان النظام الذي وضعه انطونيوس لمجموعته بســـيطا وكانـــت الفكـــرة الرئيسية فيه هي التقشف الشديد سواء في الطعام أو الملابس والإغـــراق في نواحي التقشف والحياة الخشنة بشكل عام ولا شـــك أن هـــذا النظـــام القاسي لم يكن يتناسب مع الكثيرين ومن هنا نجـــد أن معظـــم المنـــاطق الأخرى وخاصة وادي النطرون كانت تفضل أن تخفف قليلا مـــن هـــذه المتطلبات القاسية وفعلا كانت الجماعات التي تكونت هناك كانت أخـــف في القواعد التي صاغه عليها وكان من كبار الآباء يعتمدون علي سلطتهم غالبا علي حكمتهم وسنهم المتقدمة بحيث كانوا يتركون لتلاميذهم الفرصة لممارسة هروب التقشف علي قدر استطاعتهم وحياة العزلة إلى حد كبير أو الانضمام في الجماعة والحياة الاجتماعية إلى حد بعيد وما زالت تقوم في منطقة وادي النطرون أربعة من الأديرة التي قامت ابتداء من القـــرن الرابع الميلادي بشكل عام كان للحركة الرهبنة تأثير كبير علـــي تطـــور المسيحية في مصر بأكثر من ذلك فانه كثير من الأحيان كانت الســـلطات البيزنطية تحس بمدى تأثير هذه الحركة التي اجتذبت الآلاف العديدة فـــي مختلف مناطق مصر تأثيرها علي الحياة الاقتصادية في البلاد .

تداعي الإمبراطورية الغربية

١- استليكو – والأريك

لا شك أن ثيودسيوس الأكبر بسياسته اتجاه القوط استطاع أن ينقذ الإمبراطورية موقتا من الخطر الذي كان يهددها ولكنها لم تكن سياسة بعيدة النظر وأدت في النهاية إلى اختلال موازين القوى في الداخل ولعل اخطر ما حدث في سياسة ثيودسيوس أن نهر الدانوب لم يعد الحد الفاصل بين العالم الروماني والعالم البربري بحيث اصبح من السهل علي قبائل جديدة أن تعبر النهر وتستقر داخل نطاق الإمبراطورية .

والواقع أن قبائل القوط المختلفة أصبحت تشكل دولة لها خطرها داخل نطاق العالم الروماني حتى القرن الرابع الميلادي مرت الإمبراطورية الرومانية بمشاكل كثيرة ولكنها كانت دائما تستطيع التغلب عليها دون أن تحدث فوضي داخلية ولكن الموقف الآن اصبح يسير من السئ إلى الاسوء فالحروب المستمرة أنهكت اقتصاد العالم الروماني وزادت الضرائب بحيث أصبحت عبئا ثقيلا لم يشتمله الكثيرون مما دعى الفلاحين إلى ترك أراضيهم الزراعية والهجرة إلى المدن وأقاليم كثيرة فقدت تماما فمثلا أقاليم الغال استقرت فيها وسيطرت عليها قبائل جرمانية وفي شمال البلقان احتل القوط مساحات واسعة والجميع شبه مستقلين بأراضيهم يحكمهم زعمائهم ولا يخضعون للدولة إلا شكلا اسميا فقط وزاد الأمر سوءا سياسة ثيوديسوس التي أدت إلى سيطرة العناصر الجرمانية علي كثير من فرق الجيش ومشكلة هؤلاء القادة الجرمان انهم كانوا يحسون بقوتهم ولكن لا أمل لديه في الاستيلاء علي السلطة بشكل شرعي ومن هنا كانوا يكتفون بتولي السلطة من وراء الستار ويحتفظون بإمبراطور ضعيف يجلس علي العرش فعلا ولكن ليست لديه سلطة حقيقية وكانت الإمبراطورية الغربية معرضة لهذا الخطر اكثر من

الإمبراطورية الشرقية خاصة وان قيادة الجيوش مركزة في يد القائد واحد بينما في الإمبراطورية الشرقية كانت هناك عدة جبهات معرضة للخطــر ولابد من الاحتفاظ بجيوش في البلقان لمواجهة القوط وجيوش أخرى في الشرق لمواجهة الفرس وهكذا .

بمجرد وفاة ثيودوسيوس بدأت الاضطرابات تزداد في كل مكــان وربما كان من حسن حظ الإمبراطورية في بادئ الأمر أن خليفته وهمـا ابناه كانا ضعيفين لا يخشى خطرهما ولم يجد القادة العسكريين ما يدعوا إلى التخلص منهم اركاديوس Arcadius الذي جلس علي عرش الشـرق كان في السابعة عشرة من عمره قليل الذكاء يميل إلى الكسل فبقى علي ذلك طوال حياته أما هونوريوس Honorius إمبراطور الغرب فكان في سن الحادية عشر سنة فقط عند موت أبيه لذلك كانت السلطة الحقيقية في يد استليكو Stilicho القائد العام لجيوش منطقة الدانوب وهو قائد عسكري قدير من قبائل الوندال Vandals وكان ثيودوسيوس يثق به ثقة كاملة بل زوجه من إحدى اميرات الأسرة الحاكمة واستمر نفوذه يتزايد حتى اصبح من أهم القادة العسكريين في بداية القرن الرابع الميلادي .

في نفس الوقت كان هناك زعيم آخر يمسك بزمام السلطة فـي القسطنطينية وهو الوزير روفينوس Rufinus وهو سياسي قـدير ومـن اصل روماني وكان يمسك بكثيـر مـن خيـوط السـلطة والإدارة فـي القسطنطينية ولكنه مثل استليكو كان يريد أن يحتفظ بالسـلطة مـن وراء الستار وليس لديه أمل في اعتلاء العرش وكان كل منهما يحاول أن يزيد من سلطاته ويوسع من مناطق نفوذه .

هنا ظهر المنافس الثالث علي السلطة وهو الأريك Alaric الذي كان يحاول باستمرار استغلال العداوات بين القوى المختلفة كان القـوط الغربيون قد استقروا منذ زمن بعيد في شمال البلقان وخاصة فـي إقلـيم

ميزيا Moesia بعد أن حصلوا رسميا من ثيودسيوس علي هذه المنطقـة لتكون خاصة بإقامتهم وعند موت ثيودسيوس بدأت جموعهم تتحد تحـت قيادة قائد جرئ من أهم القادة القوط الذين ظهروا في التاريخ وهو الأريك الذي كان ينتمي إلى أسرة من أسرات القوط القديمة وقـد قضـي عـدة سنوات في بداية حياته في القسطنطينية أدرك خلالهـا مـدى الضـعف والانحلال المتفشي في المجتمع الروماني وقتئذ ثم اصبح يطمع في تولي منصب قائد جيوش الجبهة الشرقية ليتساوى مـع اسـتليكو ولمـا فشـل التوصل إلى هذا المنصب بدأ في إثارة اتباعـه مـن القـوط بحجـة أن السلطات لم تعد تعاملهم كحلفاء كما هو متفق عليه وفي النهايـة أعلـن الثورة وسار علي رأس اتباعه من القوط يخربون مناطق البلقـان مـرة أخرى وينهبون كل ما يستطيعوا نهبه ويفرضون الجزيـة علـي المـدن الكبيرة ولم يكن لدى القسطنطينية الجيوش التي تكفي لمواجهة هذا الخطر الشاسع وتم تعداد بعض القوات التي وضعت تحت قيادة اسـتليكو لكـي يواجه الموقف وفعلا بدأ استليكو يقوم ببعض الحركات الحربية البارعـة لمواجهة الخطر ولكننا نراه بسرعة يترك جبهة البلقان ولا ندري السر في ذلك ربما أن الخلافات بينه وبين الوزير روفينوس كانت تزداد فلم يجد أن يحفزه علي الاستمرار في مواجهة الأريك واتباعه وتنتهي هذه المرحلـة بزيادة الضغط علي الإمبراطور الضعيف في القسطنطينية لتتخلص مـن وزيره روفينوس وكانت النهاية هي إعدام هذا الوزير فعلا ابتعـد عـن المسرح السياسي أما الأريك فيبدو كان هناك من يراقب الموقف من بعيد ويستغل الصراعات الداخلية وكانت بلا شك في صالحه .

سقوط روما :

تمثل المرحلة من ٣٩٥ : ٤١٠ م مرحلة صراع داخلـي متعـدد الأطراف داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية كان اجدر القادة واهمهم هو

استليكو وكانت لديه البراعة العسكرية بحيث يستطيع بامكانياتـــه القليلـــة النسبية أن يقف أمام الجيوش القوطية الكبيرة لكن هناك أيضـــا صـــراع داخلي بين القسطنطينية والإمبراطورية الغربية مما جعل اســتليكو فـــي أحوال كثيرة يعمل علي حماية ظهره من الدسائس الداخلية ولا يحاول أن يقضي تماما علي الأريك و قواته القوطية بل انه حاول أن يجعله يقف في صفه أو علي الأقل لا ينضم بشكل علني إلى جانب الإمبراطور الروماني ولكن في النهاية استطاع اركاديوس إمبراطور القسطنطينية أن يعقد اتفاق مع الأريك فمنحه لقـــب قـــادة الجيـــوش اللاريـــة Magister Militum ليتساوي مع استليكو وغيره من القادة الجرمـــان الـــذين تولـــوا قيـــادات عسكرية رسمية كما أن اركاديوس منح القوط أراضى جديدة في شـــمال البلقان وخاصة في مقاطعة ابيروس Epirus وبهذا اصبح الاريك مسيطرا تماما علي شبه جزيرة البلقان لا ينازعه أحد فـــي ســـلطاته ولا يخضـــع للقسطنطينية إلا بشكل اسمي وتغير الموقف إلى حد مـــا بحيـــث أحـــس استليكو انه يقف وحيدا في الميدان ثم أن الأقاليم الافريقية التي كانت تمده بالقمح بدأت هي أيضا تستغل الموقف وتمنع وصول التموينات بانتظـــام إلى روما وعمل استليكو علي تقوية مركزه و اصبح يسيطر تماما علـــي الإمبراطور الغربي الضعيف Hororius ثم بدأ يحاول تجميع اعداد مـــن الجند المرتزقة من الغال وغيرها وليس معنى ذلك أن المشاكل في القسم الشرقي كانت اقل في خطورتها فان الاريك واتباعه قاموا بنهب المـــدن الكبرى في البلقان ثم بدأوا الآن يتجهون نحو ايطاليا والغال كـــان لابـــد لاستليكو أن يستعد لمواجهة الخطر الكبير ونشبت معركة كبرى في عـــام ٤٠١ م وان كانت قد انتهت بنوع من الصلح لم يســـتمر طـــويلا و بـــدأ الاريك مرة أخرى يرسل قواته إلى شمال ايطاليا ليحاصر المدن الرئيسية وخاصة مدينة ميلان التي كان يقيم فيها الإمبراطـــور Hororius نفســـه

وأسرع استليكو لنجدته واستطاع فعلا أن يحاصر جــزء مــن القــوات القوطية غير أن القوط استمروا في زحفهم واستولوا علي مدن أخرى مثل Verona ونلاحظ أن استليكو أحرز انتصارات عديدة ضد القوط ولكن لم يحاول أن يستمر في معاركه حتى النصر التام والقضاء تماما علي أعدائه وهو ما كان في مقدوره في أحوال كثيرة غير أن من الواضح كان يشــك في نوايا الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية علي السواء وربما انه أيضا كان يريد الإبقاء علي قبائل القوط علي أمل أن يتمكن من تجميــع أفراد منها في صفوف جيشه أي أن الموقف في الجــزء الغربــي مــن الإمبراطورية كان غاية في الاضطراب ليس فقط في إيطاليا بل أن القبائل في الفال والأقاليم الألمانية بدأت هي أيضا الثورة كما أن إقلــيم إســبانيا اصبح شبه مستقل عن سلطة الإمبراطورية الغربية في هــذه الظــروف القاسية وصلت الأنباء ٤٠٨ م بوفاة الإمبراطــور الشــرقي Arcadius تاركا في الحكم ابنه الصغير ثيودسيوس الثاني ولم يكن سنه يزيــد عــن سبعة سنوات وفي الحال اعلن استليكو انه سيتجه إلى القسطنطينية ليضم الإمبراطورية الشرقية كلها إلى ممتلكات الإمبراطور الغربي Homorius غير أن الصراع الداخلي في ايطاليا بين الحزب الرومــاني أي الحــزب الذي كان يدافع عن التقاليد الرومانية القديمة والحزب القوطي الذي يمسك في الحقيقة بالقوة العسكرية كان يشتد باستمرار واصــبح كثيــرون مــن الرومان يشكون في سياسة استليكو التي أدت إلى ضياع معظم الأقــاليم الخارجية وكانوا أيضا يشكون من ازدياد السلطة في أيدي أفراد من اصل جرماني سواء في الجيش أو في المناصب الإدارية وفي النهايــة افلــت الأمر من يد استليكو واصدر الإمبراطور أمراً باعتقاله وإعدامه وتم ذلك في سنة ٤٠٨ م وفي نفس الوقت أقيمت المذابح لكثيــر مــن العناصــر

الجرمانية في إيطاليا وقتل الكثيرون وهرب من استطاع الهـرب لكـي ينضم إلى قوات الأريك .

مهما كان رأي المؤرخين في استليكو وسياسته فلا شك انه كـان قائدا جديرا بل افضل قوات عصره واظهر براعة لجميع المعارك الحربية التي خاضها ولعل الفائدة الوحيدة التي حصلت عليها الإمبراطورية بوفاته هي التقريب بين الشرق والغرب فقط كان هو نفسه مـن أهـم أسـباب الخلاف ولكن الأضرار التي لحقت بالإمبراطورية عموما كانـت كثيـرة فأولا : حرم الجيش من افضل عناصره وهي العناصر الجرمانية وثانيا : خلي الجو أمام الأريك وقواته من القوط واصبحت إيطاليا كلهـا تحـت رحمته فزحف بجيشه دون مقاومة حتى وصـل إلـى رومـا وهـرب الإمبراطور Honorius مرة أخرى إلى مدينة رافنـا Ravenna وبـدأ مجلس السيناتو في روما يحاول أن يمسك بزمام السـلطة فـي غيـاب الإمبراطور وقد قدم الأريك إلى مجلس السيناتو شروطه للصلح وهي :

١- دفع فدية كبيرة
٢- أن يسعي مجلس السيناتو لدى الإمبراطور Honorius لعقد صلح نهائي .

وفعلا استخدمت ممتلكات المعابد الوثنية وكان مايزال في رومـا عدد كبير منها لدفع الجزية وانسحب الأريك واتباعه شمالا في انتظار رد الإمبراطور غير أن الجواب جاء بالرفض فلم يرض Honorius بعقـد الصلح ولسنا ندري بهذا التعنت من جانب الإمبراطور ورفضه التفاوض مع الأريك فما كان من هذا الأخير إلا أن اتجه إلى ميناء اوسـتيا Ostia بهدف منع القمح الوارد من شمال أفريقيا من الوصول إلى سكان روما بل أنه اجبر مجلس السيناتو في أواخر عام ٤٠٩ م علي اختيار إمبراطـور جديد اسمه اتالوس Attalius ولكن ظهر مصدر جديد للخطر لم يكن في

الحسبان ذلك أن حاكم إقليم شمال أفريقيا قرر من جهته وقف ارسال القمح إلى ايطاليا وهنا فكر الأريك في إرساله حملة لغزو شمال أفريقيا نفسه وسرعان ما قام الاريك بخلع إمبراطوره الجديد بعد تعيينه في فترة وجيزة ثم اتجه نحو مدينة رافنا لمحاصرة الإمبراطور فيها ولم يشأ أن يضيع وقتا فيها وفضل أن ينهب كل ما يمكن نهبه من مدينة روما وغيرها لكي يستعد لحملته الافريقية وقاست مدينة روما بالذات اهوالا جسيمة من تخريب ونهب ومذابح وهرب من اهلها الكثيرون لكي يتجهوا إلى الشرق أو شمال أفريقيا وكانت هذه نهاية محزنة لروما اصل الإمبراطورية الرومانية كلها ثم قام الاريك وقواته بالزحف جنوبا ونشر الدمار في كل مكان حل به ثم جمع السفن في الطرف الجنوبي لشبه جزيرة ايطاليا لكي ينقل جيوشه عبر البحر المتوسط لكن القوط لم يكونوا بحارة بطبيعتهم ولم يتحملوا أمواج البحر حول جزيرة صقلية فتحطم معظم الأسطول وعاد البعض ممن استطاعوا النجاة إلى ارض إيطاليا وفي هذه الأثناء مرض الأريك نفسه وتوفي فجأة في سنة ٤١٠ م وكان دوره طوال حياته تقريبا هو التدمير والتخريب المستمر .

عصر قنسطاتيوس واتيوس Aetius & Constentius

بدأت مراحل تداعي الإمبراطورية الرومانية الغربية بمجرد وفاة ثيودسيوس الأكبر في سنة ٣٩٥ م وفي المرحلة الأولي ظهرت بعض الشخصيات الرئيسية مثل استليكو والأريك وهي التي لعبت الدور الرئيسي في سياسة الفترة ثم تلي ذلك مرحلة ثانية كان أهم نجومها وهو قنسطاتيوس واتيوس عند موت الأريك تفرغ اتباعه من القوط بعض الوقت حتى وجدوا لهم زعيما جديدا يسمى Adolph أدولف استطاع أن يجمع صفوفهم واستمر حوالي سنتين يحاول تكوين دولة قوطية في إيطاليا وقد وجد أن القوط يحتفظون من بين الرهائن التي احتفظوا بها عند

استيلائهم علي روما شخصية مهمة هي جلا بلاسـيديا Galla Placidia وهي أخت الإمبراطور هونوريس وقد أراد ادولف أن يتزوجها ليعطـي حكمه صبغة شرعية أو علي الأقل كي يحاول أن يبقى العرش فـي يـد أسرته من بعده ثم اخذ في نفس الوقت يحـاول أن يعقـد صـلحا مـع الإمبراطور هونوريوس وهي المحاولة التي فشل فيها الاريك مـن قبـل ولكن مرة أخرى صارت الأحداث في اتجاها مختلفا تماما .

كانت الأمور تزداد سوءا في الأقاليم الغربية مثل الغال واسـبانيا وكان الصراع علي اشده بين القبائل البربرية المختلفة كلا منها تحـاول السيطرة علي زمام الأمور هذا ولو أن الإمبراطور هونوريوس اسـتطاع أن يكون لنفسه جيشا جديدا معظم عناصره من قبائل جرمانيـة مختلفـة ولكنه وضع علي رأس هذا الجيش قائـدا مـن اصـل رومـاني وهـو قنسطاتيوس الذي جاء من إقليم الليريا مثل كثيرين مـن أهـم الابـاطرة والقادة العسكريين في القرن الرابع الميلادي وتمكن القائـد الجديـد مـن تدريب قواته وبث روح الثقة بين الجنود وحاول أن يقود حملة عبر جبال الألب لتهدئة الأمور في منطقة الفال ولم يكن في وسـع الرومـان فـي الحقيقة استعادة هذه المناطق تماما ومن هنا اكتفـى قنسـطانيتوس بعقـد سلسلة من المخالفات مع القبائل المختلفة ليجعل منهم حلفـاء Foederati ونجح في هذه المهمة إلى حد ما بحيث هدئت الأمور في أقاليم الغال ولكن سرعان ما اضطر إلى عودة إلى إيطاليا عندما سمع بـأن الإمبراطـور هونوريوس قد عقد معاهدة مؤقتا مع القوط وعلي رأسهم أدولـف وافـق علي أن يمنحه معونات من القمح الوارد من شمال أفريقيـا فـي نظيـر مساعدته لهم بحروب مع الأقاليم الغربية وهو الاتفاق الذي اظهر الأحداث فيما بعد صعوبة تحقيقه ذلك أن هرقليوس Heraclius حاكم أفريقيا قرر أن يحذو حذو غيره من القادة العسكريين وان يحـاول الاسـتيلاء علـي

السلطة فأوقف تموين القمح عن روما وجمع أسطولاً بحرياً إلى إيطاليا ولكن الأسطول تحطم وكان نصيبه هو الإعدام وان كانت حركاته هذه قد أدت بدورها إلى تحدد الصراع بين الرومان والقوط لا شك أن من أهم أسباب تدهور الإمبراطورية الغربية في هذه الحالة الاقتصادية والاجتماعية ثم زاد الأمر سوءا الصراع المستمر بين قادة الجيوش ومحاولة كل منهم الاستيلاء علي العرش ثم أطماع القادة الجرمان هم أيضا للوصول إلى العرش وقد رأينا كيف أن ادولف لجأ إلى محاولة الزواج من الإمبراطورية جلا بلاسيديا التي تنتمي إلى الأسرة الحاكمة وقد طرأت نفس الفكرة للقائد قنسطانتيوس خاصة وان الإمبراطور هونوريس لم يكن له أبناء وكانت جلا بلاسيديا في الواقع هي الوريثة الوحيدة وبمجرد أن سمع من أن ادولف عزم علي الزواج في سنة ٤١٤ م في مدينة ناربون Narbonne بفرنسا الحالية حتى زحف بجيشه نحو الغال واستمر في متابعة أدولف واتباعه من القوط حتى وصل إسبانيا حيث قتل بالقرب من مدينة برشلونة هذا تجمعت خيوط السلطة اخيرا في يده قنسطانتيوس واصبح القوة الرئيسية في الإمبراطورية الغربية وبدا يعمل علي تجنيد اعدادا كبيرة من العناصر البربرية ثم حاول أيضا عقد محالفات مع القبائل المختلفة للأقاليم الغربية وفي سنة ٤١٧ م تزوج اخيرا من دجلا بلاسيديا وحصل علي لقب أغسطس Augustus وبذلك اصبح شريكا في حكم الإمبراطورية الغربية بجانب الإمبراطور هونوريوس ولم يتمتع بسلطته هذه مدة طويلة فقد توفي عام ٤٢٢ م قبل أن تعترض عليه القسطنطينية وبموته فتح الباب من جديد للصراع علي السلطة بين القادة الرومان وخاصة عندما توفي الإمبراطور هورنوريس في العام التالي ٤٢٣ م اصبح هناك اتجاه قوى نحو حل مشكلة وراثة العرض وذلك بتوجيه الإمبراطورية كلها مرة أخرى أي ضم الأقاليم الغربية إلى حكم

القسطنطينية وهو ما كان يصعب تحقيقه في الواقع ومن هنا تغلب الإتجاه الثاني وهو تعيين إمبراطور جديد للغال ووقع الاختيار فعلا علـــي أحـــد كبار الدولة واسمه يوحنا .

وفي الواقع أن الإمبراطور الجديد لم يكن لديـــه فرصـــة كبيـــرة للاستقرار وخاصة عندما ظهر قائد عسكري جديد بين صفوف الجيش هو ايتوس وكان من اصل روماني ولكن نفوذه كان كبيرا بين القبائل البربرية وخاصة الهون Huns .

الواقع أن هؤلاء الهون أهم مصدر للجنود في هذه الفترة وخاصة بعد المذابح والكراهية التي لحقت بالقوط والعناصر الجرمانية الأخـــرى وأيضا بعد أن تم استنزاف كثير من العناصر الصالحة للخدمة العســكرية فانها وقد بدأ ايتوس في العمل في الحال وعمل علي مساندة الإمبراطـــور الجديد يوحنا لكي يحتفظ بعرشه كما أرسل جيشا لاستعادة شمال أفريقيـــا غير ان القسطنطينية لم تكن راضية عن هذه الأوضـــاع وقـــررت خلـــع الإمبراطور الغربي يوحنا وارسلت جيشا لمساندة الإمبراطـــور الجديـــد أرسلته من الشرق وينتمي إلى أسرة ثيودسيوس فهو ابن للامبراطورة جلا بلاسيديا وكان هذا الإمبراطور الجديد فالنتينان الثالث Valentinun فلـــم كان ما يزال طفلا فقد وضع تحت وصاية أمه جلا بلاسيدينا من ناحيـــة أخرى وجد اتيوس القائد العسكري أن مهمته صعبة فلم يكن في مقـــدوره السيطرة على أقاليم الغال التي أصبحت في الحقيقة تخضع للقبائل المختلفة المتفرقة منها وكل من التمكن من التوصل إليه وعقد محالفات مع مختلف القبائل ومن هنا بدأ يفكر في مشاكل إقليم أفريقيا وهو الإقلـــيم الحيـــوي بالنسبة لايطاليا فيما يتعلق بتموين القمح وقد اصبح إقلـــيم أفريقيـــا الآن وتحت سلطة عنصر جرماني جديد هو الوندال Vandals كان الو نـــدال من قبائل الجرمانية التي جاءت اصلا من منطقة اسكندفاية فـــي شـــمال

أوروبا ثم بدأوا في اوائل القرن الرابع الميلادي أي في أيـــام قســطنطين يتوجهون جنوبا مثل غيرهم من القبائل الجرمانية ثم اتجهت اعدادا كبيرة منهم إلى الغال وبدأوا أعمال النهب والسلب مثل غيرهم واخيرا زحفــوا نحو اسبانيا باعداد كبيرة من أوائل القرن الخامس المـــيلادي واســتقروا بأعداد كبيرة في المنطقة الجنوبية وبدأوا يوحدون صــفوفهم ويشــكلون خطرا جسيما عندما اختاروا لهم ملكا أو قائــد كبيــرا اســمه جيســرك Gaiseric وكان من ابرز القادة العسكريين واكثرهم شجاعة وامتاز بالقوة البدنية وقوة التحمل كما عرف بالقسوة والصرامة المتناهية وكانــت لـــه اطماعه السياسية أيضا كما وضع نصب عينيه الأقاليم الافريقيـــة الغنيـــة بالقمح وفعلا عبر البحر علي رأس قوات كثيرة في عــام ٤٢٩ م وتقــدم بسرعة نحو إقليم نوميديا Numidia في الشرق وبذلك اصــبح الونــدال ودولتهم في شمال أفريقيا يشكلون خطرا جســيما علـــي الإمبراطوريـــة الرومانية ليس فقط بسبب منعهم لتموين القمح عن إيطاليا ولكـــن أيضـــا لسيطرتهم بأساطيلهم القوية علي غرب البحر المتوسط ولعل هــذا هـــو السبب الذي جعل القسطنطينية تحد هي أيضا بالخطر فحاولت أن ترســـل قوات لمساعدة الغرب كانت هذه القوات لم يكن في مقدورها الوقوف أمام الوندال .

طوال هذه الفترة لم تنقطع مؤامرات القادة العسكريين الرومـــان ولا التنافس علي السلطة فيما بينهم والواقع أن الإمبراطورية الرومانيـــة تحولت إلى اقاليم شبه مستقلة كل منها تحت سلطة قادة عســكريين لهـــم جيشهم الخاص ولم يكن هؤلاء القواد علي استعداد لوقف الصراع فيمـــا بينهما لانقاد الإمبراطورية ولو أن ايتـــوس اســتطاع أن يجمـــع معظـــم السلطات في يده بل انه تمكن في عقد اتفاقية مع الوندال في عام ٤٣٥ م وترك لهم مناطق واسعة من أفريقيا علي أن يستمر امداده بالقمح غير أن

جيسرك سرعان ما حاول مرة أخرى زيادة نفوذه والسيطرة علي جميــع الأقاليم الافريقية بل وأيضا جزر البحر المتوسط مثل صــقلية وســردينيا وهي التي كانت تمد روما بكميات من القمح أي أن الحصار علي رومــا كان يشتد من كل جانب ولم يعد لديها فرصة حقيقيــة للســيطرة علــي ممتلكاتها في الخارج .

٣- مراحل تداعي الصراع بين الإمبراطورية والهون Huns

في هذه المرحلة الثالثة من مراحل تداعي الإمبراطورية الغربيــة الرومانية وهي المراحل التي بدأت منذ وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس في أواخر القرن الرابع الميلادي وكان العنصر الحاسم في هذه المرحلة هــو الهون وخاصة عندما تولي زعامتهم شخصية من أهم شخصــيات هــذه الفترة وهي اتيلا Aitila وكان اتيلا رجل حرب وسياسته كلها تقوم علي التدمير والتخريب والنهب أما التنظيم وشئون الحكم فلم تكن تعنيه كثيــرا وبدأت المنطقة الخاضعة له تتسع فقد اتخذ كمقر له منطقة تقع شمال نهر الدانوب مباشرة وامتد نفوذه غربا وشرقا حتى شمل معظم مناطق أوروبا شمال نهر الدانوب في جبــال الألــب واخيــرا اتجــه بانظــاره نحــو الإمبراطورية الرومانية التي كانت برغم كل الخسائر التي التحقت بهــا ماتزال تحتوي علي ثروات كبيرة وتنقسم حياة اتيلا إلى مرحلتين :

١- ففي المرحلة الأولى من حــوالي ٤٤٠ - ٤٥٠ م وجــه هجماته أساسا نحو القسطنطينية ثم بعد هذا التاريخ بــدأ يهــاجم أساســا الإمبراطورية الغربية ففي المرحلة الأولى قام ايتلا بهجمات مركزة علي القسطنطينية وطالبها بجزية كبيرة لم تستطع الوفاء بها فبدأ ايتلا واتباعه من الهون يهاجمون مناطق البلقان وينهبون موارده ولم يقف أمــامهم أي عائق حتى وصلوا إلى القسطنطينية التي أنقذتها أسوارها العالية ولما وجد اتيلا انه لم يبق أمامه ما يستطيع نهبه سوى القسطنطينية بدأ يتجه نحــو

الغرب وقد أصبحت لديه قوات ضخمة وقد بالغ المؤرخون في تقدير هذه القوات ولكنها اشتملت علي أي حال علي أعداد لا حسرة لها من الهـون وحلفائهم من مختلف القبائل الجرمانية وشعر اتيوس بخطورة الموقف وقد كان هو أيضا يعتمد علي عناصر جرمانية في تكـوين جيشـه واعتمـد اتيوس علي براعته في فنون الحرب وان كان الخسائر في الارواح فادحة للطرفين بحيث كان الاشتباكات دائما تنتهي بنتائج غير حاسمة والواقع أن اتيلا احسن في صراعه مع قوات نظامية تابعة للامبراطورية الغربية أن تجاربه قاسية ومن هنا حاول في المرحلة التاليـة أن يتفـادى المعـارك النظامية .

رغم ذلك فقد كان لابد من اتيلا من الاستمرار في الحرب حتى لا يتفرق اتباعه وكان اسهل فريسة وجدها امامه وهي منطقة شمال إيطاليـا فهاجمها في عام ٤٥٢ م وبدأت المدن تسقط في يده ومن أهمهـا مدينـة اكويليا Aquileia وقد خرب الهون المدينة تخريبا تاما وقتلوا كثيرين من السكان وهرب منهم من استطاع النجاة إلى منطقة المستنقعات المجاورة وأسسوا فيما بعد مدينة فنسيا ثم سقطت باقي المدن مثل ميلان ، بافيا ولم ينقذ روما نفسها إلا انتشار الوباء في شمال إيطاليا في ذلك الوقت وهو ما كان يحدث كثيرا في العصور القديمة مما أدى إلى وفاة كثيرين من الهون واوقف تقدمهم ثم حدث حدث آخر أوقف الخطر بشكل غير متوقـع فقـد توفي ايتلا نفسه فجأة عام ٤٥٣ م وبذلك انتهت مرحلـة مـن مراحـل التخريب التي حلت بالقسم الغربي من العالم الروماني والواقع اننا نصـل بذلك إلى آخر مرحلة من مراحل تداعي الإمبراطورية الغربيـة فمجـرد زوال الخطر المباشر من جانب القوط بدأت الصراعات الداخلية والتنازع والمغامرات التي أصبحت الآن موجهة إلى الشخصية الرئيسية المتبقيـة وهي اتيوس فقد اتهم بأنه لم يدافع عن إيطاليا كما يجب هذا مع العلم بأنه

في الحقيقة لم تكن لديه أي إمكانيات للدفاع عن الغرب وبدأت الدسائس تزداد حتى قام الإمبراطور فالنتيان الثالث بنفسه بقتل القائد اتيوس خلال إحدى مقابلتهم في عام ٤٧٤ م وكان الإمبراطور في الحقيقة يمهد بذلك لنهايته هو أيضا فقد قامت مؤامرة بالتخلص من الإمبراطور وقتل في المؤامرة فعلا ولما لم يكن لديه وريث فقد فتح الباب من جديد للصراع علي السلطة ثم انه لم يكن هناك قائد حربي يمكن في الحقيقة أن يحل محل اتيوس وكانت الفرصة مواتية تماما لدولة الوندال في شمال أفريقيا بزعامة جيسرك Gaiseric الذين كانوا يتحفظون للهجوم علي إيطاليا وفعلا ابحر جيسرك باسطوله نحو إيطاليا واتجه إلى روما مباشرة ولم يصادف مقاومة تذكر وبدأ في نهب الثروات المتبقية في معابد وقصور المدينة كما انه اخذ أعداداً كبيرة من الأسرى للحصول علي الفدية عنه فيما بعد وبذلك اصبح الوندال أهم القوى الكبرى في إيطاليا كما اصبح أسطوله مسيطر علي قسم كبير من حوض البحر المتوسط الغربي وأخذت القبائل الجرمانية المختلفة تتصارع فيما بينها وتحتل كل ما تستطيع احتلاله من اجل أجزاء شبه الجزيرة الإيطالية واعتبرت الإمبراطورية الرومانية الغربية منتهية من حيث الواقع .

الإمبراطورية الشرقية في القرن الخامس

بينما كانت الإمبراطورية الغربية تمر بمرحلة صراع عنيف ضد القبائل الجرمانية المختلفة وساءت فيها الأحوال إلى درجة كبيرة كانت القسطنطينية والإمبراطورية الشرقية في حالة افضل من وجوه كثيرة وإذا عدنا إلى أوائل القرن الخامس الميلادي حين توفي الإمبراطور اراكاديوس ٤٠٨ م نجد أن خليفته وهو ثيودوسيوس الثاني كان ما يزال طفلا صغيرا ولكن لم تكن هناك دسائس ولا مناورات ولا صراعات بين القادة العسكريين وكان أهم قواد الجيش هو انثيميوس Anthemius كان رجلا متزنا وحاول تهدئة الأحوال علي الحدود المختلفة فعقد اتفاقية مع الفرس لتهدئة الجبهة الشرقية واعاد بناء الأسطول الروماني في نهر الدانوب وكانت أهميته لا تقدر بحماية الحدود الشمالية كما حاول إصلاح الأمور في مناطق البلقان التي دمرها القوط ورغم وفاة انثيموس ٤١٤ م إلا أن الإمبراطور الصغير وجد رعاية من أخت له تكبره قليلا هي بولكيريا Pulcheria التي كانت تتميز بالرزانة والتعقل وامسكت بزمام الأمور طوال حياتها ورغم أن الإمبراطور بلغ سن الرشد علي أي حال كان حكم ثيودوسيوس الثاني طويلا نسبيا فقد عاش حتى عام ٤٥٠ م تزوجت بولكيريا علي اثر وفاة شقيقها الإمبراطور من أحد قادة الجيش وهو مارقينوس Marcianus وكان متقدما في السن وكان الزواج بشكل عام زواجا سياسيا وكانت الإمبراطورية في حاجة إلى خبرة الحاكم الجديد في النواحي العسكرية والإدارية أيضا واستمرت سياسة المهادنة سواء علي الحدود المختلفة أو فيما يتعلق بالتعامل مع القبائل الجرمانية المختلفة في المرحلة التالية بعد وفاة مارقينوس سنة ٤٥٧ م تولى الحكم إمبراطور جديد هو ليو الأول ٤٥٧-٤٧٤ م وكان من فئة القادة العسكريين غير أن

أهم أحداث حكمه هو محاولة إحلال التوازن بـين العناصـر العسـكرية المختلفة ولما كان هو نفسه من إقليم ايسوريا Isauria في آسيا الصغرى فقد بدأ في استخدام اليسوريين كعنصر رئيسي في الجيش .

والواقع أن هذه الفترة تميزت بزيادة أهمية العناصر التي جـاءت أساسا من منطقة آسيا الصغرى وكان هذا لابد أن يؤدي إلى وقف خطورة العنصر الجرماني بل أن الإمبراطور ليو اختار خليفته من هذه العناصر اليسورية وهو الإمبراطور زينو Zeno ٤٧٤ – ٤٩١ م .

أثبتت هذه العناصر اليسورية في الجيش أهميتها ولو أن مشـكلة بدأت تظهر وهي أن هؤلاء اليسوريين كانوا لفترة طويلة عنصـر غيـر مستقر في منطقة آسيا الصغرى ولم تكن سمعتهم عاليـة لـدى سـكان العاصمة القسطنطينية ولكن هذه الخطورة لم تظهره بشكل حـاد لفتـرة طويلة وعلي أي حال فلم تكن هناك عناصر أخرى تصلح للتجنيـد فـي صفوف الجيوش الرومانية خلال فترة حكم زينو أيضا بـدأت خطـورة القبائل العربية في الظهور فقد أخذت هذه القبائل تتجه شمالا مـن شـبه الجزيرة العربية وتهدد مناطق الحدود الرومانية ثم بدأ الأخطـار أيضـا تزداد في منطقة البلقان من جانب القبائل البلغارية وغيرها من العناصـر الجديدة وان كان الإمبراطور زينو بشكل عام استطاع أن يحـافظ علـي التوازن الداخلي حتى وفاته .

كان الإمبراطور التالي هو اناستاسيوس Anastasius مـن ٤٩١ – ٥١٨ م وكان ضابطاً من ضباط الجيش متقدم في السن نسبيا وقد وجد إلى جانبه مستشارين في المسائل الإدارية والمالية وحاول أن يحل مشكلة العناصر اليسورية وكانت خطورتها تزداد بشكل مستمر وقد تمكن مـن نقل أعداد كبيرة منهم إلى منطقة تراقيا في شمال البلقان ولو انـه كـان

يحس باستمرار بأهميتها فيما يتعلق بتكوين الفرق اللازمة لحماية الحدود المختلفة .

وهكذا نرى أن السر الأساسي في نجاح أباطرة القرن الخامس الميلادي في القسطنطينية في المحافظة علي كيان الإمبراطورية يرجع أساسا إلى التوازن الذي أوصله إليه حاملي الفرق العسكرية بحيث لم يطغى العنصر الجرماني علي غيره من العناصر فقد كانت هناك فرق معظمها من عناصر شرقية ليس فقط من اصل ايسو ري بل كانت هناك أعداد كبيرة من الأرمن وغيرهم من سكان المناطق الجبلية في الإمبراطورية الشرقية.

جستنيان وثيودورا

علي اثر وفاة الإمبراطور اناستاسيوس في عام ٥١٨ م تولى العرش إمبراطور جديد هو جستينوس وكان رئيسا للحرس الإمبراطوري ومتقدما في السن فهو جندي محترف تولى السلطة دون معارضة وقد ولد أصلاً في إقليم اليريا في البلقان أي انه أول إمبراطور يجري في عروقه الدم اللاتيني منذ عهد بعيد وكانت فترة حكمه هادئة بشكل عام هذا ولو انه فيما عدا خبرته العسكرية وخدمته الطويلة في صفوف الجيش لم تكن له مميزات تذكر ولم يتلقى تعليمه كثيرا وبشكل عام يذكره التاريخ لانه صار علي سياسة المهادنة ومحاولة استرضاء الفرق الدينية المتصارعة وخاصة في الأقاليم الشرقية ثم انه وضع قرب نهايته سلطات واسعة في يد ابن اخيه وولي عهده جستنيان Justinianus الذي تسلم السلطة في عام ٥٢٧-٥٦٥ م .

وقد تربي في العاصمة ورغم انه لم يكن يتمتع بمواهب طبيعية خارقة إلا انه كان نشيطا ومحبا للعمل وتمرن علي الأعمال العامة في العاصمة فترة طويلة واكتسب خبرة واسعة وخاصة في المسائل الإدارية

وبعد أن اشترك في الحكم مع عمه استطاع أن يرث الحكم بسهولة ويبـــدأ في تنفيذ خططته ومشروعاته التنظيمية .

اكبر تأثير وقع علي جستنيان جاء من ناحية زوجتـــه ثيـــودورا Theodora وهي شخصية من أقوى وأغرب شخصيات التاريخ وللأسف أن جزءا كبيرا من معارفتنا بها يأتي من كتاب اسمه التاريخ السري وهو ينسب عادة إلى المؤرخ بروكوبيوس وهو يذكر الكثير من التفاصيل عن حياتها الأولى كمملثة في ملهي الهيبودروم وهو ليس فقط ميـــدان ســـباق العربات وانما مركز الحياة الاجتماعية في القسطنطينية بشكل عام علـــي أي حال فقد انتهت هذه المرحلة من حياة ثيودورا بزواجها من جســـتنيان في حوالي عام ٥٢٦ م وبدأت تلعب دورا رئيسيا في سياسة القسطنطينية وتقوم بكثير من الإصلاحات وكما تقوم بدور هام في شـــغل الوظـــائف الكبرى بالدولة سواء الوظائف السياسية وحتى العسكرية ولا شك انه كان لها دور مهم في و ضع النظم للاصلاحات الاجتماعية ثم أنها كانت تلطف من حدة الصراعات الدينية وخاصة عندما يتمادا زوجها جســـتنيان فـــي محاولة فرض تفسيراته الدينية علي الأقاليم المختلفة ولا شك أن معرفتها بأحوال الحقيقة في الأقاليم الشرقية بالذات وخاصة سوريا ومصر كانت يجعلها دائما تحاول أن تكون السياسة واقعية وفعـــلا تمكنـــت بوســـائل مكشوفة أحيانا ومستقرة أحيانا أخرى من التوصل إلى السبل للاسترضاء الطوائف الدينية الثائرة في هذه الأقاليم والتي ربطت بين الدين والشـــعور القومي بحيث كان يبدو في احيان كثيرة أن الإمبراطور والامبراطـــورة يسيران علي سياستين مختلفتين تماما وربما كان هذا من العوامـــل التـــي خدمت سياسة الدولة بشكل عام .

تولى جستنيان الحكم في سنة ٥٢٧ م وتوفي عام ٥٦٥ م أي أن حكمه استمر فترة ٣٨ عاما وقد تسلم الحكـــم والامبراطوريـــة الشـــرقية

بالذات في حالة من الانتعاش لم تراها منذ عهد بعيد وربما منذ عصر قسطنطين نفسه والحدود سواء الشمالية أو الشرقية هادئة إلى حد بعيد كما أن الاوضاع الداخلية مستقرة بشكل عام .

ثورة النصر Nika

كانت مطامع جستنيان بلا حدود واسرف منذ بداية حكمه اسرافا شديد في كافة المجالات وكانت خزائنه باستمرار في حاجة إلى ايردات متزايدة وكان خير مساعد له في هذا السبيل هو وزير ماليته ومستشاره المفضل يوحنا الكبادوكي نسبة إلى إقليم Cappadocia بآسيا الصغرى وكان بارعا في جمع المال قاسيا لا يعرف الرحمة رغم انه لم يتلق تعليما كثيرا إلا أن ذكاءه الفطري جعله يحتال بكافة الوسائل لجمع الضرائب في كافة المجالات والواقع أن نظام الضرائب نفسه في الإمبراطورية عندما تسلمها جستنيان كانت منه نقاط ضعف كثيرة فقد كانت الاحتكارات تمنح بكثرة والضرائب تجمع عن طريق الوسطاء الملتزمين وبذلك كانت الدولة تحصل علي ايراد ثابت ومنتظم ولكن الملتزمين كانوا يقيمون بجمع أضعاف ما يعطينهم في النهاية للدولة ولابد أن يؤدي ذلك في النهاية إلى سوء الحالة الاقتصادية والواقع أن الخزينة تمتعت بدخل كبير لفترة زمنية طويلة حتى في اشد أزمات الحروب ولكن ذلك علي حساب المستقبل وأدى في النهاية إلى سو ء حالة الأقاليم وتدهور اقتصادياتها .

نشط يوحنا الكبادوكي في تحصيل الضرائب وخاصة من المزارعين بدرجة جعلت الكثيرين منهم يتركون أراضيهم ويتجهون إلى العاصمة القسطنطينية باعداد كبيرة وكلهم ثورة علي الحكم الذي يصدر القوانين والنظم الجائرة (الظالمة) وفي حوالي ٥٣٢ م بدأ الخطر يشتد واصبح يهود نظام الحكم كله .

منذ عهد بعيد كان الهيبودروم الذي كان أصـــلاً مركـــز الحيـــاة الاجتماعية وأنواع اللهو المختلفة اصبح أيضا مركز الحياة العامة يـــنفس فيه الجميع عن مشاعرهم ويبدون أراءهم فـــي مختلــف الموضـــوعات والواقع أن المباريات الرياضية نفسها أصـــبحت تنظمهـــا فـــرق تمثـــل الأحزاب المتصارعة في المدينة ومنذ قرون طويلة كان هنـــاك حزبـــان كبيران هما حزب الزرق وحزب الخضر اللذين استمرا طـــوال القـــرن الخامس الميلادي يزدادان قوة ويتدخلان اكثر واكثر في المسائل السياسية وحتى في المشاكل الدينية وكثيرا ما أوجد حالة من الفوضي بحيـــث لـــم يستطع الأباطرة أن يقفوا بعيدا وكثيرون منهم انضموا إلى حد الحـــزبين ونعرف أن جستنيان نفسه كان في بداية حياته من أنصار حزب الـــزرق لكي يستغلهم ضد الحزب المنافس في بدايـــة ٥٣٢ م إذن نشـــبت ثـــورة خطيرة قام بها هذان الحزبان من جهة والمهاجرون في العاصمة من جهة أخرى مع أن جستنيان كان يعطف علي حزب الزرق إلا انه نظرا لشـــدة الاضطرابات كان لابد من أن يقف موقفا حازما واختار سبعة من زعماء الحزبين لتنفيذ حكم الإعدام فيهم علننا ليكونوا عبرة لغيرهم وفعـــلا قتـــل أربعة منهم ولسبب ما افلت الباقون من الإعدام ربما بسبب حالة الفوضي في المدينة وتهديد الجماهير الضخمة وعلي أي حال فقد افلـــت الزمـــام واتحد الزرق والخضر مع غيرهم في ثورة عامة كـــان شـــعارها كلمـــة Nika أي النصر .

وثار الثوار في شوارع المدينة واحرقوا الكثير من المباني العامة وطالبوا بعزل وزير المالية يوحنا الكبودوكي الذي كان السبب الرئيســـي في فرض الضرائب الباهظة كما طالبوا بعزل غيره من المسئولين وفـــي النهاية قاموا بإعلان إمبراطور جديد بدلا من جستنيان كانت القسطنطينية خالية تقريبا من الجيش فيما عدا فرقة من الحرس الإمبراطوري ويبدو أن

جستنيان نفسه بدأ يستعد للهرب لولا أن ثيودورا تدخلت واقنعته بالوقوف أمام الثوار وتم توزيع الرشاوي بسرعة لمحاولة استرضاء بعض الأنصار وتفريق صفوف الثوار واستدعيت القوات العسكرية من المناطق المختلفة وتم وضع القائدين الكبيرين بلزاريوس ومنــدس ووضــعوا علــي رأس القوات وبدأت عملية اخلاء الشوارع من الثوار ودار القتال الرئيسي حول الهيبودروم وأدى الثوار شجاعة نادرة واستمروا في إشعال النيران فــي المباني الدينية والمدينة أيضا واخيرا قام الجيش بهجــوم مركــز علــي الهيبودروم وقتلوا أعدادا كبيرة من الثوار وانتهت بذلك هذه الثورة وبــدأ جستنيان يفكر في تنفيذ مشروعاته الضخمة .

الخطوط الأساسية لسياسة جستنيان

كانت سياسته في البداية تقوم علي عدة عوامل رئيسية : -

١- العمل علي استعادة جميع الأقاليم التي كانت في وقت ما جزء في الإمبراطورية الرومانية وقد صار جستنيان شوطا بعيــدا في هذا الاتجاه ولم يقف أمامه عائق في سبيل الوصول إلــى هذا الهدف الذي استغرق فترة حياته كلها تقريبا .
٢- العمل علي إصلاح الجهاز الإداري بعد أن أصابه الكثير من التعقيدات وذلك ليضمن حسن الإدارة ويقلل من ا لتنافس بين كبار رجال الدولة وكانت الوسيلة الأساسية في هذا الاتجــاه هي تنظيم القوانين وترتيبها ووضعها فــي صــيغة يســهل الرجوع إليها .
٣- المباني العامة سواء كانت دينية أو مدنية شغلت جستنيان إلى حد بعيد فاعاد بناء الكثير من المبــاني التــي دمــرت فــي العاصمة ونشطت مدارس العاصمة والفنون بل وصلت إلــى قمة مجدها ثم اهتم جستنيان بالأقاليم الخارجية واقــام فيهــا

أيضا الكثير من المباني بعضها له الصفة الدينيـــة والـــبعض الآخر كان عبارة عن قلاع وتحصينات وخاصة في منـــاطق الحدود.

٤- فيما يتعلق بالسياسة الدينية فقد أراد جســـتنيان أن يقضــــي علي أسباب الخلاف التي كانت تزداد باستمرار وتؤدي إلـــى حركات من الانشقاق وخاصة في الأقاليم الشرقية وكان يعتقد انه لابد من وحدة دينية تقوي دعائم الوحدة السياسية غير أن محاولاته المستمرة لإصدار الفتاوي والتشريعات فـــي هـــذا الاتجاه لم تؤد إلى نهاية الخلافات بل ربما زادتها تعقيدا .

الحروب الخارجية

١- الحملة الأفريقية :

كان الهدف الأول لجستنيان الذي لم يتزحزح عنه طوال حياته هو استعادة الأقاليم الغربية إلى الإمبراطورية الرومانية وهو أول إمبراطـــور منذ عهد بعيد يعتبر نفسه رومانيا ومسئولا عن الإمبراطورية كلها وليس فقط الجزء الشرقي من الناحية النظرية لم تكن الأقاليم الغربية قد انفصلت عن العالم الروماني فقد كان حكام هـــذه الأقـــاليم يرتبطـــون بمعاهـــدات واتفاقات مع الرومان أي انهم من الناحية الاسمية كانوا يخضعون للحكـــم الروماني ولكن من الناحية العملية كان كل إقليم يتمتع باســـتقلاله التـــام واكثر من ذلك كانت الأقاليم كلها تبتعد تدريجيا عـــن الـــنظم والتقاليـــد الرومانية وتتجه نحو البربرية ومن هنا فان جســـتنيان اعتبـــر مـــن أول واجباته أن يعيد هذه الأقاليم إلى الحكم الروماني المنظم .

كانت تقوم في الأقاليم الأفريقية دول للوندال واستقرت هذه الدولة لمدة قرن كامل قبل عصر جستنيان ولكن من ناحية أخرى فقد بدأ الوندال يتعودون علي حياة الهدوء ويفقدون الكثير ن شجاعتهم وقوتهم الأصـــلية

وحبهم للحروب كما بدأت الخلافات تزداد فيما بينهم واتهموا جستنيان من هذه الخلافات ذريعة للتدخل وبدأوا يعدوا جيشا من منطقة شمال أفريقيا رغم ما في هذا المشروع من خطورة خاصة وان الجبهة الفارسية لم تكن خالية من المشاكل وقع الاختيار بالطبع علي القائد بلزاريوس Belizarius الذي كان يحظي بثقة جستنيان بعد قضائه علي ثورة النصر وابحر الجيش فعلا في عام ٥٣٠ من القسطنطينية يصحبه مؤرخ العصر بروكوبيوس الذي ترك لنا تاريخا مفصلا للأحداث ولم يكن الجيش الروماني كبيرا في بداية الأمور ولكنه استغل ضعف الوندال وتفرقهم فلم يكن في مقدوره في الحقيقة السيطرة علي الأماكن الشاسعة التي فتحوها في شمال أفريقيا وعندما وصل بلزاريوس وقواته إلى شمال أفريقيا كان الوندال فعلا مشغولين في القضاء علي الثورات ضدهم سواء في شمال أفريقيا أو في جزر البحر المتوسط وخاصة جزيرة سردينيا وفي عام ٥٣٣ م استولى بلزاريوس علي مدينة قرطاجة ويبدو أن أهلها رحبوا به ثم استمرت انتصاراته حتى قضي علي دولة الوندال التي استمرت قرن كاملا واخذ بلزاريوس بعض الكنوز الكثيرة التي كان الوندال نهبوها من إيطاليا وروما في القرن السابق أي الرابع وعاد بلزاريوس منتصرا بغنائمه إلى القسطنطينية و مع ذلك لم يستتب الأمر بسهولة للرومان ولم تخضع شمال أفريقيا حتى عام ٥٤٨ م فقد استمرت قبائل البربر مصدرا للخطر من الجبال الداخلية وكان من السهل عليها القيام بحملات ضد الحاميات الرومانية التي بقيت في قرطاج وغيرها من المدن .

ومن الصعب أن نقول انه ما إذا كانت الإمبراطورية قد حصلت علي فائدة حقيقية من هذه الغزوة التي كانت تكاليفها باهظة واستنزفت الكثير من خزينة الدولة ومن ناحية أخرى كان لابد من الحفاظ علي الحاميات بصفة مستمرة ولم يسيطر الرومان رغم هذا كله إلا علي

الشريط الساحلي ولم يكن في مقدورهم السيطرة علي مناطق الجبلية في الداخل ولعل أهم مميزات التي حصل عليها جستنيان هو سيطرة أساطيله علي حوض البحر المتوسط كله وهي مسألة ذات أهمية كبرى بالنسبة للإمبراطورية .

٢- الحملة الايطالية :

شجع وصول بلزاريوس إلى القسطنطينية باسراء وغنامه شجع جستنيان علي الاستعداد لحملة جديدة كان هدفه منها دولة القوط في إيطاليا ومرة أخرى استغل جستنيان فرصة حدوث بعض الخلافات الداخلية بين القوط وكانت هذه الذريعة التي اتخذها جستنيان للتدخل ، واراد جستنيان أن يرسل حملتين حملة برية تهاجم إيطاليا من الشمال وكانت هذه الحملة تحت قيادة القائد الكبير مندس Mundus والحملة الثانية عن طريق البحر لكي تهاجم إيطاليا من الجنوب ويقودها بلزاريوس في عام ٥٣٥ م اتجه مندس نحو شمال البلقان بينما اتجهت قوات بلزاريوس بحرا إلى جزيرة صقلية والواقع أن سكان إيطاليا كانوا قد اصبحوا يشعرون بالكراهية للحكم القوط واستطاع بلزاريوس بسهولة أن يحتل مدينة نابولي وغيرها من مدن الجنوب ثم اتجه نحو روما ودخلها بسهولة ولكن القوط سرعان ما وحدوا صفوفهم وبدأوا في مهاجمة الجيوش البيزنطية واضطر بلزاريوس أن يحتمي داخل أسوار مدينة روما لمدة عام كامل ٥٣٧-٥٣٨ م ولم تفلح محاولات القوط في اقتحام المدينة والاستيلاء عليها علي رغم من نجاح القائدين البيزنطيين إلى حد ما فيبدو أن التنسيق بينهما لم يكن كامل بل ربما كانت بينها خلافات احس بها جستنيان وقرر استدعاء بلزاريوس وارسل من ناحية جيش جديد تحت قيادة نارسيس Narses كان نارسيس أحد موظفي القصر ولم تكن له خبرة حربية ولكن الأحداث اثبتت ثواب الاختيار فقد اظهر نارسيس

Narses عبقرية بفنون الحرب وبدأت المعارك مرة أخرى ضـد القـوط ولولا أن المشاكل لم تنته بسهولة واخذ القوط في تخريب الكثير من مدن شمال إيطاليا ولم يوقف زحفهم نحو روما وزيادة التخريـب فـي بـاقي مناطق إيطاليا إلا انتشار الطاعون بشمال إيطاليا وهو ما كان يحدث كثيرا ومرة أخرى استدعي جستنيان قائد نارسيس واعاد بلزاريوس الذي واصل نجاحاته واستطاع أن يسيطر علي الموقف إلى حد ما وكان مـن اظهـر العيوب في جستنيان تشككه في مستشاريه وتعديل القيـادات العسـكرية بشكل مستمر وربما أيضا أن ازدياد الخطر علي الجبهة الشرقية كان من العوامل التي جعلت جستنيان يستدعي بعض قواده من وقت لآخـر مـن إيطاليا لكي يواجه الغرب ولكنه في النهاية ترك للقائد بلزاريوس الفرصة لكي يحاول الإمساك بزمام الموقف وللآسف لم تكن لديه القوات الكافيـة وبذلك استمرت الحروب في شبه جزيرة الإيطالية حتى عام ٥٥٢ وهـي فترة طويلة اكثر من اللازم واستنزفت معظم إمكانيات الدولة ومرة أخرى نقول انه رغم خضوع إيطاليا للحكم البيزنطي إلا أنها كانت قد تدهورت اقتصاديا وقل عدد السكان ونزح منهم من استطاع الهـرب وتـدهورت قنوات المياه في المدن وقل عدد أفراد الطبقة العليا بحيث لا نكاد نسـمع عن مجلس السيناتو الروماني منذ منتصف القرن السادس الميلادي ربمـا انه لم يعد هناك في روما عددا كافي من أعضاء الطبقـة العليـا للقيـادة مجلس السيناتو ورغم محاولات جستنيان بإصـلاح الأحـوال وتحسـين الزراعة وتشجيع التجارة إلا أن التدهور استمر وفي نهاية عصر جستنيان كانت إيطاليا قد بدأت تدخل فعلا مرحلة العصور المظلمة .

٣- الحملة الإسبانية :

علي الرغم من الصعوبات التي واجهتهـا الحمـلات البيزنطيـة المتوالية في شمال أفريقيا و في إيطاليا وعلي الرغم من أن الأمور لم تكن

في الحقيقة قد استقرت في الأقاليم التي استعادها جستنيان إلا أن ذلك كله لم يمنع الإمبراطور من محاولة القيام بغزوة جديدة كـــان الهـــدف منهـــا استعادة الأقاليم الأسبانية من حكم القوط الغربيون وفعلا أرسل جيوشــــه ويكفي أن نشير إلى أن كل من استطاعه جستنيان هو اســـتعادة الجـــزء الجنوبي من شبه الجزيرة وبعض المناطق علي ساحل البحر المتوسط ولم تستطع القوات البيزنطية التوغل في المناطق الجبلية الداخلية لعدم كفايتهم من ناحية ولشدة المقاومة التي قابلتها من سكان المناطق الجبليـــة أي أن الحملة انتهت بنفس النتائج التي انتهت إليها الحملات السابقة ولم تخضـــع إسبانيا إلا بشكل جزئي .

كان الخطر الأكبر في سياسة جستنيان الخارجية هو محاولة القيام بغزوات اكبر مما يستطعيه إمكانيات الإمبراطورية الشـــرقية فـــي ذلـــك الوقت الذي قام فيه ببرنامج ضخم من المباني العامة في الـــداخل وكـــان فترة الحكم كلها في غاية الإسراف بينما أن موارد الإمبراطوريـــة فـــي الواقع كانت في حالة إلى عناية ثم أن جستنيان اهتم أساسا بالقسم الغربي واهمل إلى حدا كبير الحدود الشرقية التي كانت تحتاج إلى دقة وملاحظة خاصة وان الفرس الساسانيون كانوا منذ عهد بعيد يطمعون في التوســـع علي حساب الإمبراطورية البيزنطية واشتد النـــزاع اكثـــر فـــي عصـــر جستنيان حينما حاول نشر المسيحية شرقا داخل نطاق العالم الفارسي ومن هنا اشتد الصراعات ونسمع عن محاولات جستنيان لتهيئة الوضع في عام ٥٣٢ م رضي جستنيان بدفع جزية للفرس في سبيل مساعدته في إخضاع عن مناطق آسيا الصغرى وقد أطلق علي هذه الاتفاقية اسم السلام الأبدي ومع ذلك لم يستمر هذا السلام اكثر من ٨ سنوات .

وفي عام ٥٤٠ م انتهز الفرس فرصة اشتباك جيوش جستنيان في الحرب الإيطالية واندفعت الجيوش الفارسية نحو سوريا واستولت علـــي

مدينة إنطاكية المهمة ووصلوا إلى حدود البحر المتوسط وربما كان هــذا من الأسباب التي أدت إلى طول الحرب الإيطالية وبدأ جســتنيان يحــس بالخطر واشتد الصراع من جديد بمختلف المناطق الحدود الشرقية والواقع أن هذه المرحلة استمرت حتى عام ٥٦١ م أي قرب نهاية حكم جستنيان عندما عقد الطرفان ما سمي باسم صلح الخمسين عام .

هكذا كانت هذه الحروب المتصلة رغم أن جستنيان لم يفقد فيهــا أي ممتلكات إلا أن الإلحاق الذي نتج عنها كان بعيد المــدى ومــن هنــا نستطيع أن نفهم حالة الفوضي والاضمحلال التي بدأت تظهر بوضوح في الجزء الأخير من فترة حكم جستنيان أي منذ ابتداء النصف الثــاني مــن القرن السادس الميلادي .

السياسة الدينية :

ربما كانت النتائج التي نتجت عن سياسة جستنيان اتجاه الطوائف الدينية المختلفة خطيرة ورغم ذلك فان جستنيان اعتبر الأمور الدينية جانبا مهما من واجباته كإمبراطور وربما انه تدخل في شئون الدين اكثر مــن أي إمبراطور آخر منذ عصر قسطنطين فكان هدفه الوصول إلى تفســير موحد يقبله الجميع ومن هنا أطلق المؤرخين علي سياسته اسم القيصــرية البابوية إلى انه اعتبر نفسه رأسا للدولة وللكنيسة في نفس الوقت لــه أن يتدخل في المشاكل الدينية تماما كما انه مسئول عن الجوانــب السياســية فجعل لنفسه الحق في تعيين كبار رجال الدين وعزلهم وحارب الخارجين عن الدين بشدة واغلق مدارس الفلسفة الوثنية في أثينا في بدايــة حكمــه وكان في الواقع كانت آخر معاقل الفكر الديني القديم ولم يكن حظ اليهود افضل فحاربهم بشدة واغلق أماكن اجتماعاتهم ثم بدأ يحــارب الطوائــف الثائرة في الأقاليم الشرقية ولو أن الإمبراطورة ثيودورا طــوال حياتهــا كانت تخفف من وطأة هذه السياسة وذلك بفضل معرفتها بأحوال الأقــاليم

الشرقية وأهميتها ثم توفيت ثيودورا في سنة ٥٤٨ م وبدأ جستنيان يتطرف في سياسته تطرفا خطيرا فلم يعد يهتم برأي مستشاريه من رجال الدين وتخيل نفسه من علماء الدين واصبح الخلاف الديني في الحقيقة مرتبطا بالسياسة التي حد بعيد وكانت النزعة القومية تشتد تدريجيا في الأقاليم وسياسة الإمبراطور تزيد الأمر سوءا وعند وفاة جستنيان في سنة ٥٦٥ م كانت المشكلة الدينية علي الأشد .

جستنيان وإصلاحاته التشريعية :

مع أن جستنيان انشغل طول فترة حكمه بالغزوات الخارجية ومحاولات استرجاع جميع الأقاليم الرومانية القديمة واشتبك مع الفرس علي الحدود الشرقية بشكل مستمر تقريبا كما اهتم بالمسائل الدينية ومحاولة تنظيمها وخاصة في الفترة الأخيرة من حياته إلا أن ذلك لم يمنعه من الاهتمام بالتنظيم الداخلي بل علي العكس من ذلك فربما هو هذا الميدان الذي نجح فيه جستنيان إلى حد بعيد وخاصة فيما يتعلق بتنظيم التشريعات وتجميعها بحيث أصبحت الإمبراطورية كلها تخضع لقانون واحد محدد .

الواقع أن جستنيان وجد أن نظام الدولة كله في حالة من الفوضي ويحتاج إلى إعادة تنظيم في كافة الميادين وقد كان من أهم المبادئ التي قامت عليها الإمبراطورية الرومانية واستمرت كثير عليها حتى النهاية فكرة حكم القانون فكانت جميع المناطق تخضع للقانون الروماني وكان ذلك من أهم النواحي التي برع فيها الحكم الروماني .

كانت أول محاولة في روما لعمل قانون محدد ومكتوب هي المعروفة باسم الألواح (اللوائح) الاثني عشر Dodecim Tabulae وقد قام بعملها في أوائل العصر الجمهوري أي في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لجنة من عشرة مشرعين بعد أن كانت القوانين مبنية علي

العرف والتقاليد وقد حاولت هذه اللجنة الأولى تجميع بعض القواعد المتفق عليها بوضعها في صيغة محددة مكتوبة وكان هذا بداية التشريع الروماني والأساس الذي قامت عليه مختلف التنظيمات فيما بعد لكن بمضر الزمن وتوسع روما وتكوين إمبراطورية واسعة غيرت الأحوال الاجتماعية والسياسية واصبحت التشريعات الأولى غير كافية واضيفت إليها قواعد جديدة لمواجهة المشاكل الجديدة بحيث اصبح القانون غير واضح مما استبعد محاولات في فترات مختلفة لتحديد وجمع التشريعات حتى يسهل الوصول إليها ومع ذلك بقى اللوائح الاثني عشر ذات أهمية خاصة بالنسبة للرومان ومن أهم المحاولات لتجميع القوانين قبل عصر جستنيان محاولة تمت في القرن الثاني الميلادي في عصر هادريان لتجميع جميع القوانين التي صدرت حتى هذه الفترة ثم محاولة ثانية في عصر ثيودوسيوس الثاني أي في سنة ٤٣٨ م ولكن هذه المحاولات كانت اقل بكثير من محاولة جستنيان للتشريع الشامل .

الواقع أن جستنيان وجد عند توليه السلطة أن من أهم مصادر الشكوى في الداخل الأحكام المتناقضة التي تصدرها المحاكم ولم يعد القانون من البساطة بحيث يمكن الرجوع إليه عند الضرورة فقد تجمعت علي مر العصور أحكام أو تشريعات أصدرها القضاة أو الأباطرة في المناسبات المختلفة بعضها تعديلات للقوانين القديمة أو تشريعات جديدة وهكذا أصبحت هذه التشريعات متشاعبة وهي عبارة عن كتلة ضخمة من الأحكام والسوابق كثيرا ما يكون بينها تناقض كما أنها تحتاج لمراجع ضخمة ليست في متناول المهتمين بالقوانين من هنا بدأت محاولة جستنيان الشاملة للتنظيم القانون وجمع لجنة من الفقهاء علي رأسها القانوني الكبير تريبونيان Tribonianns وفعلا أصدرت هذه اللجنة في عام ٥٣٠ م

مجموعة قانونية ضخمة سميت باسم القانون الدستوري Codex Justinianus .

واعلن الإمبراطور أن هذه الموسوعة هي قانون الإمبراطورية كلها ويلغي ما سبقه من تشريعات فيما عدا ما تضمنه منها وقد رجع هذا العمل وصدرت منه طبعة ثانية منقحة في سنة ٥٣٤ م وتتكون هذه الطبعة الجديدة من اثنى عشر كتابا كل منها يحتوي على عدد من موضوعاته بحيث يضم كل موضوع التشريعات المتعلقة به واسم الإمبراطور الذي أصدرها وتاريخ صدورها وهذا هو السبب في أن القوانين الخاصة بكل موضوع تختلف في تلميحها فبعضها يرجع إلى أوائل العصر الإمبراطوري والبعض الآخر من عصر جستنيان نفسه .

في نفس الوقت شكل جستنيان لجنة قانونية أخرى كان على رأسها تريبونيان أيضا لتنظيم القانون العام واستمرت هذه اللجنة تعمل ثلاث سنوات من ٥٣٠ : ٥٣٣ م واصدرت في النهاية ما نسميه مجموعة الفتاوي الدستورية والقوانين Pandects وكانت تتألف من خمسون كتابا تشمل الأحكام التي أصدرها القضاة والمشرعون بحيث يعالج كل كتاب نقطة قانونية معينة وهكذا اصبح لدى الإمبراطورية الرومانية مكتبة قانونية تتكون من اثني عشر كتابا هي القانون الدستوري و خمسون كتابا للقوانين والفتاوي يمكن الرجوع إليها عند الحاجة بحيث كانت مرجع متاح في الأقاليم المختلفة ثم ظهرت الحاجة لكتاب مختصر لصالح مدارس القانون والدارسين فيها وكان هناك مدارس للقانون بالقسطنطينية مثلا وروما وبيروت وغيرها تحتاج لمرجع في الموضوعات أو المبادئ القانونية الأساسية ومن هنا صدرت في بداية عصر جستنيان أيضا مجموعة من أربع كتب سميت باسم خلاصة القوانين Institutiones وفي الوقت ذاته لم ينقطع جستنيان عن إصدار قوانين جديدة بعضها تعديلات

للقوانين السابقة والبعض الآخر يستكمل نواحي التشريع ومن هنا تجمعت في نهاية حكم جستنيان مجموعة من التشريعات بلغ عددها حـــوالي ١٦٠ قانونا تتعلق بمسائل متعددة وصدر تحت اسم تشريعات جديدة Novellae في الجزء الأكبر من تشريعات جستنيان المختلفة كـــان يهـــتم بالمســـائل الإدارية والدينية وكان هناك جزء أيضا يتعلق بالملكية الفردية والعلاقات الاجتماعية المختلفة ولكن الغريب أن جستنيان مع تركيزه علي الجوانـــب الدينية المسيحية ادخل في قوانينه كثيرا من التشريعات التي صدرت فـــي عهد الوثنية بل هناك تشريعات كثيرة صدرت فـــي فتـــرات الاضـــطهاد الديني العنيف مثل عصر إمبراطور دقلـــديانوس وأيضـــا الإمبراطـــور جوليان ولكن علينا أن نتذكر أن جستنيان كان دائمـــا متمســـكا بالتقاليـــد الرومانية المتبعة منذ القدم وعمل جهده علي استفادة من تجارب القـــرون الطويلة التي سبقته واعتبر ذلك افضـــل الأســـس التـــي تقـــوم عليهـــا الإمبراطورية ومن هنا كانت محاولته لتوفير بين القديم فهـــو لـــم يغفـــر التقاليد والأوضاع التي أرساها اليونان منذ اقدم العهود وحـــاول التوفيـــق بينها وبين الأوضاع الجديدة .

نظرة عامة علي قوانين جستنيان :

النظرة السطحية إلى التشريعات المختلفة التي صدرت في عصر جستنيان تظهر أن الشريعة المسيحية هي الأساس في جميع القوانين فقـــد اقر جستنيان بأهمية الزعامة الدينية وجعل لها سلطات عالية غير أن مواد أخرى في نفس القوانين أعلنت سلطة الإمبراطور علي الكنيسة وقالت أن جميع القوانين الدينية تماما كما هو الحال كالقوانين الدينية تصـــدر مـــن الإمبراطور نفسه ثم ادخل جستنيان مواد قانونية خاصة بمعاملة رجـــال الدين بحيث أصبحت هناك عقوبات توقع علي كل من يخرج عن الإطار الديني المحدد مثل ارتياد الذهاب إلى أماكن اللهو ودور التمثيل وحلقـــات

المباريات الرياضية فرجال الدين إذا ذهبوا هناك تكون لهم عقوبات ثــم حاول جستنيان أن يوقف محاولات الانشقاق الديني فعقوبة الخارجين عن الدين هي الإعدام .

أما حركات الانشقاق فأصحابها تصادر ممتلكاتهم أو يحرمون من ممارسة الحقوق المدنية ومنها عمليات البيع والشــراء وتحــرم علــيهم الوظائف العامة وحتى حق المطالبة بما يكون لهم من ديون علي الغير .

من ناحية أخرى وضعت قوانين جستنيان مواد محــددة لحمايــة المساكين من سوء استعمال السلطة وجعل القانون لرجال الدين الحق في زيارة السجون لتأكد من حسن الأحوال فيها نلاحــظ أيضــا أن قــانون جستنيان حافظ علي النظام الطبقي الروماني القديم واستمر المجتمع مقسما إلى طبقات تتدرج في الأهمية حسب الثروة والوضع الاجتماعي فالطبقــة الثرية هي العليا وطبقة الفقراء في اسفل درجات المجتمع ولكــن العبيــد المحررين مثلا الذين يستطيعون جمع بعض الثروة وتصبح لهــم منــذ لحظة تحررهم جميع حقوق المواطن الحر ولهم الحق في تولي المناصب العامة وغير ذلك والواقع أن جستنيان كان يشجع علي تحرير العبيد ربما لتأثير من زوجته ثيودورا واصبح للعبد المحرر الحق بموافقة سيده علي الزواج من امرأة حرة هذا ولو أن القانون توقف عن تحريــر العبوديــة فمثلا الأطفال الذين يولدون من أبوين معتقين يبيعون في ســوق الرقيــق واهم من ذلك أن رقيق الأرض استمر بمعنى أن الفلاح الذي يقوم بزراعة أرضه لمدة ثلاثين سنة ليس له الحق في مغادرتها بل هو مــرتبط بهــا طوال حياته فالسبب هنا اقتصادي بحت وهو أن وطــأة الضــرائب فــي عصر جستنيان نتيجة لحروبه المستمرة ومشــروعاته المختلفــة دفعــت الكثيرين تحت تأثير الخوف من ازدياد الضــرائب إلــى تــرك الأرض والاتجاه نحو المعيشة في المدن وكان من الضروري أن يؤدي ذلك إلــى

سوء الأحوال الاقتصادية وهكذا نجد في قوانين جستنيان كثيرا من التناقضات فهي من ناحية تحاول المحافظة علي التراث الروماني القديم ومن ناحية أخرى يحاول جستنيان إضافة المواد التي تتفق مع انتشار المسيحية في عصره انتشارا واسعا لحوض البحر المتوسط كله .

نظام الحكم :

تطور نظام الحكم في العالم الروماني منذ أوائل عصر الإمبراطورية حتى عهد جستنيان تطورا كبيرا .

فأولا : القناصل الذين كان النظام كله يعتمد عليها حيث انهم يمسكون بزمام السلطة العليا فقد حافظ أغسطس في بداية العصر الإمبراطوري علي نفس الأوضاع السابقة وان كانت السلطات قد بدأت تنتقل بالتدريج إلى الإمبراطور بحيث قلت السلطات الفعلية في يد القنصلين ولكننا نلاحظ أن مركز الإمبراطور نفسه تطور فبدلا من الحكم الفردي المقنع الذي بدأه أغسطس حين أعلن مركزه الرسمي في الدولة هو المواطن الأول أو Princeps تطور بالتدريج إلى الديكتاتورية وخاصة منذ القرن الرابع بحيث تركزت السلطات كلها تقريبا في يد الإمبراطور أما مجلس السيناتو الذي كان في أول عظمته وفي بداية الأمر يمسك بخيوط السلطة كله ويشرف علي جميع شئون الدولة وقد فقد هذه السلطات بالتدريج ومع ازدياد سلطات الإمبراطور تدهورت سلطات المجالس المنتخبة وعلي رأسها مجلس السينات فلا نكاد نسمع عن إمبراطور وقع الاختيار عليه عن طريق مجلس السينات فيما يتعلق بالأقاليم كان من نتيجة تركيز السلطة الفعلية في العاصمة وازدياد الاتجاه نحو الديكتاتورية أن اصبح حكام الأقاليم مسئولين أمام الإمبراطور مباشرة فعلي الرغم من انه في البداية كانت لهم سلطات واسعة وكان هذا النظام إلى حد ما في صالح سكان الأقاليم بحيث لم يعد حكم الأقاليم الخارجية وسيلة يستعيد بها

حاكمه ما فقده من ثرواته ويجمع كل ما يعثر عليه من الأعمال الفنية للإقليم الخاضع له كما كان الحال في نهاية العصر الجمهوري و بداية الإمبراطورية تحسنت الأحوال لفترة ما ولكن بالتدريج اصبح حكام الأقاليم يرجعون إلى العاصمة للاستشارة حتى في ابسط الأمور مما كان يعقد القرارات التي حداً بعيد ويبدو أن الأباطرة أنفسهم كانوا يشجعون علي هذا الاتجاه خوفا من أن ينفرد حكام الأقاليم بالسلطة ويزداد نفوذه إلى درجة الخطر وربما لجئوا إلى حركة العصيان كان سكان الأقاليم في الإمبراطورية كلها من نوعين رئيسيين :

سكان المدن وسكان الريف ولكننا نلاحظ انهم في عصر جستنيان زاد الشعور العام والقلق وعدم الطمأنينة في معظم الأقاليم خاصة مع الهجمات الخارجية كل ذلك دفع الكثير من سكان الريف وخاصة الطبقة الغنية إلى الهجرة إلى المدن حيث يجدون نوعا من الأمان ثم أن عبء الدفاع عن الإمبراطورية كان يستنزف أموالا طائلة معظمها يأتي من الضرائب علي أصحاب الأراضي الأغنياء وكان الشغل الشاغل لمعظم الحكام في الأقاليم هو الحصول علي موارد مالية جديدة أي فرض الضرائب للأغراض الحربية كل هذا شجع علي زيادة الهجرة ومغادرة الأراضي الزراعية إلى المدن هربا من الضرائب مما جعل الإمبراطور جستنيان في مرحلة من المراحل إلى إصدار القوانين لوقف حركة هجرة المزارعين إلى المدن في العاصمة نفسها تركز الحكم في يد الإمبراطور يعاونه عدد من الوزراء أهمهم حاكم إقليم الشرق تحت لقب Prefect وكان مسئولا عن آسيا الصغرى وسوريا ومصر ومركزه القسطنطينية ثم كان هناك وزير مسئول عن أقاليم البلقان ولكل من هذين الحاكمين عدد من المستشارين يساعدونه في المسائل الإدارة ثم كانت هناك إلى جانب ذلك ثلاثة وزارات رئيسية إحداها تشبه وزارة العدل وتختص بالناحية

القضائية والثانية تختص بالمسائل المالية ثم ظهر في عصــر جســتنيان وزير ثالث مهم يشرف علي موظفي الدولــة والقصــر الإمبراطــوري والإدارات العامة والبوليس السري والمصانع العسكرية التي تديرها الدولة ويمكن أن نطلق عليه لقب رئيس ديوان الموظفين والواقع انه كانت لــه سلطات واسعة وإمكانيات لا حدود لها .

تنظيم الجيش البيزنطي :

لعل من أهم التنظيمات التي قام بها جستنيان وكان لهــا أهميــة خاصة حتى في القرون التالية هي التنظيم العسكري فقد اعاد جســتنيان تنظيم الجيش وغير من نظام الدفاع في أقاليم الإمبراطورية حين وجد أن الأساليب الحربية القديمة والأسلحة التقليدية لم تعــد تصــلح لمواجهــة الأعداء الجدد للإمبراطورية وللظروف المتغيرة كانــت الحــروب فيمــا مضي تعتمد علي المشاة والجيوش الجرارة ولكن جستنيان وقواده وجدوا من الأفضل الاعتماد أساسا علي الفرسان وخاصة الفرق ثقيلــة التســليح ولعل ذلك جاء نتيجة للغزوات الجرمانية فهؤلاء الجرمان وأيضا الفــرس علي الحدود الشرقية كانوا يستخدمون الخيول علي نطاق واسع ومن هنا وجد بلزاريوس ومندوس ونارسيس وجدوا من الضروري إعادة تشــكيل فرق من الفرسان خاصة وان الجيوش الجرارة كان يصــعب الســيطرة عليها وتنظيم تحركاتها فاعتمدوا علي فرق الفرسان الصــغيرة ســريعة الحركة وفي نفس الوقت أقام جستنيان عددا كبيرا من القلاع الحربية علي مسافات متقاربة تكفي لحماية الفرق بداخلها بحيث تستطيع الصمود ضــد هجمات يقوم بها غالبا قبائل متنقلــة تتبــع سياســة الهجــوم الخــاطف والانسحاب السريع ولا تعرف أساليب الحصار لمدد طويلة فكانت هــذه القلاع وسيلة فعالة لصد وعرقلة الغــارات الخارجيــة أي أن تنظيمــات

الجيش في عصر جستنيان تطورت أساسا بفضل الحروب المستمرة في جميع الجبهات ونوعية الأعداء الذين لابد من مواجهتها .

حالة الإمبراطورية البيزنطية بعد جستنيان

كانت مرحلة التوسع التي بدأها جستنيان ومحاولة إعادة الإمبراطورية القديمة إلى سابق مجدها بالإضافة إلى المشروعات الداخلية التي استمرت طوال حكم جستنيان كل ذلك أدى إلى إرهاق الدولة وربما انه أسرع بعملية سقوطها في النهاية وتدل المرحلة منذ وفاة جستنيان في سنة ٥٦٥ م حتى بداية حكم أسرة هرقل سنة ٦١٠ م علي خطورة النتائج التي أدت إليها سياسة جستنيان فقد خلفه في الحكم ابن عمه جستنيوس الثاني Justinus II وقد كان رجلا صلب الرأي لا يتميز ببعد النظر ولم يرى نقط الضعف الحقيقية في الإمبراطورية وانخدع بالمظاهر الخلابة التي تركتها مشروعات جستنيان ولم يحس بالأخطار الخارجية التي كانت تتجمع علي حدود الإمبراطورية المختلفة فقد كانت هناك حركة ضخمة للانتقال بين قبائل غفيرة العدد كلها تطمع في الإمبراطورية في نفس الوقت اتبع جستنيوس الثاني مع جيرانه سياسة لا مرونة فيها وانتهي الأمر ما يشبه بالكارثة وبدأ الإمبراطور نفسه يفقد اتزانه كانت الأحوال الداخلية الاقتصادية سيئة والفرق العسكرية شبه منهارة نتيجة للحروب الطويلة المستمرة وفي الداخل كانت الفرق الدينية تزداد في صراعاتها وبدأ الإمبراطور حكمه بحركة اضطهاد ديني عنيف زاد المشاكل سوء ونفس هذه السياسة المتزمدة لم تنجح طوال القرون السابقة ثم بدأ أخطاء الإمبراطور تتضح أيضا في مجال السياسة الخارجية علي الحدود الشمالية والشرقية كانت مجموعات من القبائل تتجمع من أواسط آسيا وهي مجموعات من اصل تركي ثم بدأت تصل إلى الحدود مجموعات أخرى من الأفار Avar في شمال أوروبا وكانت قد هربت إلى هذه المناطق

البعيدة في فترة زحف القوط والهون وغيرهم وقد حاول جستنيان من قبل أن يسترضي هذه القبائل وامدها بمعونات علي أمل أن يستطيع تجنيد أعداد منها أو يستخدمها في حماية حدوده الشمالية أما خليفته جستنيوس الثاني فقد حاول أن يستعمل الشدة مع هذه القبائل فجاء ذلك بنتيجة عكسية كانت الحدود الشرقية أيضا تنذر بأشد الأخطار واشتد النزاع مع الفرس ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي حاول أن ينتهز فرصة وجود خلافات داخلية في فارس لكي يضرب ضربة شديدة ضد خصومه .

و بما انه اعتقد أيضا أن ضغط القبائل الآسيوية علي حدود فارس الشرقية سوف يساعده في حملته ولكن الأمر انتهي بكارثة وبدأ الفرس يزحفون نحو إقليم سوريا واستولوا فعلا علي كثير من المدن الكبرى وفي هذه الظروف القاسية اضطر جستنيوس الثاني إلى اختيار قائد عسكري جديد هو تيبريوس الثاني لكي يساعده في الناحية العسكرية واختار في نفس الوقت كوالي لعهده كان تيبريوس الثاني الذي استمر حكمه من ٥٧٨ : ٥٨٢ م من مقاطعة تراقيا في شمال اليونان وقد كسب خبرة عسكرية في حروبه مع قبائل الأفار ويعتبر أول الاباطرة من اصل يوناني وباعتلائه السلطة زادت الصبغة اليونانية في الإمبراطورية الشرقية بعد أن كانت العناصر الرومانية ماتزال قوية امتاز تيبريوس بالكفاءة وكان واقعيا في سياسته فكان يعرف حدود إمكانياته ولم يجد فائدة كبرى في محاولة الإبقاء علي إيطاليا التي عادت إلى غزوها مجموعات جديدة من القبائل جاءت من أقاليم الغال ونفس أقاليم البلقان أحس بأنها منهكة وفقدت الكثير من أهميتها القديمة ومن هنا حاول أن يركز علي الأقاليم الآسيوية ومصر أي الأقاليم التي تتحدث اليونانية ورأي أن حياة الإمبراطورية تتوقف علي المحافظة عليها من هنا حاول تيبريوس الثاني استرضاء الفرق الدينية الثائرة في هذه المناطق .

لكن كان لابد من الاستمرار في الحروب الفارسية علـــي الأقــل للوصول إلى نهاية مرضية وهو ما اكتشف صعوبة تحقيقه خاصـــة وان الجبهات الأخرى تعرضت بدورها للخطر عند وفاة تيبريوس في ٥٨٢ م كانت الأمور في اشد تعقيد .

خلف تيبرويوس في الحكم الإمبراطور مـــوريس ٥٨٢ : ٦٠٢ م وهو قائد عسكري جاء من مقاطعة كبادوكيا Cappadocia فـــي آســـيا الصغرى وكانت له خبرة عسكرية وتميز بالشجاعة .

وبعد النظر ولكن يبدو انه بدا يعتد بنفسه اكثر من اللازم ولم يعد يستمع إلى رأي مستشاريه واصبح يميل إلى العنف بصفة متزايدة مما زاد من كراهيته فبدأ مثلا يحس بالحاجة إلى الاقتصاد في المصروفات بعــد فترة حروب طويلة وكان يحب النظام ويبالغ فيه ولكــن ذلــك أدى إلـــى مشاكل في الجيش وبدأ يحث الجيوش البيزنطية علي تشديد هجماتها علي الفرس في نفس الوقت الذي بدأ فيه بتخفيض المرتبات كنوع من الاقتصاد زاد ذلك من حالة التذمر ليس فقط داخل الجيش بل في القسطنطينية نفسها ربما كان من حسن حظه أن التذمر اشتد أيضا في فارس ممـــا اضـــطر الإمبراطور الفارسي حسرو الثاني في ٥٩٠ م إلى الهرب والالتجاء إلى عدوه بيزنطة وقبل موريس حماية الإمبراطور الهارب وحاول أن يعيـــده إلى عرشه ومن هنا بدأت مرحلة غريبة من العلاقات الودية بين الجارتين العدوتين بيزنطة وفارس في سنة ٥٩٢ م انتهز موريس الفرصـــة لكـــي يوجه جيوشه إلى البلقان لمحاولة إنقاذها ولكن ذلك لم يكن سهلا صـــحيح انه استعاد خط الدانوب وابعد وراءه القبائل البربرية المختلفة ولكن ذلـــك استمر سنين طويلة ومرة أخرى كانت التكاليف باهظة.

انتهت هذه المرحلة في ٦٠٢ م وبدأ كما لو كانت الأمور قد هدأت إلى حد كبير ولكن موريس ارتكب خطأ حين أمر جيوشـــه بالبقـــاء فـــي

مناطق شمال البلقان خلال فصل الشتاء البارد ولم يقتنع الجنود بمنطـــق الإمبراطور وبدأت الفتنة واخيرا ثار جيش الدانوب تحـــت قيـــادة القائـــد فوكاس Phocas نحو العاصمة للتخلص من الإمبراطور نفسه ولم يكـــن في القسطنطينية إلا فرق صغيرة من الحرس الإمبراطوري كمـــا كانـــت الأحزاب المتصارعة تستعد للوقوف ضد الإمبراطور وخاصـــة حـــزب الخضر واضطر الإمبراطور إلى الهرب وان كان الثوار قد اســـتطاعوا القبض عليه وإعدامه هو وأفراد أسرته واعلن فوكاس نفسه إمبراطـــوراً جديدا بمساعدة حزب الخضر تميز حكم فوكاس كله بالفســـاد والإرهـــاب والديكتاتورية ولم تكن له كفاءة تذكر فبدأت الثورات في الحال في البلقان وآسيا الصغرى ورفض الكثيرون الاعتراف بمغتصب العـــرش وانضـــم الحزبان الخضر والزرق إلى فئة الثوار في مختلف المدن ليس فقط فـــي القسطنطينية وانما أيضا في إنطاكية والقدس والإســـكندرية ولـــم يجـــد الإمبراطور من يقف في صفه إلا بعض الفرق العسكرية القليلة لكي يزداد الأمر سوءا بدأ التدخل الإمبراطور الفارسي خسرو الثاني فقـــد أراد أن ينتقم بقتل منقذه السابق الإمبراطور موريس وفي نفس الوقت يبدو انـــه شعر بقدرته علي التوسع الخارجي علي حساب الدولة البيزنطية فهـــاجم أرمينيا واستولى عليها ثم زحف نحو سوريا واستولى عليها أيضـــا فـــي ٦٠٧ م وبلغ الأمر أقصى درجات السوء عنـــدما عبـــر الفـــرس جبـــال طوروس وتقدموا نحو آسيا الصغرى واحتلوا معظم أجزائها في ٦٠٨ م : ٦٠٩ م وبالطبع كانت الخلافات الداخلية في بيزنطة نفسها تـــزداد ولـــم يعترف الكثيرون بشرعية الإمبراطور فوكاس وهنا حدث ما كان يحـــدث كثيرا في الدولة الرومانية حين قرر أحد القادة العســـكريين فـــي شـــمال أفريقيا وهو هرقل أن يتدخل كان هرقل أحد كبـــار قـــواد الإمبراطـــور موريس ومن أقدمهم ورغم تقدمه في السن فقد قام بمغامرة للتخلص مـــن

فوكاس ويبدو انه وجد مساعدة في القسطنطينية نفسها ومن هنـــا أبحـــر هرقل نحو القسطنطينية في ٦١٠م وبدأ في حصارها كما أرســل قــواد للسيطرة علي مصر لمحاولة منع صدور القمح منها إلى القسطنطينية .

لذلك احكم حصاره علي العاصمة ولم يجد فوكاس بدا من التسليم وتم قتله في النهاية ولذلك وصلت إلى الحكم أسرة جديدة هي أسرة هرقل استمرت تحكم في بيزنطة طوال القرن السابع الميلادي .

المراجع في العصر البيزنطي

1- Baynes N.H. : The Byzantine Empire , London , 1958.
2- Baynes N. H . : Byzantine Studies and Other Essays, London . 1960
3- Bell H.I Egypt and the Byzantine Eurpine (the Legacy of Egypt , 332-348)
4- Bury J.B. : History of the later Roman Emire.
5- Creed J.M. and De Lacy O'Leary : the Egyptian Contribution to Christianly (in the Legacy of Egypt ,pp. 300-332 , 1941
6- Denis Van Berchem , l'Armee de Diocletien et la Reforme Constantinienne, Paris 1952.
7- Diehl Ch. : L'Egypte Chretienne et Byzantine , (Tome III dans . G. Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne) Paris 1933.
8- Ernest Stein : Historie du Bas Empire, de la dispanition de l'Empire d'Occident a la mort de Justinien (476-65) . Paris – Bruxelles – Amsterdam , 1949.
9- Freuch R.M. : The Eastern Orthodox Church , London , (476-65) Paris – Bruxelles – Amsterdam , 1949.

10- Germaine Rouillard ; l'Administration Civile de l'Egypte Byzantine , Paris, 1928.
11- Germaine Rouillard ; La Vie Rurale dans L'Empire Byzantine , Paris , 1953.
12- Hardy E.R. : Christian Egypt : Church and People New York . 1952.
13- Hardy E.R. : The large Estates Byzantine Egypt , New York (1901)
14- Johanson A.G and Lewis L.C ; Byzantine , Egypt . Economic Studies , Princeton , 1949
15- Jones A.H.M. : Constantin and the Conversion of Europe . London . 1948
16- Masper J. ; Organisation Militaire de l'Egypte Byzantine , Paris , 1912.
17- Maspero J. : Histoire des l'atriarchs d'Alexandrie, Paris 1923
18- Milne J.G. A History of Egypt Under Roman Rule . London . 1921.
19- Ostrogorsky G. : history of the Byzantine State , Translated by Joan Hussey , Blackwell . Oxford . 1956.
20- Parsons , E.A. , The Alexandrian Library , London , 1952 .
21- Runciman S. : Byzantine Civilization . London 1961.
22- Vasilierv A. : History of the Byzantine Empire , Oxford . 1952.

٢٣- الدكتور السيد الباز العريني ك مصر البيزنطية – القاهرة ١٩٦١.

٢٤- الدكتور مراد كامل : حضارة مصر في العصر البيزنطي (تاريخ الحضارة المصرية الجزء الثاني).

٢٥- مصطفى العبادي ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ١٩٨٥ ، القاهرة .

المحتويات

البيـــــــــــان	الصفحة